العدد الخامس

المنهاج

مجلة إسلاميّة جامعة تصدر مرّة كلّ شهر

ذو الحجة 1418هـ / أفريل 1998م

المنهاج

العدد الخامس

بسم الله الرحمن الرحيم

ربنا تقبل منا إنك انت السميع العليم

المنهاج

مجلة إسلامية جامعة تصدر مرة كل شهر

العدد الخامس – السنة الأولى

مسؤول التحرير: عبد الله سفيان

☎

0 956 448 397

✉

AL-MENHAJ
BM BOX 7524
LONDON WC1N
U.K.

رب يسر وأعن

الحمد لله ربّ العالمين والصّلاة والسّلام على النّبيّ الأميّ وعلى آله وصحبه أجمعين..

وردت إلينا من وراء أسوار الطواغيت رسالة عزيزة، أرسلها لنا أخ داعية يقبع منذ زمن في سجون الطواغيت بتهمة الدعوة إلى التوحيد.. وهو الشيخ الفاضل أبو محمد المقدسي فك الله أسره وجميع إخوانه..

وقد حملت هذه الرسالة كل معاني قوله تعالى: (إنما المؤمنون إخوة)، وجاء بين أسطرها المعدودة معانٍ عظيمة، ونصائح رشيدة، تحثنا على الخير وتدعونا إلى التمسك به، وكلمات الشيخ ، حفظه الله، دعوة لشد العزم وتصويب المسيرة، ونحن إذ ننشر نصها في هذه الإفتتاحية إنما ننشره لقيمته الدعوية، ولما يحتويه من توصيف لواقع نحن بصدد معالجته والله الموفق لكل خير والهادي إلى سواء السبيل..

بسم الله الرحمن الرحيم

إلى الإخوة الأفاضل القائمين على «المنهاج»..

السلام عليكم ورحمة الله وبركاته.. وبعد

فإني أحمد إليكم الله الذي لا إله إلا هو الحي القيوم.. وأصلي وأسلم على قائد المجاهدين وخاتم الأنبياء والمرسلين، وعلى آله وصحبه أجمعين..

ثم أما بعد..

فلقد كانت إحدى أمنياتي الكثيرة لدعوة التوحيد.. التي أتمنى أن تقر بها

عيني في هذا الزمان.. أن يكون لها مجلة هادفة متميزة مستنيرة..
يتولى أمرها طلبة علم متبصرون بدينهم، وبواقع أمتهم وزمانهم..
تكون منارا للشباب المسلم في أرجاء المعمورة، يلتفون حولها، ويساهمون فيها، وينهلون من معينها..
وتحمل عقيدة التوحيد والجهاد لأجل تحقيقه.. وتقوم على نشرها..
وتنب عنها وتدفع تحريف المحرفين، وانتحال المبطلين، وشبهات المشبهين، وتلبيس الملبسين.. فما أكثر هؤلاء في هذه الأزمنة المتأخرة..!!
ومما زاد تطلعي وتشوفي إلى تحقيق هذه الأمنية، كثرة ذلك الغثاء الذي عمّ وطمّ عالم اليوم، من المجلات التي تتمسح بألقاب براقة، ليس لأكثرها حظ منها إلا اسمها ورسمها، مع ما وراءها من الإمكانات والميزانيات والدعم والتمويل، إذ أن أكثرها لا يسلم من الإتكاء على بعض الأنظمة الكافرة، أو بعض أذنابها وعمائمها ورهبانها.. إلا النزر القليل الذي سلمه الله من ذلك، ومع هذا فليست هي بالنقاء والصفاء والأصالة التي نتطلع إليها ونريد.. فمثلها والحال كذلك لا يطفئ ظمأ العطشان، وإن عثر فيها على حسوات عِذاب أحيانا، فإن الكدر والدخن الذي يتخللها في كثير من الأحيان، يجعلنا نقول لها: (ليس ذا بعشك يا حمامة فادرجي).. ولذلك فإن مثلها لم يكن يزيد أمثالنا عندما كنا نطالعها إلا حرقة واشتياقا إلى ما نتمناه ونتطلع إليه..

لا يعرف الشوق إلا من يكابده ولا الصبابة إلا من يعانيها
و
لا تعذر المشتاق في أشواقه حتى تكون حشاك في أحشائه

إلى أن قرّت عيني برؤية <المنهاج> على صعوبة مدخلها علينا، وعسر مسلكها إلينا، إذ أمثالها شوك في حلوق الطغاة، وشجى أنفاسهم، ومصب سخطهم، وغرض سهام أذنابهم، ولذلك فهي لا تصلنا إلا بشق الأنفس.. ومع هذا..

فكم من نطفة عذبة كانت أحب إليَّ من بحر أجـــاج

فللإخوة القائمين عليها أقول.. ثبتكم الله على منهاج النبوة.. وعلى ملة إبراهيم.. وسدد خطاكم وأقلامكم في نصرة دينه..

فإن نصرته والله من أمثل الأعمال وأنفسها، خصوصا في هذه الأزمنة التي ليست الدولة فيها للإسلام، وخذل فيها أكثر الخلق الدين..

قال تعالى: (لا يستوي منكم من أنفق من قبل الفتح وقاتل، أولئك أعظم درجة من الذين أنفقوا من بعد وقاتلوا، وكلا وعد الله الحسنى، والله بما تعملون خبير) فعسى الله أن يأتي بالفتح من عنده، ويمكّن في الأرض لعباده الموحدين، ويبدلهم من بعد خوفهم أمنا.. ومن بعد ذلهم عزا، ومن بعد تفرقهم توحّدا..

وإن كان ثمّة ما أحب أن أذكّر إخواني به في هذا المقام.. وكلّي ثقة بأنهم –إن شاء الله– له ذاكرون.. ولكن تأكيدا وعملا بقوله تعالى: (وذكّر فإن الذكرى تنفع المؤمنين)..

فذلك أن أوصيهم أولا.. بأن يجعلوا كل همهم وجل ىندنتهم وديدنهم؛ (التوحيد) الذي طمست بين الناس معالمه، وعفت رسومه، ونكست أعلامه، وسفت عليها سوافي الجهل والشبهات..

فليكن ذلك أهم ما يشغلكم بارك الله فيكم.. تدورون حوله.. وتبينون واجباته، ولوازمه وحقوقه.. وتذبون عنه شبهات أهل الزيغ والضلال..

وتصدون بصدوركم ونحوركم عنه سهام أعداء الملة والدين.. كي توصلوه إلى الأمة واضحا عذبا نقيا..

الله.. الله في الاجتهاد في ذلك.. اعقدوا عليه الخناصر، وعضوا عليه بالنواجذ، واقبضوا فيه على الجمر...

ولا تأخذوه، كما هو شأن الأكثرين في هذا الزمان، بأطراف الأنامل، أو تطلبونه وتشتغلون به على فضلةٍ، بل اجعلوه هو المطلب الأعظم والأول، وما سواه إنما يطلب على الفضلة والله الموفق ولا رب سواه..

وأوصيهم ثانيا.. بأن لا يشتغلوا بأحد من أهل الإسلام، وأعني بذلك على وجه الخصوص من هم في عدوة أهل الحق المناوئة والمخاصمة لأعداء الملة، إلا لضرورة بيان حق يخشى من كتمانه تلبيس الحق بباطل، أو إضلال بعض الخلق، فإن احتيج إلى شيء من ذلك فليكن على طريقة سلفنا الصالح وعلمائنا الربانيين..

وليوفروا أقلامهم وسيوفهم لأعداء الملة، فليسلطوها عليهم وليشهروها في وجوههم.. فهم في هذا الزمان كثير..

وليتذكروا أخيرا أن من أبرز صفات الطائفة المنصورة القائمة بدين الله، كما في الحديث الصحيح المتواتر.. أنهم «لا يضرهم من خالفهم ولا من خذلهم حتى يأتي أمر الله..».

فليستقيموا إذن على المنهاج، ولا يلتفتوا بعد هذا كله إلى شغب المخالفين.. أو يتضرّروا بإرجاف المرجفين، وتخذيل المخذلين..

فلا بد من وجود أمثال هؤلاء في كل حقبة وزمان.. وهذه سنة الله تعالى في خلقه.. فكما جعل سبحانه للأنبياء وأنصار الدين ورثة -جعلنا الله وإياكم منهم- فكذلك جعل للمخذلين والمرجفين ورثة، يرثون باطلهم، ويتحملون شبهاتهم وزخرفهم..

(قل كل يعمل على شاكلته فربكم أعلم بمن هو أهدى سبيلا)

(فأما الزبد فيذهب جفاء وأما ما ينفع الناس فيمكث في الأرض)

اللهم يا ولي الإسلام وأهله، ثبتنا بالقول الثابت في الحياة الدنيا وفي الآخرة.. واستعملنا في نصرة دينك، واجعل لنا من لدنك وليا، واجعل لنا من لدنك نصيرا.

والسلام

أخوكم

أبو محمد المقدسي

الأردن - سجن البلقاء

مسائل في النفاق
أنواعه وحكمه

عمر بن محمود أبو عمر
(أبو قتادة)

الحمد لله رب العالمين والصلاة والسلام على محمد وآله وصحبه أجمعين..

هذه ورقات في أنواع النفاق وحكمه، لأن هذا اللفظ من ألفاظ الشرع، وإذا كان اللفظ كذلك فإنه يجب ردّ العلم به إلى الله ورسوله صلى الله عليه وسلم، ولفظ النفاق من أعظم الألفاظ الشرعية التي يجب العلم بها، ومثله لفظ الكفر والإيمان، والخطأ في فهم هذه الألفاظ يوقع صاحبه في الجهل بما قاله الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.. وقد رأينا من كان سكوته خيرا من كلامه يزعم أن من ترك حكم الله تعالى واستبدل به شرائع الباطل الكافرة أنه منافق وليس بكافر، ثم يستطرد بأن الله تعالى أمرنا بأن نعامل المنافقين معاملة المسلمين، وذهب هذا -وذهب معه من ذهب- إلى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يقم الحد على المنافقين، ولم يقتلهم مع ثبوت النفاق في قلوبهم، وقالوا: هؤلاء كأولئك سواء بسواء، فالواجب علينا -زعموا- أن لا نحكم عليهم بالكفر، ثم لا يجوز قتالهم، بل حكمهم حكم المنافقين زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الموادعة والمسالمة والصبر عليهم.

ثم رأيت ناسا يسمون بعض الناس منافقين، ويصرحون أكثر بأنهم زنادقة، ثم بقليل من الحوار تعلم أنه لا يقصد تكفيرهم، ولا الحكم عليهم بالردة.

بل رأينا من يفتري ويزعم أن المجتمع المدني زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مجتمع أحزاب متعددة العقائد والأديان، ويستدل على هذا بوجود حزب للمنافقين، وهو حزب ظاهر يعرفه الناس ولا يصادرون حريته.

ورأينا من يفتري ويزعم أن حكم الردة ليس بواجب إلا إذا خرج المرتد عن نظام الدولة الإسلامية بحجة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن يقيم الحدود على المنافقين -وهم كفار-، فجاز للناس في الدنيا أن يغيروا أديانهم، وقال: هاهو ذا القرآن يقول: (آمنوا ثم كفروا)، ولم يرد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل واحدا منهم.

وقالوا ... وقالوا ...

فمن أجل هذا ولغير ذلك من الفوائد التي ستراها كان هذا البحث، وسيتبين لك فيه أن الحكم على الرجل بالنفاق في زماننا هو حكم عليه بالردة (1)، ولا يجوز لك ذلك حتى تقام لك الحجة الشرعية على كفر باطنه، ومن المعلوم أن علمك بالشيء ملزم لك وحدك، وملزم لغيرك بالبينة الشرعية التي تقام بها الأحكام.

ثم سيتبين لك أنه إن ثبت في حق رجل حكم النفاق، وأنه يُسِرُّ كفره ويظهر خلافه، فإنّ حكمه هو حكم الزنديق، وهو أشدّ حكما عند جمهور العلماء من المرتد إذ يوجبون قتله من غير استتابة، بل لا يقبلون توبته حتى لو فعلها، لأنه لم يفعل سوى أن عاد إلى أمره الذي كان عليه قبل ظهور بينات وحجج زندقته.

وفي هذا البحث الرد على من زعم أنّ المنافقين زمن رسول الله صلى الله عليه

---

(1) وليس هو حكم آخر يفارق هذا الحكم.

وسلم قد علم الناس نفاقهم وثبت حكم النفاق عليهم بالبينة الشرعية ثم ترك رسول الله صلى الله عليه وسلم إقامة الحد عليهم -عياذا بالله تعالى-.

وفيه بيان نوعي النفاق، ويتبين لمن علمهما أن أحد نوعيه يمنع ثبوت حكم النفاق عليه لعدم استقراره عليه فيمنع إطلاق الحكم عليه.

تذكرة:

نحن هنا نتكلم عن النفاق الأكبر والذي هو الكفر بعينه كما سيأتي، لا الأصغر وهو الذي يسميه البعض نفاق العمل ويسمون الأول نفاق الإعتقاد، وهي تسمية عليها الكثير من المحترزات، نترك الكلام عليها لموطن آخر، وأهم هذه المحترزات أن النفاق الأكبر يكون من عمل القلب وعمل اللسان، وجزء من عمل القلب هو الإعتقاد، فتسميته بنفاق الإعتقاد يخرج الكثير من صوره، وكذا النفاق الأصغر يكون في القلب واللسان والجوارح، فتسميته بنفاق العمل قصر له على بعض صوره، وليس هذا نفيا لهذا التقسيم بل هو إعادة لترتيبه ترتيبا صحيحا، قال ابن تيمية: «النفاق كالكفر، نفاق دون نفاق، ولهذا كثيرا ما يقال:- كفر ينقل عن الملة، وكفر لا ينقل، ونفاق أكبر، ونفاق أصغر» (2).

(2) مجموع الفتاوى 524/7.

النفاق(3):

النفاق: هو إظهار الإيمان والإسلام وإسرار الكفر(4).

قال الله تعالى: (ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين، يخادعون الله والذين آمنوا وما يخدعون إلا أنفسهم وما يشعرون * في قلوبهم مرض فزادهم الله مرضا ولهم عذاب أليم بما كانوا يكذبون) [البقرة 8-10].

وقال تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله، والله يشهد إن المنافقين لكاذبون) [المنافقون 1].

وقال تعالى: (وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا وإذا خلوا إلى شياطينهم قالوا إنّا معكم إنّما نحن مستهزؤون) [البقرة 14].

فهذه الآيات دليل على أنّ المنافق باطنه على خلاف ظاهره، وهذا هو معنى النفاق في دين الله تعالى.

قال عبد الله بن الإمام أحمد في السنة حدثني وكيع عن الأعمش عن شقيق عن أبي المقدام عن أبي يحيى قال:- سئل حذيفة عن المنافق قال: «الذي يعرف الإسلام

---

(3) الحديث عن المعنى اللفظي للنفاق موجود في أغلب المراجع التي تحدثت عن النفاق وفي كل معجم، ولا ضرورة هنا لذكره.. وقال ابن تيمية: وكما ينبغي أن يعلم أن الألفاظ الموجودة في القرآن والحديث إذا عرف تفسيرها وما أريد بها من جهة النبي صلى الله عليه وسلم لم يحتج في ذلك إلى الإستدلال بأقوال أهل اللغة ولا غيرهم. (مجموع الفتاوى 286/7).

(4) انظر شرح السنة للبربهاري فقرة 44.

ولا يعمل به» (5).

فإن قيل هل المنافقون كفار؟ قلنا:- نعم. فإن قيل لِمَ لَمْ يقتلهم رسول الله صلى الله عليه وسلم؟ قلنا:- لأنّهم خدعوا المؤمنين ولم تقم عليهم حجة شرعية بالقتل. فإن قيل ما الدليل؟ قلنا:-

إقرأ هذا المبحث:-

كفر المنافق (6):

يشهد لهذا آيات عظيمة في كتاب الله تعالى نأتي على بعضها:-

قال الله تبارك وتعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثم كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) [المنافقون 1-3].

فهذا نوع من النفاق آمنوا ثم كفروا ثم استقر النفاق في قلوبهم، وختم عليها

---

(5) ح رقم/806 وقال محققه الدكتور/ محمد سعيد القحطاني: أبو يحيى لم أجد له ترجمة.
قلت: هو حبيب بن أبي ثابت، وهو كوفي تابعي ثقة، وسند الحديث صحيح.

(6) هذا الأمر معلوم بيّن وإنّما نذكره لأننا في زمن العجائب ولن نعدم وجود قوم ينفون ذلك، كما وجدنا من ينفي كفر اليهود والنصارى ويسمي كفرهم كفرا أصغرا، فالعجائب لا تنقضي، وقد ذكر ابن تيمية (مجموع الفتاوى 216/7) أن بعض المصنفين في الملل والنحل نسب للكرامية (نسبة لمحمد بن كرام السجستاني) القول إن المنافقين من أهل الجنة، قال: وهو غلط عليهم وإنما نازعوا في الإسم لا في الحكم.

وهو فيه.

قال تعالى: (إن الذين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثمّ كفروا ثم ازدادوا كفرا لم يكن الله ليغفر لهم ولا ليهديهم سبيلا * بشر المنافقين بأن لهم عذابا أليما *... إلى قوله تعالى ... إن المنافقين في الدرك الأسفل من النار ولن تجد لهم نصيرا * إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم فأولئك مع المؤمنين وسوف يؤت الله المؤمنين أجرا عظيما) النساء [النساء *137-146*].

فهذه الآيات فيها بيان حال جماعة من المنافقين آمنوا ثم كفروا ثم آمنوا ثم كفروا ثم ازدادوا كفرا.

ثم حكمهم أنهم في الدرك الأسفل من النار، والنار دركات، كما الجنة درجات، ومعلوم أن من كان هذا حاله فهو من عتاة الكفار كما قال تعالى: (هم العدو فاحذرهم قاتلهم الله أنى يؤفكون).

ثم بين سبحانه أنهم لا يدخلون زمر المؤمنين حتى يتوبوا ويصلحوا ما أفسدوا، ويلتزموا حكم الله تعالى، ويحسنوا ما في بواطنهم ليوافق ظاهرهم.. قال تعالى: (ألم تر إلى الذين تولوا قوما غضب الله عليهم ما هم منكم ولا منهم ويحلفون على الكذب وهم يعلمون * أعدّ الله لهم عذابا شديدا إنهم ساء ما كانوا يعملون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله فلهم عذاب مهين * لن تغني عنهم أموالهم ولا أولادهم من الله شيئا أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون * يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون * استحوذ عليهم الشيطان فأنساهم ذكر الله أولئك حزب الشيطان ألا إن حزب الشيطان هم الخاسرون) [المجادلة *14-19*].

قوله: (أولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) لا تقال إلا للكفار.

وقال تعالى: (وعد الله المنافقين والمنافقات والكفار نار جهنّم خالدين فيها هي

حسبهم ولعنهم الله ولهم عذاب مقيم) [التوبة 68].

فقد جمع الله المنافقين والكفار في مستقر واحد وهو جهنم فدل على اتحاد أمرهم في الحكم عند الله تعالى. وقبلها قال الله تعالى: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون) [التوبة 67].

وقوله تعالى: (إن المنافقين هم الفاسقون) يشبه قوله سبحانه: (والكافرون هم الظالمون)، والله أعلم.

واستقصاء هذا يطول، وهذا يكفي لمن أسلم قلبه لله تعالى..

لكن قد يعترض أحدهم بقوله: إن الله جعل المنافقين من المسلمين بقوله: (قد يعلم الله المعوقين منكم والقائلين لإخوانهم هلمَّ إلينا ولا يأتون البأس إلا قليلا * أشحة عليكم فإذا جاء الخوف رأيتهم ينظرون إليك تدور أعينهم كالذي يغشى عليه من الموت فإذا ذهب الخوف سلقوكم بألسنة حداد، أشحة على الخير أولئك لم يؤمنوا فأحبط الله أعمالهم وكان ذلك على الله يسيرا) فهؤلاء من المنافقين لم يؤمنوا ومع ذلك قال الله عنهم (منكم).

فيقال له:- إن هذه لا تنافي قوله سبحانه وتعالى: (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) [التوبة 56].

فإن المنافقين من المسلمين -بل من أصحابه صلى الله عليه وسلم- في الظاهر وليسوا في الباطن إلا مباينين للمؤمنين، فهم في الظاهر منهم وفي الباطن (هم العدو فاحذرهم).

«وجماع الأمر أن الإسم الواحد ينفي ويثبت بحسب الأحكام المتعلقة به»(7).

(7) مجموع الفتاوى 418/7.

هل بقي حكم النفاق؟

منافق الأمس على عهد رسول الله الله صلى الله عليه وسلم هو الزنديق في ما بعده من الأزمان، وأن ثبوت النفاق على أحد من المسلمين إنما يتم بثبوت حكم الردة عليه، والمنافق إنما يعامل معاملة المسلمين لأننا لا نعلم باطنه، ولكن لو قامت بينة على كفر باطنه فلا قيمة لما يحاول إظهاره من العمل الصالح. قال ابن تيمية: الظاهر إنما يكون دليلا صحيحا معتمدا إذا لم يثبت في الباطن بخلافه، فإذا قام دليل في الباطن لم يلتفت إلى ظاهر قد علم أن الباطن بخلافه (8).

ومن هنا فقد قال ابن المبارك رحمه الله تعالى: النفاق على عهد رسول الله الله (صلى الله عليه وسلم) هي الزندقة من بعده (9).

وقال صاحب المغني: والزنديق هو الذي يظهر الإسلام ويبطن الكفر وكان يسمى في عهد النبي الله صلى الله عليه وسلم منافقا(10).

ومن فرّق بين الزنديق والمنافق (11) فإنما هو تفريق لا يضر هذه المسألة، إذ المنافق هو من لا تُعلم حقيقته الباطنة بشيء من ظاهره، فإن ظهرت بالحجة

---

(8) الصارم المسلول 648/3.

(9) الإبانة عن أصول الديانة العكبري ح/944.

(10) المغني مع الشرح الكبير 172/7.

(11) يقول الغزالي:– وإن المنافقون يظهر كفرهم بالمخايل لا بالتصريح ولا يجوز بناء الأمر على المخايل، وأما الزنديق فقد جاهر بالإلحاد ثم حاول ستره وذلك من صلب دينه (شفاء الغليل في مسائل التعليل).. ومال الغزالي –وهو من الشافعية– إلى عدم قبول توبته، انظر ‹المستصفى› 141/1 و‹التفرقة بين الإسلام والزندقة›.

الشرعية فإنما هو زنديق عليه حكمه.

ومن سأل عن التفريق بين المرتد والزنديق فهو أمر يسير، إذ المرتد يعلن ردته وهذا تقبل منه توبته ويستتاب عند جماهير العلماء، وأما الزنديق فهو يُسرّ نفاقه وكفره، ولا تقبل توبته ولا يستتاب كما سيأتي.

ومما يدل على التفريق بينهما ما فعله علي رضي الله عنه:

فمن طريق هُشيم عن إسماعيل بن سالم عن أبي إدريس الخولاني قال: أُتي علي رضي الله عنه بأناس من الزنادقة ارتدوا عن الإسلام فسألهم، فجحدوا، فقامت عليهم البينة العدول، قال فقتلهم ولم يستتبهم، وقال: وأتي برجل كان نصرانيا وأسلم، ثم رجع عن الإسلام، قال: فسأله فأقر بما كان منه، فاستتابه، فتركه، فقيل له: كيف تستتيب هذا ولم تستتب أولئك؟ قال: إن هذا أقر بما كان منه، وإن أولئك لم يقرّوا وجحدوا حتى قامت عليهم البينة فلذلك لم أستتبهم. [رواه الدارمي في كتاب «الرد على الجهمية» وسنده صحيح، ورواه أحمد في أهل الملل والردة والزنادقة وتارك الصلاة والفرائض من كتاب الجامع (ح/1339) من طريق هُشيم عنه به] (12).

«فهذا من أمير المؤمنين علي رضي الله عنه بيان أن كل زنديق كتم زندقته وجحدها حتى قامت عليه البينة قتل ولم يستتب، وأن النبي صلى الله عليه وسلم لم يقتل من جحد زندقته من المنافقين لعدم قيام البينة» (13).

ولهذا قال أحمد في الرجل يشهد عليه بالبدعة فيجحد: ليست له توبة، إنما التوبة لمن اعترف فأما من جحدها فلا توبة له (14).

---

(12) قال محقق «الرد على الجهمية» الأستاذ بدر البدر: إسناده ضعيف فيه هشيم وهو مدلس.

قلت: صرّح هشيم بالتحديث عند أحمد في المرجع السابق، والتضعيف بهذه الطريقة هو طريقة ظاهرية المتأخرين، انظر «الفروسية» لابن القيم رحمه الله في نقد هذه الطريقة.

(13) الصارم المسلول 686/3.

(14) السابق.

لكن لو اعترف بالزندقة قبل القدرة عليه قبلت منه التوبة:-

قال القاضي أبو يعلى وغيره:- وإذا اعترف بالزندقة ثم تاب قبلت توبته، لأنه باعترافه يخرج عن حد الزندقة، لأن الزنديق هو الذي يستبطن الكفر وينكره ولا يظهره، فإذا اعترف به ثم تاب خرج عن حده فلهذا قبلنا توبته (15).

قال ابن القاسم: إذا أخفى الرجل دينا فأتى تائبا منه قبلت منه توبته ولم يقتل، قال: وإن أخذ على دين أخفاه مثل الزندقة أو اليهودية أو النصرانية وكان دينا يخفيه قتل ولم يستتب لأن توبته لا تعرف، وإن أنكر ما شُهد عليه به لم يقبل إنكاره وقتل ولم يستتب، وإن ادّعى التوبة أيضا لم تقبل توبته أيضا.

قال ابن رشد الجدّ: هذا أمر متفق عليه في المذهب (16).

إذا علمت هذا تبين لك معنى قول حذيفة رضي الله عنه: إنما كان النفاق على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمّا اليوم فإنما هو الكفر بعد الإيمان (17).

قال ابن حجر:- والذي يظهر لي أن حذيفة لم يرد نفي الوقوع وإنما أراد نفي اتفاق الحكم (18).

وقول ابن حجر رحمه الله: «إنما أراد اتفاق الحكم» لاختلاف الحال ولقوله فيما تقدم التفريق بين المنافقين الذين كانوا يسرون نفاقهم على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم وبين من أظهر نفاقه وأعلنه.

قال ابن التين: رحمه الله- كان المنافقون على عهد رسول الله صلى الله عليه

---

(15) السابق 3/687.
(16) البيان والتحصيل 16/391.
(17) البخاري 13/69 مع الفتح.
(18) السابق 13/74.

وسلم آمنوا بألسنتهم ولم تؤمن قلوبهم، وأما من جاء بعدهم فإنه ولد في الإسلام وعلى فطرته فمن كفر منهم فهو مرتد ولذلك اختلفت أحكام المنافقين والمرتدّين (19).

ويشهد لقول ابن التين رحمه الله قول أحمد رحمه الله:- الزنادقة حكمهم القتل، ليست لهم توبة، لأنهم ولدوا على الفطرة ونزعوا إلى خلافه (20).

وقد يعترض على ما قلنا بما قاله ابن تيمية رحمه الله تعالى، يقول:- فإن كثيرا من المتأخرين ما بقي في المظهرين للإسلام عندهم إلا عدل أو فاسق، وأعرضوا عن حكم المنافقين، والمنافقون مازالوا ولا يزالون إلى يوم القيامة والنفاق شعب كثيرة (21).

وقبل الجواب على هذا الإعتراض نسوق قاعدة سبكت من شذرات البلاتين في طريقة التعامل مع كلام الفقهاء والعلماء.. يقول ابن تيمية رحمه الله تعالى: وأخْذُ مذاهب الفقهاء من الإطلاقات من غير مراجعة لما فسروا به كلامهم وما تقتضيه أصولهم يجرّ إلى مذاهب قبيحة (22).

وحتى يفهم كلام شيخ الإسلام فإننا لا بد أن نفهمه في سياقه، وقبل كل ذلك فإننا لا ننفي في بحثنا هذا وجود النفاق الأكبر، ولا ننفي حكمهم على الحالة التي وجدت في زمن رسول الله صلى الله عليه وسلم، وهذه الصورة هي أن يقع في قلب المسلم أن فلانا منافق، وأن في قلبه بغض الله ورسوله وشريعته، ومعاداة المؤمنين ومحبة الكافرين، وهذا الذي يقع في قلب الناظر سببه ما يراه من أفعال وأقوال

---

(19) السابق.

(20) أحكام أهل الملل والنحل فقرة 1331.

(21) مجموع الفتاوى 212/7.

(22) الصارم المسلول 512/2، ولبت الذين ينتسبون للسلفية ويجرحون الناس ببعض كلامهم يراعون هذه القاعدة فيضموا الكلام بعضه إلى بعض قبل الحكم عليهم.

تشير لهذا وتدل عليه، وهي من لحن القول، وهي مما يعتقد بها البعض أنها كافية عنده هو للحكم بنفاق المرء، ويخالفه آخر، ولحن القول يَحْتَمِل، وهذا يُعامل معاملة المسلمين في الأحكام بحيث تؤكل ذبيحته ويرث ويورث.. قال ابن تيمية:- وقد تنازع الفقهاء في المنافق الزنديق الذي يكتم زندقته هل يرث ويورث، وإن علم في الباطن أنه منافق كما كان الصحابة على عهد النبي صلى الله عليه وسلم (أي يعلمون نفاقه) لأن الميراث مبناه على الموالاة الظاهرة لا على المحبة التي في القلوب، فإنه لو علّق بذلك لم تمكن معرفته، والحكمة إذا كانت خفية أو مستترة (23) علق الحكم بمظنتها، وهو ما أظهره من موالاة المسلمين.

وابن تيمية في كلامه السابق إنما يعني هذا النوع من النفاق، وكلامه التالي إنما ساقه قبل عبارته تلك -فإن كثيرا...- والنفاق شعب كثيرة، فدل على أنّها مراده.

وممّا يوجب حملها على هذا المعنى أنه قال بعدها:- ولهذا لما كشفهم الله بسورة براءة بقوله: (منهم) (ومنهم) صار يعرف نفاق ناس منهم لم يكن يعرف نفاقهم قبل ذلك، فإن الله وصفهم بصفات علمها الناس منهم، وما كان الناس يجزمون بأنها مستلزمة لنفاقهم، وإن كان بعضهم يظن ذلك وبعضهم يعلمه، فلم يكن نفاقهم معلوما عند الجماعة، بخلاف حالهم لما نزل القرآن، ولهذا لما نزلت سورة براءة كتموا النفاق، وما بقي يمكنهم من إظهاره أحيانا ما كان يمكنهم قبل ذلك، وأنزل الله: (لئن لم ينته المنافقون...) فلما توعدهم بالقتل إذا أظهروا نفاقهم كتموه (24).

وبهذا يظهر لنا مراد الشيخ وأنه يقصد بالنفاق الذي بقي حكمه هو ما لم

---

(23) في المطبوع: منتشرة، وأظن أن الصواب هو ما ذكرته.
(24) مجموع الفتاوى 7/214-215.

يظهره الرجل، أو ظهر منه بما لا يمكن إقامة الحجة عليه من لحن القول، أو عن طريق واحد من العدول فيطمئن الناس إلى قول العدل ولكن لا تصل إلى درجة إقامة الحد عليه، فهذا هو النفاق الذي يتعامل الناس معه كما تعامل رسول الله صلى الله عليه وسلم مع منافقي زمانه، وأما من أظهر وملك الناس الحجة عليه فحكمه القتل كما قال تعالى: (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا) [الأحزاب 60-61].

إذا فهمنا هذا وتبين لنا مراد شيخ الإسلام جزمنا بخطأ تسمية من أتى بالمكفرات الظاهرة وأقيمت الحجة الشرعية عليه أنه منافق يعامل بما عامل رسول الله صلى الله عليه وسلم منافقي زمانه، بل هو كافر مرتد. فإن كان يسرها ويخفيها ثم أظهرها الله تعالى منه فإنه زنديق وهو أشد وأقبح.

مسألة:

وردت ألفاظ عديدة عن أئمة السلف منها الخوف من النفاق وفيها الوصف كذلك لانتشار النفاق في زمانهم، ومنها:-

1- قال ابن أبي مليكة:- أدركت ثلاثين من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم كلهم يخاف النفاق على نفسه، ما منهم من أحد يقول: إنه على إيمان جبريل وميكائيل [رواه البخاري تعليقا].

وابن أبي مليكة أدرك عائشة وعلي بن أبي طالب وسعد بن أبي وقاص وأسماء وأم سلمة والعبادلة الأربعة وأبا هريرة وعقبة بن الحارث والمسور بن مخرمة، رضي الله عنهم جميعا.

2- عن الجعد أبي عثمان قال:- قلت لأبي رجاء العطاردي:- هل أدركت ممن أدركت من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يخشون النفاق؟ وكان قد أدرك

عمر رضي الله عنه، قال:- نعم، إني أدركت بحمد الله منهم صدرا حسنا، نعم شديدا، نعم شديدا(25).

وأبو رجاء أدرك غير عمر عليا وعمران بن الحصين وعبد الله بن عباس وسمرة بن جندب وأبا موسى الأشعري رضي الله عنهم جميعا.

3- قال الحسن البصري رحمه الله: لولا المنافقون لاستوحشتم من الطرقات(26).

4- قال مالك بن دينار:- أقسمت لو نبت للمنافقين أذناب ما وجد المؤمنون أرضا يمشون عليها(27).

5- قال عبد الله بن عمرو بن العاص:- يأتي زمان على الناس يجتمعون في مساجدهم ليس فيهم مؤمن (28).

6- قال الحسن البصري:- ما خاف (أي النفاق) إلا مؤمن وما أمنه إلا منافق(29).

فهذه يجب حملها على النفاق الأصغر، والذي هو يجانب الإيمان في بعضه ولا يخالفه في أصله، فلا يفرح بها أولئك الذين يكفّرون الناس بالعموم، أو يرون أن أهل القبلة قد كفروا فيرتبوا المسألة على طريقة أهل البدع ويقولوا: «هذا الزمان الذي قاله الأئمة، وهو زمن انتشار النفاق والزندقة، فأهل المساجد زنادقة»، وهذا

---

(25) رواه الفريابي في صفة المنافق ح/81، قال محققه الأستاذ بدر البدر: اسناده حسن، وهو كذلك، وانظر فتح الباري لابن رجب الحنبلي 194/1.

(26) الإبانة ح/933.

(27) السابق ح/937.

(28) صفة المنافق للفريابي ح/108.

(29) البخاري تعليقا 109/1 مع الفتح.

القول ضلال وبدعيّ، ولذلك قال ابن تيمية رحمه الله تعالى:- وهذا النفاق الذي كان يخافه السلف على نفوسهم (أي النفاق الأصغر)(30).

ويشهد لهذا ما رواه أبوبكر بن أبي شيبة في كتاب الإيمان (ح/71) قال حدثنا حماد بن معقل عن غالب عن بكر قال: لو سئلت عن أفضل أهل المسجد فقالوا: تشهد أنه مؤمن مستكمل الإيمان بريء من النفاق؟ لم أشهد، ولو شهدت لشهدت أنه في الجنة، ولو سئلت عن شر أو أخبث -الشك من أبي العلاء- رجل، فقالوا: تشهد أنه منافق مستكمل النفاق بريء من الإيمان؟ لم أشهد، ولو شهدت لشهدت أنه في النار.

فالحمد لله رب العالمين.

ومعنا مسألة:

فقد روى الفريابي في صفة المنافق أن سفيان الثوري قال:- خلاف ما بيننا وبين المرجئة ثلاث:-

- نقول: الإيمان قول وعمل، وهم يقولون: الإيمان قول بلا عمل.

- ونقول: الإيمان يزيد وينقص، وهم يقولون: لا يزيد ولا ينقص.

-ونحن نقول: النفاق، وهم يقولون: لا نفاق (31).

فهذا القول منه ليس ردا على قول حذيفة رضي الله عنه -وليس له ذلك- ولكن قول سفيان الثوري رحمه الله هو رد على المرجئة الذين لا يرون اختلاط الإيمان والنفاق في قلب رجل (أي النفاق الأصغر)، فإنهم لقولهم الإيمان هو القول فقط

---

(30) مجموع الفتاوى 428/7.
(31) صفة المنافق ح/93.

أدى بهم إلى القول بأن الإيمان لا يزيد ولا ينقص ولازم قولهم هذا (وقد التزموه) أنه لا يجتمع إيمان ومعصية في قلب العبد، وكذلك لا يجتمع إيمان ونفاق، فهذا هو قول سفيان رحمه الله تعالى في الرد عليهم.

و يشهد لهذا المعنى الذي قاله سفيان رحمه الله قول حذيفة رضي الله عنه في إثبات اجتماع النفاق في قلب الرجل مع وجود الإيمان:-

القلوب أربعة، قلب مصفح فذاك قلب المنافق، وقلب أغلف (32) فذاك قلب الكافر، وقلب أجرد كأنّما فيه سراج يزهر فذاك قلب المؤمن، وقلب فيه نفاق وإيمان، فمثله كمثل قرحة يمدها قيح ودم ومثله كمثل شجرة يسقيها ماء خبيث وطيب، فأيها غلب عليها غلب.

وهو مأخوذ من قوله صلى الله عليه وسلم:- من كانت فيه خصلة منهم كانت فيه شعبة من النفاق حتى يدعها. [متفق عليه].

وبهذا يتبين أن حذيفة رضي الله عنه لم ينف الوقوع وهو الذي نفاه المرجئة.

أنواع النفاق:

النفاق كحقيقة في القلب يقسم إلى قسمين كما ذكر الله تعالى في كتابه، ففي

---

(32) ضبطه الألباني في الإيمان لابن أبي شيبة ح/45، ومحقق الإبانة ح/929، بالقاف أي أغلق، ومعناه أي عليه غشاء عن قبول الحق وسماعه، وهو عند عبد الله بن أحمد في السنة (ح 820) أغلف وهو نفس المعنى. وفي المسند (17/3) أغلف مربوط على غلافه، ولكنه في المسند مرفوع، وسنده ضعيف فيه الليث بن أبي سليم وهو مضعف، والصحيح وقفه.

سورة البقرة وفي ذكرها للجمل الخبرية ضرب الله للمنافقين مثلين هما:-

المثل الأول :

(مثلهم كمثل الذي استوقد نارا فلمّا أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون، صمّ بكم عمي فهم لا يرجعون) [البقرة 17-18].

هذا النوع الأول من النفاق هو من استقر قلبه على الكفر، وثبت عليه، لقوله سبحانه وتعالى:- (ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون)، ولقوله سبحانه: (فهم لا يرجعون) أي إلى ما حصل معهم من إيمان ونور أوّل الأمر.

قال ابن كثير -رحمه الله- (33): وتقرير هذا المثل أنّ الله سبحانه وتعالى شبّههم في اشترائهم الضلالة بالهدى، وصيرورتهم بعد التبصرة إلى العمى، بمن استوقد نارا، فلما أضاءت ما حوله وانتفع بها وأبصر بها ما عن يمينه وشماله، وتأنّس بها فبينما هو كذلك إذ طفئت نوره، وصار في ظلام شديد لا يبصر ولا يهتدي، وهو مع ذلك أصمّ لا يسمع، أبكم لا ينطق، أعمى لو كان ضياء لما أبصر، فلهذا لا يرجع إلى ما كان عليه قبل ذلك (34).

وهذا النوع آمن وعرف الحقّ ثمّ كفر، وهناك نوع يدخل في هذا النّوع من جهة استقرار صاحبه على الكفر وهو داخل في قوله تعالى: (ومن الناس من يقول آمنّا بالله وباليوم الآخر وما هم بمؤمنين) [البقرة 8]، ولكنّه نوع يدخل فيه من لم يؤمن

(33) ابن كثير 483/6.

(34) لأهل التفسير أقوال أخرى غير هذا الذي نقلناه، بعضها ضعيف كمن حمل النور على معنى منفعته الحاصلة في الدنيا، والظلمة على جزائه في الآخرة، وبعضها من مقتضيات هذا الذي قدمناه، ثم اختار ابن جرير أن هذا النوع في المثل القرآني لم يؤمن في وقت من الأوقات وهو خطأ منه رحمه الله تعالى مع جلالته، وفسّر ابن جرير المثل بالمعنى الضعيف الذي ذكرناه هنا في الهامش، وهو كذلك جعل المثلين لصنف واحد من المنافقين وهو غلط كذلك. (انظر مجموع الفتاوى 272/7 وابن كثير 1/17-18).

قطّ ولم يهتد قلبه بنور الوحي، بخلاف الأوّل فإنّه مثل في من عرف الحق ثمّ كفر.

وهذا الصنف فيه آيات منها:

قال تعالى:(كيف يهدي الله قوما كفروا بعد إيمانهم وشهدوا أن الرسول حق وجاءهم البينات والله لا يهدي القوم الظالمين) [آل عمران 86].

قال ابن كثير رحمه الله تعالى: أي قامت عليهم الحجج والبراهين على صدق ما جاءهم به الرسول ووضح لهم الأمر ثمّ ارتدّوا إلى ظلمة الشرك، فكيف يستحق هؤلاء الهداية بعدما تلبّسوا به من العماية (35).

وهذا الصنف يتنزل فيه كذلك قوله تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون * اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون * ذلك بأنهم آمنوا ثمّ كفروا فطبع على قلوبهم فهم لا يفقهون) [المنافقون 1-3].

فهؤلاء آمنوا ثمّ كفروا واستقر الكفر في قلوبهم.

المثل الثاني:

(أو كصيّب من السماء فيه ظلمات ورعد وبرق يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت والله محيط بالكافرين * يكاد البرق يخطف أبصارهم كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا ولو شاء الله لذهب بسمعهم وأبصارهم إنّ الله على كلّ شيء قدير) [البقرة 19-20].

وهذا المثل يدل على وجود نوع من أنواع النّفاق القلبي، وهو النّوع الذي لا

---

(35) تفسير القرآن العظيم 71/2.

يستقرّ على الهداية، بل هو حال المنافق المضطرب المتغيّر، تتبدّل حاله على وفق حصول الشّهوة أو وفق غلبة الشّبهة، وهذا النّوع يغلب على:-

1- أهل الأهواء من أهل البدع والضّلالات وعلى الخصوص أفراخ الفلاسفة من المتكلّمين والنظار وأغلب مناهج الغير من المبتدعة من قدماء ومحدثين، ومثلهم أصحاب المعاصي الذين يستكثرون منها.

2- المقلّدة والعوام من بهائم البشر الذين يقلّدون في إيمانهم الرجال.

فالصنف الأول:- لكثرة تعاطيهم الكلام الفاسد، وقيام نظرهم على الشّك، واعتمادهم قواعد العقل اليوناني أو الفلسفي أو الإشراقي، ثمّ بعدهم عن طريقة القرآن وهداية السنّة في الوصول إلى الحقائق والعلوم، فيكثر فيهم الشك والإضطراب، وتعتريهم العوارض الموهومة القادحة في صحّة التّوحيد والإيمان، فتهتزّ ثقتهم في العلوم النّبويّة، وتزداد حيرتهم حتّى يصل الأمر بهم في بعض الأحيان إلى اتّهام الشريعة والحكم عليها بالغلط والفساد..

وأمثلة هؤلاء من الشكّاك كثيرة جداً، وإليك بعضها:-

أ- العلاّمة المصنّف فارس الكلام سيف الدين علي بن أبي علي بن محمّد التّغلبي الآمدي الحنبلي ثم الشافعي(36).

فهذا رجل من كبار النظار، قرأ الفلسفة والمنطق، قال سبط بن الجوزي في «مرآة الزمان»:- لم يكن في زمانه من يجاريه في الأصلين (أصول الدين وأصول الفقه) وعلم الكلام!!، وكان يظهر منه رقة قلب وسرعة دمعة، أقام بحماة، ثمّ بدمشق، ومن عجيب ما يحكى عنه أنه ماتت له قطة بحماة، فدفنها فلما سكن

(36) هكذا ورد اسمه ولقبه في السير 364/22.

دمشق بعث من نقل عظامها في كيس ودفنها بقاسيون(37).

قال الذهبي:- وكان القاضي تقي الدين سليمان بن حمزة يحكي عن شيخه ابن أبي عمر، قال: كنا نتردد إلى السّيف (الآمدي) فشككنا هل يصلي أم لا؟ فنام، فعلّمنا على رجله بالحبر فبقيت العلامة يومين مكانها، فعلمنا أنّه ما توضأ، نسأل الله السلامة في الدين(38).

ثمّ قال الذهبي:- قال لي شيخنا ابن تيمية:- يغلب على الآمدي الحيرة والوقف(39).

ولذلك قال عنه قبل:- وتفنّن في حكمة الأوائل فرَقَّ دينه وأظلَم، وكان يتوقّد ذكاءً.

فهذا رجل أصولي بحر، له مؤلّف فيه، وفقيه (واسع) له في بابه مشاركات، ولكن كان له قلب يظلم مرة بالشبهة فيتحير، ويقف به حاله فيتعثر، فيؤدّي به أمره إلى ترك الصلوات، (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا). نعوذ بالله من الضلالة بعد الهدى.

ب- أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسين التيمي البكري الرازي الملقب فخر الدين، المعروف بابن الخطيب.

قالوا في علومه:- فاق أهل زمانه في علم الكلام والمعقولات وعلم الأوائل، له التصانيف المفيدة في فنون عديدة منها تفسير القرآن الكريم... وفي الأصول: المحصول، وله شرح الإشارات لابن سينا، وشرح عيون الحكمة، وفي الطلسمات:

---

(37) مرآة الزمان لسبط ابن الجوزي 691/8.

(38) السير 366/22.

(39) السابق.

السر المكتوم، وفي الفقه: شرح الوجيز للغزالي... وله في الوعظ اليد البيضاء، وكان يعظ باللسانين العربي والفارسي، وكان يلحقه الوجد في حال الوعظ ويكثر البكاء(40).

قال في كتابه «أقسام اللذات»(41):-

نهاية إقدام العقول عِقالُ وأكثر سعي العالمين ضلالُ

وأرواحنا في وحشة من جسومنا وغاية دنيانا أذى ووبالُ

لم نستفد من بحثناطول عمرنا سوى أن جمعنا فيه قيل وقالوا

وقوله شك وحيرة أوصلته إلى بعض الأحوال الباطلة، فألف في ما يقدح بدينه وعقيدته مثل ما تقدم من كتب الطلسمات والسحر.

قال الذهبي:- وقد بدت منه في تواليفه بلايا وعظائم وسحر وانحرافات عن السنة، والله يعفو عنه، فإنه توفي علىٰ طريقة حميدة، والله يتولى السرائر(42).

وقال في الميزان:- له تشكيكات على مسائل من دعائم الدين تورث حيرة(43).

أما قول الذهبي «فإنه توفي على طريقة حميدة» فإنه ظاهر في وصيته التي أوصى بها تلميذه إبراهيم بن أبي بكر الأصبهاني لما حضرته الوفاة وهي عند التاج السبكي (44).

---

(40) وفيات الأعيان لابن خلكان 250/4 وما بعدها.

(41) قال الدكتور محمد رشاد سالم رحمه الله تعالى في هامش «درء تعارض العقل والنقل» 160/1: وهذا الكتاب مخطوط في الهند ولم يذكره بروكلمان ضمن مؤلفات الرازي.

(42) السير 550/21.

(43) لسان الميزان 426/4.

(44) لسان الميزان 426/4.

وهذا النوع من النفاق لا يستقر على حال، تأتيه أنوار الإيمان فيرتقي بها، ويخرج من شبهته، فإذا حصلت له الظلمة وانطفأت عنه معالم الهدى وأنوار الإيمان انتكس ووقف، فحينا تخرج منه علوم الشريعة وأنوار الهدى، فيكتب ويصنِّف في الدين وعلومه، ويتكلم عن الإيمان وحقائقه وواجباته، وبينما هو كذلك إذ تراه بعد مدة يكتب في الظلمات: السحر والطلاسم ونفي الحقائق، ويعرض عن الطاعات، فهو حائر متردد، والله أعلم على أي حال يأتيه الموت. وقد تقدم لك حال الفخر الرازي عند موته..

فإن سألت عن حكم هذا الصنف، فكِلْ أمرهم إلى الله إلا أن تقوم قرينة قوية تُغلِّب لديك أحد الأمرين، ولكن الحكم على الكتب ظاهر بيِّن فمنها كتب إيمانية تقرأ ويستفاد منها، وأخرى شيطانية تردّ ويحذّر منها.

وهؤلاء وجودهم في كل زمان، إذ أن هذا النفاق (الشك والحيرة) قد يعتري قضايا العقائد والأمور الخبرية، مثل الإيمان بالجنّ أو اليوم الآخر الجامع للناس، أو أي خبر من أخبار الكتاب والسنة،أو يصيب المسائل الطلبية والتي لها تعلق بالأمر والنهي، ومثله ما ذكر عن المعري في تحريم ذبح الحيوان، أو مثل محمد بن هارون الورّاق أبي عيسى، قال ابن القيم في طريق الهجرتين:- ولما انتهى أبو عيسى الوراق إلى حيث انتهت إليه أرباب المقالات فطاش عقله ولم يتسع لحكمة إيلام الحيوان وذبحه صنّف كتابا سماه: «النوح على البهائم» فأقام عليها المأتم وناح، وباح بالزندقة الصراح، وممن كان على هذا المذهب أعمى البصر والبصيرة كلب معرة النعمان المكنى بأبي العلاء المعري، فإنه امتنع من أكل الحيوان، (زعم) لظلمه بالإيلام والذبح (45).

ومثلها الإعتراض على حكمة الله في قدره وخلقه وما يعتري النفوس عند نزول

---

(45) طريق الهجرتين لابن القيم بتحقيقي ص251.

المصيبة.

وأما أمثلة المسائل الخبرية فأكثر من أن تحصى وتعد، وفيه اصطرعت الفرق والنحل في تاريخ أهل الإسلام، والله الهادي لدينه وشريعته.

ويدخل في هذا النوع ومثله أصحاب المعاصي: قال ابن رجب في فتح الباري:-الإصرار على المعاصي وشعب النفاق من غير توبة يخشى منها أن يعاقب صاحبها بسلب الإيمان بالكلية، وبالوصول إلى النفاق الخالص وإلى سوء الخاتمة، نعوذ بالله من ذلك، كما يقال: إن المعاصي بريد الكفر(46).

ويدخل في هذا النوع أيضا المقلدة والجهال(47)، وهؤلاء تعتريهم الشهوات فتأخذهم إلى أقوال ضالة كافرة، وكذلك تشغلهم عن الذكر والطاعات فتقسو قلوبهم وتصل بهم إلى الإعراض عن دين الله تعالى، أو يمتحنوا بتعظيم متبوع فيضلهم إلى الإعتقادات الكفرية الباطلة، أو يفتنهم بأعمال هي الكفر بعينه.

فعن ابن عمر رضي الله تعالى عنهما عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «مثل المنافق كمثل الشاة العائرة بين الغنمين تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، لا تدري أيّهما تتّبع» وفي رواية: «تكر في هذه مرة وفي هذه مرة» [تفرّد به مسلم 128/17 بشرح النووي].

وروى ابن أبي حاتم في تفسيره أثرا من قول ابن مسعود رضي الله عنه سنده على شرط مسلم قال: مثل المؤمن والمنافق والكافر مثل ثلاثة نفر انتهوا إلى واد فدفع أحدهم فعبر، ثمّ وقع الآخر حتى إذا أتى على نصف الوادي ناداه الذي على شفير الوادي: ويلك أين تذهب؟ إلى الهلكة؟ ارجع عودك على بدئك، وناداه الذي عبر هلمّ إلى النجاة، فجعل ينظر إلى هذا مرة وإلى هذا مرة، قال: فجاء سيل فأغرقه،

---

(46) فتح الباري لابن رجب 197/1.

(47) انظر مدارج السالكين لابن القيم 351/1.

فالذي عبر المؤمن والذي غرق المنافق (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء)، والذي مكث الكافر(48).

وفيهم تتنزّل هذه الآية: (مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولاإلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا) [النساء143]، قال ابن كثير رحمه الله تعالى: يعني المنافقين محيَّرين بين الإيمان والكفر، فلا هم مع المؤمنين ظاهرا وباطنا ولا مع الكافرين ظاهرا وباطنا بل ظواهرهم مع المؤمنين وبواطنهم مع الكافرين، ومنهم من يعتريه الشكّ فتارة يميل إلى هؤلاء وتارة يميل إلى أولئك (كلما أضاء لهم مشوا فيه وإذا أظلم عليهم قاموا)(49).

وفيهم كذلك يتنزل قوله سبحانه وتعالى: (وليعلم الذين نافقوا وقيل لهم تعالوا قاتلوا في سبيل الله أو ادفعوا قالوا لو نعلم قتالا لاتبعناكم هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان يقولون بأفواههم ما ليس في قلوبهم والله أعلم بما يكتمون)[آل عمران 167].. قال ابن كثير رحمه الله تعالى: استدلوا به على أن الشخص قد تتقلّب به الأحوال فيكون في حال أقرب إلى الكفر، وفي حال أقرب إلى الإيمان(50).

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله: فقد كان قبل ذلك فيهم نفاق مغلوب، فلما كان يوم أحد غلب نفاقهم فصاروا إلى الكفر أقرب (51).

ومما ينبغي التنبيه عليه أن هؤلاء بنص الآية لم يكفروا لكنهم لم يبعدوا عن الكفر، فإذا فتنوا بالشبهات أو الشهوات فسقطوا، كفروا، وإلا نجوا وابتعدوا من قربهم من الكفر.. قال تعالى: (ومن الناس من يقول آمنّا بالله، فإذا أوذي في الله جعل فتنة الناس كعذاب الله، ولئن جاء نصر من ربك ليقولنّ إنّا كنّا معكم، أوليس

(48) تفسير ابن كثير 440/2.
(49) السابق 439/2.
(50) السابق 160/2.
(51) مجموع الفتاوى 304/7.

الله بأعلمَ بما في صدور العالمين * وليعلمنَّ الله الذين آمنوا وليعلمنَّ المنافقين) [العنكبوت 10-11].

إذا فهمت هذا تمام الفهم وعلمت هذا النوع من النفاق فإنه يكشف لك خطأ الإستقرار على حكم لهؤلاء المنافقين الداخلين في هذا النوع لأنهم «كالشاة العائرة بين الغنمين، تعير إلى هذه مرة وإلى هذه مرة، ولا تستقر مع إحدى الطائفتين، فهم واقفون بين الجمعين»(52).

وتذكر جيدا أننا نتحدث هنا عن حقيقة النفاق، ومعناه أنّ تقلّب هؤلاء القوم تقلب حقيقي لا مصطنع، وأن اضطرابهم وحيرتهم حقيقية لا تقية (53).

ونهاية الأمر كما قال الإمام ابن كثير رحمه الله تعالى:- المنافقون وهم قسمان: خلّص وهم المضروب لهم المثل الناري، ومنافقون يترددون، تارة يظهر لهم لَمع من الإيمان وتارة يخبو، وهم أصحاب المثل المائي، وهم أخف حالا من الذين قبلهم(54).

وقول الإمام:- وهم أخف حالا من الذين قبلهم، هذا من جهة النفاق وحقيقته، وأما من جهة ثماره على المجتمع المسلم والجماعة المسلمة فقد يكون حالهم أشد وأكثر إيذاءً لترددهم. والله أعلم.

تنبيه:

قال ابن تيمية رحمه الله تعالى:- قد يكون المنافق (..) تارة متصفا بهذا الوصف وتارة متصفا بهذا الوصف فيكون التقسيم في المثلين لتنوع الأشخاص ولتنوع أحوالهم (55).

---

(52) مدارج السالكين 351/1.
(53) انظر مجموع الفتاوى 272/7 وفيه الرد على من قال إن إيمان هؤلاء ليس حقيقيا.
(54) التفسير 192/1. وانظر بتفصيل رائع مجموع الفتاوى 274/7 وما بعدها.
(55) مجموع الفتاوى 278/7.

هل أظهر المنافقون نفاقهم؟

قال الله تعالى: (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينك بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتّلوا تقتيلا * سنّة الله في الذين خلوا من قبل ولن تجد لسنّة الله تبديلا) [الأحزاب 60-62].

في هذه الآيات تحذير من الله تعالى للمنافقين بالكفّ عن إظهار نفاقهم، وهو دليل على أنّ المنافقين قبلُ كانوا يظهرون نفاقهم، ثم بعد هذا التحذير كفّوا عن الإظهار خوفا من السيف (أخذوا وقتّلوا تقتيلا) وهذا هو الإغراء الذي قاله الله تعالى في الآية الأولى، وهو قول ابن عباس رضي الله عنهما(56).

وقد كان المنافقون يظهرون نفاقهم قبلُ لأمرين:-

الأول:- لعفو المسلمين عنهم، فإنّ المسلمين قبل فتح مكة كانوا يتألّفون الناس ويعفون عنهم طمعا في إسلامهم.

الثاني:- هو أمر الله تعالى لنبيه صلّى الله عليه وسلم بالإعراض عن المشركين والمنافقين، قال تعالى: (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم وتوكل على الله وكفى بالله وكيلا) [الأحزاب 49].

فهذا هو الأمر الأول الذي كان عليه رسول الله صلّى الله عليه وسلم وأصحابه

---

(56) التفسير 483/6.

مع المنافقين، ثم جاء التحذير المتقدم وقوله تعالى: (يا أيّها النبي جاهد الكفار والمنافقين) (57)، فمن أظهر نفاقه بعد هذه الآيات فإنّه يؤخذ به. ولا يصح -بل هو من الضلال- القول: إن المسلمين كانوا يعلمون أعيان المنافقين بالحجج التي تثبت بها البينة على أمثالهم ثمّ لا يعاقبونهم، بل قَوْلُهم هذا طعن في الصحابة رضي الله عنهم، وهو قبل ذلك طعن في رسول الله صلّى الله عليه وسلم، قال القرافي: انعقاد الإجماع اليوم على أنّ من علم نفاقه لا يقرّ، فنقول: عندنا وعندهم يستتاب، وإنّما فعله عليه السلام لئلا يتحدّث الناس أنّ محمدا (صلّى الله عليه وسلم) يقتل أصحابه، ولو ثبت ذلك لقتلهم لقيام الحجة له عليه السلام، كما كان يقتلهم في الزنا وغيره لقيام البينة، وعلمه هو وحده ويقر مع علمه، فخاص عندنا وعندكم (58).

فتأمل -بارك الله فيك- قوله:- «لو ثبت ذلك لقتلهم لقيام الحجة له عليه السلام كما كان يقتلهم في الزنا وغيره لقيام البينة» فإنه يدل على أنهم لم يكونوا يظهرون نفاقهم إظهارا تقوم به الحجة للنبي صلّى الله عليه وسلم وللصحابة رضي الله عنهم وللناس أنهم منافقون يستحقون القتل.

وقد سأل ابن تيمية هذا السؤال، وهو:- كيف يمكن مجاهدة المنافق مع إجراء أحكام الإسلام عليه في الظاهر؟. فأجاب رحمه الله:- فإذا أظهر المنافق من ترك الواجبات، وفعل المحرمات ما يستحق عليه العقوبة عوقب على الظاهر، ولا يعاقب على ما يعلم من باطنه بلا حجة ظاهرة، ولهذا كان النبي صلّى الله عليه وسلم يعلم من المنافقين من عرفه الله بهم وكانوا يحلفون له وهم كاذبون وكان يقبل منهم

---

(57) لبعض أهل العلم رحمهم الله قول في التفريق بين جهاد الكفار المحاربين وبين جهاد المنافقين، إذ يرون أن جهاد الكفار بالسيف والسنان، وجهاد المنافقين بالحجة والبيان، هكذا بإطلاق، وهو إطلاق للتفريق لا يصحّ فكلاهما يجاهد بالحجة والبيان والسيف والسنان إذا أظهر المنافق نفاقه ولم ينته عنه، ويصح هذا التفريق للمنافق (أي يقتصر على التوبيخ والتقريع والوعظ) إذا كتمه ولم يظهره وعلمه الناس منه من لحن القول.

(58) الذخيرة للقرافي 12/39.

علانيتهم ويكل سرائرهم إلى الله.(59).

فقوله: «بلا حجة ظاهرة» دليل على أنّه ما من منافق أظهر نفاقه ظهورا بيّنا بعد أن أمر الله بقتلهم وجهادهم، وقد فصّل ابن حزم رحمه الله في المحلى هذه المسألة تفصيلا جميلا جليلا فارجع إليه.

وقال ابن تيمية رحمه الله في الصارم المسلول:- فحاصله أن الحد لم يقم على واحد بعينه لعدم ظهوره بالحجة الشرعية التي يعلمه بها الخاص والعام أو لعدم إمكان إقامته(60).

وهو عين قول ابن حزم رحمه الله تعالى في المحلى:- ومن الباطل البحت أن يكون رسول الله صلّى الله عليه وسلم يعلم أن فلانا بعينه منافق متصل النفاق ثم لا يجاهده فيعصي ربه تعالى ويخالف أمره، ومن اعتقد هذا فهو كافر لأنه نسب الإستهانة بأمر الله تعالى إلى رسوله صلّى الله عليه وسلم(61).

ولكن ابن حزم (الإمام الجهبذ) فاته ألتوفيق في هذا الباب في قوله: إن رسول الله صلّى الله عليه وسلم لم يكن يعلم أعيان بعض المنافقين عن طريق الوحي، وذلك لقوله بان للإمام أن يقيم الحدود بعلمه هو إذا علمه بأي طريق حدث، وهذا خلاف الحق، فإنه صلّى الله عليه وسلم كان يقيم الحدود بالبينات التي نصبها الله تعالى للأحكام الشرعية، وهي الحجج التي علّمها الله تعالى نبيه صلّى الله عليه وسلم وعلّمها للناس، ولو تأملت كلام القرافي وكلام ابن تيمية السابق لرأيت أن الحديث يدور على الحجة الشرعية التي تقام بها الأحكام وليس على أمر آخر.

قال ابن حزم رحمه الله:- المنافقون قسمان: قسم لم يعرفهم قط عليه السلام،

---

(59) مجموع الفتاوى 620/7.
(60) الصارم المسلول 681/3.
(61) المحلى 218/11.

وقسم آخر افتضحوا فعرفهم فلاذوا بالتوبة ولم يعرفهم عليه السلام أنهم كاذبون أو صادقون في توبتهم(62).

فهذا قوله رحمه الله تعالى، وهو متلائم مع قوله المتقدم (63).

وللتوسع قليلا نأتي على هذه المسألة:-

هل كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلم أعيان المنافقين وكيف؟

مما لا شك فيه أن المنافقين في هذا الباب على أقسام:-

(62) السابق.

(63) اتفق الفقهاء على أنه لا يجوز للحاكم أن يحكم بخلاف علمه وإن شهد عنده بذلك العدول، واختلفوا في مسألة حكم الحاكم بعلمه:-

القول الأول: ليس له أن يحكم بعلمه، وهذا يروى عن شريح والشعبي وهو قول مالك وإسحق بن راهويه وأبي عبيد القاسم بن سلام ومحمد بن الحسن الشيباني وأحد قولي الشافعي وهو ظاهر المذهب وهو قول أحمد في رواية.

وقال أبو يوسف وأبو ثور وهو قول آخر للشافعي واختاره المزني من أصحابه ورواية عن أحمد أنه يجوز له ذلك.

والقول الأول هو الذي تشهد له الأدلة واستقصاء ذلك يطول على هذا المقام.

وانظر أدلة الأقوال في فتح الباري 138/13.

وقول ابن حزم في وجوب قضاء القاضي بعلمه هو في المحلى مسألة رقم 1796 ج426/9 قال: وفرض على الحاكم أن يحكم بعلمه في الدماء والقصاص والأموال والفروج والحدود، سواء علم ذلك قبل ولايته أو بعد ولايته، وأقوى ما حكم (به) بعلمه لأنه يقين الحق ثم بالإقرار ثم بالبينة.

القسم الأول من لم يكن رسول الله صلى الله عليه وسلم يعلمه:

لقوله تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم سنعذبهم مرتين ثم يردون إلى عذاب عظيم) [التوبة 101].

وقوله سبحانه: مردوا: أي مرنوا واستمروا عليه.

فهذا قسم منهم لا يعلمه رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

لكن قد يُعترض عليه بأن الله أعلمه إياهم بعد ذلك لما رواه الطبري في تفسيره أن ابن عباس رضي الله عنهما قال:- قام رسول الله صلّى الله عليه وسلم يوم الجمعة فقال: اخرج يا فلان فإنك منافق، واخرج يا فلان فإنك منافق فأخرج من المسجد ناسا منهم فضحهم، فجاء عمر وهم يخرجون من المسجد فاختبأ منهم حياء أنه لم يشهد الجمعة وظنّ أن الناس قد انصرفوا، واختبؤوا هم من عمر، ظنوا أنه قد علم بأمرهم، فجاء عمر فدخل المسجد فإذا الناس لم يصلوا، فقال له رجل من المسلمين: أبشر يا عمر قد فضح الله المنافقين اليوم.

قال ابن عباس: فهذا العذاب الأول حين أخرجهم من المسجد، والعذاب الثاني عذاب القبر.

قلت:- هذا حديث لا يصح سندا ولا متنا:

- فسنده عند الطبري: (64) قال: حدثنا الحسين بن عمرو العنقزي قال: حدثنا أبي قال: حدثنا أسباط عن السدي عن أبي مالك عن ابن عباس به (65).

---

(64) جامع البيان 10/11.

(65) ورواه الطبراني في الأوسط ح/796 من طريق الحسين عنه به. وقال السيوطي: ورواه ابن أبي حاتم وأبو الشيخ وابن مردويه.

والحسين بن عمرو بن محمد العنقزي، قال أبو زرعة: كان لا يصدّق. وقال أبو حاتم: ليّن يتكلمون فيه(66).

ثمّ إن رواية السدي الكبير (إسماعيل بن إبراهيم) في التفسير التي جمعها أسباط بن محمد لم يتفقوا عليها(67). وهي وإن كانت مقبولة في التفسير لكن لا يصح الإحتجاج بها في الأحاديث المرفوعة.

ثمّ إنّ الحديث روي من طريق الثوري عن السدي عن أبي مالك مرفوعا ولم يذكر فيه أسماء المنافقين(68).

هذا من جهة سنده..

أما متنه فمنكر جداً: إذ المعلوم أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم كان يقبل من المنافقين علانيتهم، وفي هذا الحديث أن رسول الله صلّى الله عليه وسلم طردهم من المسجد ومن صلاة الجمعة وهذا لا يعلم أبدا عنه صلّى الله عليه وسلم، فكيف يطرد صلّى الله عليه وسلم المصلين من أمر واجب (بأبي هو وأمي)، نعم ورد حديث آخر في إخبار النبي صلّى الله عليه وسلم بأسماء المنافقين في صلاة الجمعة ولكن ليس فيه إخراجهم من المسجد وهو ما رواه ابن حزم في المحلى (69): قال: حدثنا محمد بن سعيد بن نبات حدثنا أحمد بن عبد البصير حدثنا القاسم بن أصبغ حدثنا محمد بن عبد السلام الخشني حدثنا محمد بن المثنى حدثنا أبو محمد –وهو الزبيري– حدثنا سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن عياض بن عياض عن أبيع أبيه عن ابن مسعود قال:– خطبنا رسول الله صلّى الله عليه وسلم فذكر في خطبته ما شاء الله تعالى، ثم قال: إن منكم منافقين فمن سُميّت فليقم، ثم قال: قم يا فلان،

---

(66) لسان الميزان 207/2.
(67) الإرشاد للخليلي ص98.
(68) جامع البيان 10/11.
(69) المحلى 221/10.

قم يا فلان، قم يا فلان، حتى عدّ ستة وثلاثين، ثم قال: إن منكم وإن فيكم فسلوا الله العافية، فمر عمر برجل مقنّع وكان بينه وبينه معرفة، قال: ما شأنك؟ فأخبره بما قال النبي صلّى الله عليه وسلم فقال عمر: تبا لك سائر اليوم.

ولكن ابن حزم ضعفه (70) بقوله:- وأما حديث ابن مسعود فإنه لا يصح فإنا قد رويناه من طريق قاسم بن أصبغ حدثنا أحمد بن زهير بن حرب حدثنا أبو نعيم عن سفيان الثوري عن سلمة بن كهيل عن رجل عن أبيه عن ابن مسعود فذكر هذا الحديث. وقال سفيان عن هذا الرجل الذي لم يسم عن أبيه: أراه عياض بن عياض، فقد أخبر أبو نعيم عن سفيان أنه مشكوك فيه.

قلتُ:- هذا الحديث رواه الإمام أحمد رحمه الله في المسند (71) من حديث أبي مسعود عقبة بن عمرو الأنصاري (وليس ابن مسعود) (72) وهو في المسند بالجزم من طريق وكيع حدثنا سفيان عنه به.

ورواه البخاري في التاريخ الكبير (73) وهو بالجزم كذلك من طريق موسى بن مسعود وقبيصة.

قال ابن حجر: ثمّ أخرجه أحمد عن موسى بن مسعود عن سفيان ولم يشك وعن قبيصة عن سفيان (74).

قلتُ:- لم أجده في المسند إلا من رواية أبي نعيم بالشك ومن رواية وكيع بالجزم، والذي ذكره الحافظ هو في التاريخ كما تقدم.

---

(70) السابق ص 224.

(71) المسند 273/5.

(72) وكذلك وقع الخطأ في التاريخ الكبير للبخاري 22/1/4.

(73) التاريخ الكبير 22/1/4.

(74) تعجيل المنفعة ص326.

وأما عياض بن عياض فهو أبو قيلة الكوفي، وثقه ابن حبان وتوثيقه لا يرفع جهالته (75).

ثم لو صح الحديث -وأنى له ذلك- فإن الآية تبين وجود بعض المنافقين الذين لا يعلمهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم وهم في المدينة، وبعضهم حولها، وليس كل من شهد بالإسلام كان يشهد الجمعة مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم، فبقي يقينا وجود منافقين لم يعلمهم رسول الله صلّى الله عليه وسلم.

ونحن هاهنا نرد على التفسير المنسوب لابن عباس في قوله تعالى: (سنعذبهم مرتين) وأن العذاب الأول هو تعريف النبي صلّى الله عليه وسلم بهم ثم قيامه صلّى الله عليه وسلم بفضحهم.

والصحيح أن العذاب الأول (الفضح) هو غير ما ذكر وإنما هو عذاب في الدنيا وهو القتل والسباء (76) وعذاب في القبر، ثم (يردّون إلى عذاب عظيم) وهو عذاب الآخرة، هذا القسم الأول والله أعلم.

القسم الثاني منافقون علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بأعيانهم عن طريق الوحي:

وهذا القسم أنكره ابن حزم رحمه الله تعالى وأطال النفس عجيبا في رده وإنكاره بل أغلظ لمثبتيه إغلاظا شديدا لما تقدم من قوله بوجوب إقامة الحد والأحكام بمجرد علم القاضي وإن لم تكن لديه بينة الأحكام من شهود وغيرها.

وها نحن نذكر الأدلة على وجود هذا القسم والله الموفق:-

---

(75) الثقات لابن حبان 267/5، وقال الهيثمي في المجمع: لم أجد من ترجمه.

(76) انظر ابن كثير 205/4.

ما رواه الإمام مسلم في صحيحه عن إياس بن سلمة بن الأكوع عن أبيه قال: عدنا مع رسول الله صلّى الله عليه وسلم رجلا موعوكا، قال: فوضعت يدي عليه فقلت: والله ما رأيت كاليوم رجلا أشد حراً، فقال نبي الله صلّى الله عليه وسلم: ألا أخبركم بأشد حراً منه يوم القيامة هذينك الرجلين الراكبين المقفيين– لرجلين حينئذ من أصحابه (77).

وما رواه الإمام أحمد في مسنده قال: حدثنا محمد بن جعفر حدثنا شعبة عن سماك بن حرب عن سعيد بن جبير عن ابن عباس قال: قال رسول الله صلّى الله عليه وسلم: يدخل عليكم رجل ينظر بعين شيطان أو بعيني شيطان، قال: فدخل رجل أزرق، فقال: يا محمد علام سببتني أو شتمتني أو نحو هذا، قال: وجعل يحلف قال فنزلت هذه الآية في المجادلة: (ويحلفون على الكذب وهم يعلمون) والآية الأخرى(78).

وسنده صحيح.

ورواه ابن جرير(79) في تفسير سورة المجادلة من طريق شعبة عنه به، ولكن فيه خلاف إذ ورد فيه أن القائل:– علام تشتمني أو تسبني هو رسول الله صلّى الله عليه وسلم وليس الرجل.

قال المحدث أحمد شاكر رحمه الله، في تعليقه على المسند(80) فالظاهر أن الخطأ بهذه الزيادة (أي الواقعة في المسند) من بعض رواة المسند أو ناسخيه لأنّها ثابتة أيضا في مجمع الزوائد(81).

---

(77) النووي على مسلم 17/127–128.

(78) المسند 1/240.

(79) جامع البيان 28/23.

(80) المسند ح/2147.

(81) مجمع الزوائد 7/122، وقال الهيثمي فيه: رجاله رجال الصحيح.

قال ابن كثير: ورواه ابن أبي حاتم من طريق زهير عن سماك بن حرب بأطول من هذا وفيه:- فدعاه رسول الله فكلمه فقال: علام تشتمني أنت وفلان وفلان؟ نفر دعاهم بأسمائهم..

قال ابن كثير- إسناده جيد (82).

ورواه الحاكم في مستدركه (83).

ومن الأدلة كذلك ما رواه الإمام البخاري في صحيحه في كتاب فضائل الصحابة (84) من حديث أبي الدرداء قوله عن حذيفة رضي الله عنهما: أوليس فيكم صاحب سر النبي صلّى الله عليه وسلم الذي لا يعلم أحد غيره؟

وهذا السر هو ما جاء مفسّرا في حديث آخر رواه الإمام مسلم في صحيحه من حديث عمّار قال:- ولكن حذيفة أخبرني عن النبي صلّى الله عليه وسلم أنه قال: في أصحابي اثنا عشر منافقا، منهم ثمانية لا يدخلون الجنة حتى يلج الجمل في سمّ الخياط.

ورواه بأطول منه من حديث عمار أيضا قال: حدثني حذيفة أنه قال: إن في أمتي اثنا عشر منافقا لا يدخلون الجنة ولا يجدون ريحها حتى يلج الجمل في سمّ الخياط، ثمانية منهم تكفيهم الدّبيلة، شراج من النار تظهر بين أكتافهم حتى تنجم من صدورهم. (85).

ومما يشهد كذلك أن حذيفة رضي الله عنه كان يعلم أسماء المنافقين بإخبار

---

(82) التفسير 8/271-272 طبعة دار الشعب.

(83) المستدرك 2/482 .

(84) فتح الباري 7/90.

(85) ح/ 9 و 10 من كتاب صفات المنافقين وأحكامهم.

رسول الله صلّى الله عليه وسلم له ما ورد في الحديث الصحيح من سؤال عمر رضي الله عنه لحذيفة عن نفسه:-

فقد قال وكيع بن الجراح في كتاب الزهد (86) حدثنا ابن أبي خالد قال سمعت زيد بن وهب الجهني عن حذيفة قال: مرّ بي عمر بن الخطاب وأنا جالس في المسجد، فقال لي: يا حذيفة، إن فلانا قد مات، فاشهد. قال: ثم مضى حتى إذا كاد يخرج من المسجد، التفت إليّ، فرآني وأنا جالس فعرف، فرجع إليّ، فقال: يا حذيفة أنشدك بالله: أمن القوم أنا؟ قال: قلت اللهم لا، ولن أبرئ أحدا بعدك، قال فرأيت عيني عمر جادتا(87).

قال محقق الكتاب عبد الرحمن عبد الجبار الفريوائي: رجاله ثقات وإسناده صحيح.

قلت: وهو كما قال، بل وعلى شرط الصحيح، وابن أبي خالد هو إسماعيل، وقد رواه الفسوي في ‹المعرفة والتاريخ› من طريق الأعمش عن زيد بن وهب عنه به بمعناه، ثمّ قال الفسوي: وهذا المُحال وأخاف أن يكون كذبا... ولكن حديث زيد به خلل كبير(88).

قال الذهبي: زيد بن وهب متفق على الإحتجاج به... فهذا الذي استنكره الفسوي من حديثه ما سُبق إليه، ولو فتحنا هذه الوساوس علينا لرددنا كثيرا من السنن الثابتة بالوهم الفاسد (89).

---

(86) ح/477.

(87) في تخريجي لهذا الحديث في طريق الهجرتين لابن القيم بيّنت عدم عثوري على هذا الحديث مسندا مع تنقيبي الشديد عنه (ص433)، فها هو الآن مخرج والحمد لله رب العالمين، وقد ضعفه ابن حزم في المحلى بغير حجة (225/11)، وقال:- هذا باطل ومن الكذب المحض.. وقال (221-222) أنه غير مسند، والجواب عليه كما ترى.

(88) المعرفة والتاريخ 769/2.

(89) ميزان الإعتدال 107/2.

قلت:- تابع زيد بن وهب أبو وائل عند البزار في مسنده قال: حدثنا عبد الواحد بن غياث قال: أخبرنا عبد العزيز بن مسلم قال: أخبرنا الأعمش عن أبي وائل عن حذيفة رضي الله عنه قال: دعي عمر لجنازة فخرج فيها، أو يريدها، فتعلّقت به، فقلت: اجلس يا أمير المؤمنين فإنه من أولئك، فقال: نشدتك الله أنا منهم؟ قلت: لا، ولا أبرّئ أحدا بعدك (90).

قال الهيثمي في المجمع (91): رجاله ثقات.

وقال ابن حجر في مختصر زوائد البزار: إسناده صحيح (92).

ومثله ما رواه الإمام البخاري (93) بنفس السند المتقدم قال زيد بن وهب: كنا عند حذيفة فقال: ما بقي من أصحاب هذه الآية إلا ثلاثة ولا المنافقين إلا أربعة.

والآية هي: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر).

فهذا الحديث يدل على علم حذيفة بأعيان المنافقين في المدينة.

وفيه الدليل على حكم الله تعالى في المنافقين وهو القتل.

فإن سئل سائل فلماذا لم يقاتلوهم؟.

فالجواب ما رواه الطبري من طريق حبيب بن حسان عن زيد بن وهب قال: كنا عند حذيفة فقرأ هذه الآية (فقاتلوا أئمة الكفر) قال: ما قوتل أهل هذه الآية بعد.

---

(90) البحر الزخار 7/292-293 ح رقم 2885.
(91) مجمع الزوائد 3/42.
(92) ح/590.
(93) الفتح 8/322.

وقد تابع الأعمش حبيب بن حسان في رواية هذا الحديث(94).

قال الحافظ بن حجر:- والمراد بكونهم لم يقاتلوا أن قتالهم لم يقع لعدم وقوع الشرط لأن لفظ الآية (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا) فلما لم يقع نكث ولا طعن لم يقاتلوا(95).

فتبين أن هذه الآيات تشبه قوله سبحانه وتعالى: (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينكم بهم ثم لا يجاورونك فيها إلا قليلا * ملعونين أينما ثقفوا أخذوا وقتلوا تقتيلا).

ويشهد لهذا، وهو أن المنافقين كانوا يسرون نفاقهم زمن النبي صلى الله عليه وسلم، حديث حذيفة رضي الله عنه:- المنافقون الذين فيكم اليوم شر من المنافقين الذين كانوا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم. قال أبو وائل: قلنا: لم ذاك يا أبا عبد الله؟ قال:- لأن أولئك كانوا يسرون نفاقهم، وإن هؤلاء أعلنوه. (96).

وفي هذا كفاية في الإستدلال لهذا الباب ولم نرد الإستقصاء.

ثم إن الكثير من الآيات والأحاديث التي فيها أحكام المنافقين لا يمكن فهمها إلا بهذا الوجه، وهو أن رسول الله صلى الله عليه وسلم علم أعيانهم عن طريق الوحي أو عن طريق المخايلة التي لا تصل إلى القطع بقيام الحجة مثل ترك الإستغفار لهم والصلاة عليهم وعدم اتخاذهم بطانة، وغير ذلك من الأحكام، وهذه الأحكام مازالت قائمة في حق المنافقين الذين يعرفون عن طريق اللحن الذي لا يصل إلى الحجة التي تقام بها الحدود والأحكام كما سيأتي، ثم إن أمر الوحي قد انقطع وحسبنا

---

(94) جامع البيان 88/10.

(95) الفتح 323/8.

(96) رواه البخاري (69/13 فتح الباري).

الله ونعم الوكيل.

و ابن حزم رحمه الله تعالى يوجب علينا بنص كلامه أن نعتقد أن عبد الله بن أبي بن سلول هو من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم وعلينا أن نستغفر له ونعتقد صحة إيمانه!!

يقول ابن حزم رحمه الله في هذا: إنّ عبد الله بن أبي من جملة أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهر إسلامه وأنه من جملة الصحابة المسلمين الذين لهم حكم الإسلام والذين حرّم الله تعالى دماهم إلا بحقّها(97).

وهذا من أبطل الباطل وأشد الغلط، وهو مما يعرفه الناس والعامة وتكلف الرد عليه نطاح من غير فائدة..

القسم الثالث - معرفة المنافقين عن طريق لحن القول:

قال تعالى: (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم * ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول والله يعلم أعمالكم * ولنبلونكم حتى نعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبلوَ أخباركم) [محمد29-31].

قال ابن كثير رحمه الله:- ولو نشاء يا محمد لأريناك أشخاصهم فعرفتهم عيانا، ولكن لم يفعل تعالى ذلك في جميع المنافقين سترا منه على خلقه وحملا للأمور على ظاهر السلامة ورد السرائر إلى عالمها، (ولتعرفنهم في لحن القول) أي فيما يبدو من كلامهم الدال على مقاصدهم، يفهم المتكلم من أي الحزبين هو بمعاني كلامه وفحواه، وهو المراد من لحن القول(98).

---

(97) المحلى 217/11.

(68) التفسير 321/7.

وأما صفاتهم وأخلاقهم فقد تكفلت سورة براءة بفضحها حتى سميت بالفاضحة والمنقرة والمشقشقة، لتنقيرها على قلوب المنافقين والشقشقة عنها.

وهذا القسم يدخل فيه ما ورد من أحداث بعدم إقامة رسول الله صلى الله عليه وسلم حد الردة على المنافقين، وبشيء من التفصيل الممكن نأتي في هذه الورقات على كبار الأحداث التي ظهر من المنافقين بعض أقوالهم وأعمالهم ولم تصل إلى درجة البينات التي تقام بها الأحكام ومنها حد الردة:-

تحقيق قوله صلى الله عليه وسلم:
"معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي".

بعض من يحتج بعدم إقامة الحدود على المنافقين دون أن ينظر إلى التفريق المتقدم في أحوال المنافقين كما تبين من وجود منافقين لا يثبتون على نفاقهم وهم الذين وصفهم رسول الله صلى الله عليه وسلم بالشاة العائرة بين الغنمين، ومن وجود أعمال وأقوال لا تصل إلى درجة إقامة الحدود، أو معرفة رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق الوحي، وهو طريق لا تقام به الحدود كما هو الصحيح من أقوال العلماء.

قلتُ:- إن بعضهم يحتج بهذا اللفظ، وهو قوله صلى الله عليه وسلم: "معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي" وهو يرتب قوله بالطريقة التالية: إن هؤلاء المنافقين ثبت في حقهم حد الردة وانكشف نفاقهم ثم لم يقمه عليهم حتى لا يتحدث الناس أن محمدا صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه.

وحتى نفهم هذا القول فسنحققه حتى تتبيَّن حقيقته.

وَرَدَ هذا القول في موطنين:

الأول:– في منصرفه صلى الله عليه وسلم من حنين.

الثاني:– في منقلبه صلى الله عليه وسلم من غزوة بني المصطلق.

شرح ذلك:–

الأول:–

روى مسلم في صحيحه (99) عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال: أتى رجل رسول الله صلى الله عليه وسلم بالجعرانة، منصرفه من حنين، وفي ثوب بلال فضة، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقبض فيها، يعطي الناس، فقال: يا محمد! اعدل. قال: ويلك! ومن يعدل إذا لم أكن أعدل؟ لقد خبت وخسرت إن لم أكن أعدل، فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: دعني يا رسول الله فأقتل هذا المنافق. فقال: معاذ الله أن يتحدث الناس أني أقتل أصحابي. إنّ هذا وأصحابه يقرأون القرآن لا يجاوز حناجرهم، يمرقون منه كما يمرق السهم من الرمية.

قوله صلى الله عليه وسلم: «لقد خبت وخسرت» جزم ابن تيمية في الصارم المسلول أنّهما بالفتح (100) وجوّز القاضي عياض الوجهين: الفتح والرّفع.

فهذا الحديث في صفات الخوارج، وسمى عمر بن الخطاب رضي الله عنه القائل منافقا، وأقرّه النبي صلى الله عليه وسلم على تسميته ونهاه عن قتله لا لعصمة نفسه بل لئلا يتحدث الناس أنّ محمدا صلى الله عليه وسلم يقتل أصحابه. وهو رجل قال قولته العظيمة في سبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولا شكّ في أنه قوله هذا ردّة وكفر(101)، أمّا لماذا لم يقم رسول الله صلى الله عليه وسلم الحدّ عليه

---

(99) ح/1063.

(100) الصارم المسلول 351/2.

(101) انظر الصارم المسلول 984/3-986. قال القرطبي فكل من اتهم رسول الله صلى الله عليه وسلم في الحكم فهو كافر (الجامع 267/5).

فهذا قد كفانا إياه شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله في الصارم المسلول فليراجع(102)..

ولكن مما لا يختلف فيه أحد أن الحد على أمثال هذا الرجل لو وقع من أحد بعد وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يكن للأمة أن تعفو عنه، بل يجب قتله. قال القرطبي: فلو صدر مثل هذا من أحد في حق النبي صلى الله عليه وسلم أو في حق شريعته لقتل قتلة زنديق(103).

وقال:- وليست لأحد (أي العفو على من يسبّه) بعد النبي صلى الله عليه وسلّم(104).

قال ابن حجر:- ونقل النووي نحوه عن العلماء(105).

وقال ابن تيمية:- بعد موت النبي صلى الله عليه وسلم يتعين القتل لأن المستحق لا يمكن من المطالبة والعفو(106).

وأمّا ابن حزم فقد جعل الحديث منسوخا بقوله:- الجواب في هذا أن الله تعالى

---

(102) واختصاراً لما قاله الشيخ فإنه يرى أنه كان لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يعفو عمن آذاه فإن قيل هذه ردة فخرجت من كونها حقا لرسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أن صارت حداً لا يسقطه صاحبه، ويرد ابن تيمية على هذا بتفصيل للمحقق انظره في ج537/2 فإنه مهم جداً وفي نفس الجزء ص534. وقال كذلك: وإنما عفا عن ذلك الأمر في حياته عمن يؤذيه من المنافقين لما علم أنهم خارجون في الأمة لا محالة، وأن ليس في قتل ذلك الرجل كثير فائدة، بل فيه من المفسدة ما في قتل سائر المنافقين وأشد (355/2 الصارم المسلول). وهذا كله يتفق مع القول أن العفو عنه خاص لرسول الله صلى الله عليه وسلم وليست لأحد من بعده.

(103) فتح الباري 40/5 .

(104) الجامع لأحكام القرآن 267/5.

(105) الفتح 40/5 .

(106) الصارم المسلول 537/2.

لم يكن أمر بعد بقتل من ارتدّ فلذلك لم يقتله رسول الله صلى الله عليه وسلم ولذلك نهى عن قتله ثم أمره الله تعالى بعد ذلك بقتل من ارتدّ عن دينه فنسخ تحريم قتلهم(107).

الثاني:-

روى الإمام البخاري (108) ومسلم (109) في صحيحيهما عن جابر بن عبد الله رضي الله عنه قال:- كنّا في غزاة فكسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار، فقال الأنصاري: ياللأنصار، وقال المهاجري: ياللمهاجرين، فسمّعها رسول الله صلى الله عليه وسلم (لفظ البخاري) فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم:- ما بال دعوى الجاهلية (لفظ مسلم). قالوا: يا رسول الله: كسع رجل من المهاجرين رجلا من الأنصار. فقال:- دعوها فإنّها منتنة، فسمعها عبد الله بن أبي (ابن سلول)، فقال: قد فعلوها، والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل.. قال عمر:- دعني أضرب عنق هذا المنافق. فقال: دعه، لا يتحدث الناس أن محمدا يقتل أصحابه.

والكسع هو أن تضرب بيدك على دبر شيء أو برجلك.

وسمّى ابن اسحق هذه الغزوة غزوة بني المصطلق وكذا وقع عند الإسماعيلي(110).

وقد وهم البعض حين قال: إن هذه القصة كانت بتبوك.

قال ابن كثير رحمه الله تعالى:- فيه نظر، بل ليس بحق، فإن عبد الله بن أبي

(107) المحلى 226/11.
(108) الفتح 652/8.
(109) النووي على مسلم 120/17.
(110) فتح الباري 649/8.

بن سلول لم يكن ممن خرج في غزوة تبوك، بل رجع بطائفة من الجيش، وإنما المشهور عند أصحاب المغازي والسير أن ذلك كان في غزوة المريسيع، وهي غزوة بني المصطلق(111).

ولتكتمل الصورة فإننا سنذكر كيف سمّعها الله رسوله صلى الله عليه وسلم، أي كلمة (ابن أبي سلول) إذ بها تتم الحجة:-

فقد روى البخاري ومسلم من حديث زيد بن أرقم قال: كنت مع عمي فسمعت عبد الله بن أبي بن سلول يقول:- لا تنفقوا على من عند رسول الله حتى ينفضوا، ولئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل، فذكرت ذلك لعمي فذكره عمي للنبي صلى الله عليه وسلم، فدعاني، فحدثته، فأرسل إلى عبد الله بن أبي وأصحابه فحلفوا ما قالوا، فصدقهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وكذبني، فأصابني غم لم يصبني مثله قط، فجلست في بيتي، وقال عمي: ما أردت إلا أن كذبك النبي صلى الله عليه وسلم؟! فأنزل الله تعالى: (إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله) وأرسل إلي النبي صلى الله عليه وسلم فقرأها وقال: إن الله قد صدقك ا.هـ.

فقد ثبت قوله المنكر بشهادة رجل واحد وهو زيد بن أرقم رضي الله عنه، وبالوحي، وشهادة الواحد لا تقام بها الحدود، وقد تقدم القول بالوحي.

قال ابن تيمية:- لم يقم النبي صلى الله عليه وسلم الحدّ على ابن سلول في هذه القصة حتى لا يقال: إن محمدا يقتل أصحابه، لأن النفاق لم يثبت بالبينة، وقد حلف أنه ما قال، وإنما علم بالوحي وخبر زيد بن أرقم. وهذا يوجب فتنة بقتله وغضب أقوام يخاف افتتانهم بقتله(112).

---

(111) التفسير 127/8، وانظر فتح الباري 650/8.
(112) الصارم المسلول 671/3.

يقول الشاطبي رحمه الله في الموافقات:- فإن سيد البشر صلى الله عليه وسلم مع إعلامه بالوحي، يجري الأمور على ظواهرها في المنافقين وغيرهم، وإن علم بواطن أحوالهم، ولم يكن ذلك بمخرجه عن جريان الظواهر على ما جرت عليه (112).

ثم هناك وجه آخر غير ما قاله الإمام وهو أن لفظ عدوُّ الله ابن سلول يستطيع أن يماري فيه ويُحَمِّلَهُ الكثير من المعاني التي يبعد بها الشبهة عن نفسه. هذا والله أعلم.

وقد ورد هذا اللفظ في موطن ثالث، لكن لا يصح،.

ففي الدلائل للبيهقي قال:- أخبرنا أبو الحسن علي بن أحمد بن عبدان أخبرنا أحمد بن عبيد الصفار حدثنا أبو عمرو الحراني حدثنا أبو الأصبغ عبد العزيز بن يحيى الحراني حدثنا محمد بن مسلمة عن محمد بن اسحق عن الأعمش عن عمرو بن مرة عن أبي البختري عن حذيفة بن اليمان قال: كنت آخذا بخطام ناقة رسول الله صلى الله عليه وسلم أقود به، وعمار يسوقه، أو أنا أسوقه وعمار يقوده حتى إذا كنا بالعقبة فإذا أنا باثني عشر راكبا قد اعترضوه فيها، قال: فأنبهت رسول الله صلى الله عليه وسلم بهم، فصرخ بهم فولوا مدبرين، فقال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم: هل عرفتم القوم؟ قلنا: لا يا رسول الله، كانوا متلثمين، ولكن قد عرفنا الركاب، قال: هؤلاء المنافقون إلى يوم القيامة، وهل تدرون ما أرادوا؟ قلنا: لا، قال: أرادوا أن يزحموا رسول الله صلى الله عليه وسلم في العقبة فيلقوه منها، قلنا: يا رسول الله أوَ لا تبعث إلى عشائرهم حتى يبعث إليك كل قوم برأس صاحبهم؟ قال: لا، أكره أن تحدث العرب بينها أن محمدا قاتل بقوم، حتى إذا أظهره الله بهم أقبل عليهم يقتلهم. ثم قال: اللهم ارمهم بالدُّبَيْلَةِ. قلنا: يا رسول الله

---

(112) الموافقات 271/2.

وما الدّبيلة؟ قال: شهاب من نار يقع على نياط قلب أحدهم فيهلك (114).

وهذه القصة وردت في تبوك رواها البيهقي في الدلائل من حديث عروة مرسلا (115).

ورواها في الدلائل أيضا (116) من حديث ابن اسحق (صاحب المغازي) وفي السنن الكبرى معضلا (117).

والسند الأول ضعيف لعلتين:-

فهو من رواية ابن اسحق ولم يصرح بالتحديث وهو مدلّس، وعبد العزيز بن يحيى الحراني ذكره البخاري في الضعفاء.. وتحسين محقق الصارم له ليس بحسن. والله أعلم.

لكن قصة محاولة المنافقين قتل رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك وردت بأسانيد أخرى بعضها حسن دون هذا اللفظ، منها ما أخرجه أحمد رحمه الله في المسند (118) قال حدثنا يزيد (أي ابن زريع) قال أخبرنا الوليد (يعني ابن عبد الله بن جميع) عن أبي الطفيل، قال: لما أقبل رسول الله صلى الله عليه وسلم من غزوة تبوك، أمر مناديا، فنادى: إن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد أخذ بالعقبة، فلا يأخذها أحد، فبينما رسول الله صلى الله عليه وسلم يقوده حذيفة ويسوقه عمار، إذ أقبل رهط متلثمون على الرواحل فغشوا عماراً وهو يسوق برسول الله صلى الله عليه وسلم وأقبل عمار يضرب وجوه الرواحل فقال رسول الله صلى

---

(114) دلائل النبوة 5/260.
(115) السابق 5/256.
(116) السابق 5/257.
(117) السنن الكبرى 9/32-33.
(118) المسند 5/390-391.

الله عليه وسلم لحذيفة: (قد، قد)، حتى هبط رسول الله صلى الله عليه وسلم من الوادي، فلما هبط ورجع عمار، قال: يا عمار هل عرفت القوم، قال: قد عرفت عامة الرواحل والقوم متلثمون، قال: هل تدري ما أرادوا؟ قال: الله ورسوله أعلم، قال: أرادوا أن ينفروا برسول الله صلى الله عليه وسلم فيطرحوه، قال: فسارّ عمار رجلا من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم، فقال: نشدتك بالله كم تعلم كان أصحاب العقبة؟ قال: أربعة عشر رجلا، فقال: إن كنت فيهم فقد كانوا خمسة عشر، قال: فعذر رسول الله صلى الله عليه وسلم منهم ثلاثة، قالوا: ما سمعنا منادي رسول الله صلى الله عليه وسلم، وما علمنا ما أراد القوم، فقال عمار: أشهد أن الاثني عشر الباقين حرب لله ولرسوله في الحياة الدنيا ويوم يقوم الأشهاد.

ورواه أحمد بسند آخرقال: حدثنا محمد بن عبد الله بن الزبير وأبو نعيم قالا: حدثنا الوليد [يعني ابن جميع] قال أبو نعيم عن أبي الطفيل، مثل جميع حدثنا أبو الطفيل قريبا منه.. وهو سند حسن(119).

فهؤلاء المنافقون لم يعلم رسول الله صلى الله عليه وسلم أعيانهم ولا ما أرادوا إلا عن طريق الوحي، ولذلك لم يعلم عمار رضي الله عنه ما أرادوا، أما أعيانهم فلم يعرفها من ضرب رواحلهم وإنما علمهم رسول الله صلى الله عليه وسلم عن طريق

---

(119) وأصل القصة عند مسلم في صحيحه 2143/4 ح/9 و 10.
وقد ضعف ابن حزم هذا الحديث بقوله:- حديث (..) ساقط لأنه من طريق الوليد بن جميع وهو هالك، قلت:- كذا قال، والوليد من رجال مسلم. قال أحمد وأبو داود: ليس به بأس، وقال ابن معين: ثقة مأمون مرضي، وقال أبو زرعة: لا بأس به، وقال أبو حاتم: صالح الحديث. وقال ابن سعد: كان ثقة له أحاديث، وذكره ابن حبان في الثقات (492/5) ثم ذكره في الضعفاء (78/3-79). قال البزار: احتملوا حديثه وكان فيه تشيع، وذكره الذهبي في الرواة المتكلم فيهم بما لا يوجب الرد (ت/357).
فهل هذا يقال فيه ما قاله ابن حزم رحمه الله، لكن ابن حزم معروف بطرحه للرجل بأقل الكلام فيه، وللتوسّع يراجع مقدمة كتابي «تجريد أسماء الرواة الذين تكلم فيهم ابن حزم جرحا وتعديلا» بالمشاركة.
ثم إن ابن حزم قد ردّ حديثه الذي رواه مسلم في صحيحه في قصة هجرة حذيفة وأبيه لينتصر لرأيه بأن الأصل في الشروط والعقود الحرمة كما في الإحكام (10/5) وهوخلاف الصواب كما شرحه ابن القيم رحمه الله في إعلام الموقعين.

الوحي.

وفي الحديث دليل على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يعلم أعيان المنافقين وأخبر حذيفة بهم.

وفي دلائل النبوة للبيهقي ذكر لأسمائهم من طريق لا تصح نترك ذكرها مخافة الإطالة.

قال ابن تيمية في الصارم: فإن قيل فَلِمَ لم يقتلهم النبي صلى الله عليه وسلم مع علمه بنفاق بعضهم، وقبل علانيتهم؟

قلنا: إنما ذاك لوجهين:

أحدهما: أن عامتهم لم يكن ما يتكلمون به من الكفر مما يثبت عليهم بالبينة، بل كانوا يظهرون الإسلام، ونفاقهم يعرف تارة بالكلمة يسمعها منهم الرجل المؤمن فينقلها إلى النبي صلى الله عليه وسلم فيحلفون بالله أنهم ما قالوها أو لا يحلفون، وتارة بما يظهر من تأخرهم عن الصلاة والجهاد واستثقالهم للزكاة وظهور الكراهية منهم لكثير من أحكام الله وعامتهم يعرفون في لحن القول، كما قال تعالى: (أم حسب الذين في قلوبهم مرض أن لن يخرج الله أضغانهم ولو نشاء لأريناكهم فلعرفتهم بسيماهم ولتعرفنّهم في لحن القول) [محمد 29-30]. فأخبر سبحانه أنه لو شاء لعرّفهم رسوله بالسيماء في وجوههم، ثمّ قال: (ولتعرفنّهم في لحن القول) فأقسم على أنه لابد أن يعرفهم في لحن القول، ومنهم من كان يقول القول أو يعمل العمل فينزل القرآن يخبر أن صاحب ذلك القول والعمل منهم، كما في سورة براءة (ومنهم...)، (ومنهم...) وكان المسلمون أيضا يعلمون كثيرا منهم بالشواهد والدلالات والقرائن والأمارات، ومنهم من لم يكن يعرف كما قال تعالى: (وممن حولكم من الأعراب منافقون ومن أهل المدينة مردوا على النفاق لا تعلمهم نحن نعلمهم) [التوبة 101] ثم جميع هؤلاء المنافقين يظهرون الإسلام، ويحلفون أنهم

مسلمون.

وقد اتخذوا أيمانهم جُنَّة وإذا كانت هذه حالهم فالنبي صلى الله عليه وسلم لم يكن يقيم الحدود بعلمه ولا بخبر الواحد ولا بمجرد الوحي، ولا بالدلائل والشواهد حتى يثبت الموجب للحد ببينة أو إقرار، ألا ترى كيف أخبر عن المرأة الملاعنة أنها إن جاءت بالولد على نعت كذا وكذا فهو للذي رُمِيت به، وجاءت على النعت المكروه، فقال: «لولا الأيمان لكان لي ولها شأن» ([رواه البخاري])(*).

وكان بالمدينة امرأة تعلن الشر، فقال: «لو كنت راجما أحدا من غير بينة لرجمتها» ([متفق عليه]).

وقال للذين اختصموا إليه: «إنكم تختصمون إليَّ، ولعل بعضكم أن يكون ألحَنَ بحجَّته من بعض فأقضي بنحو مما أسمع، فمن قضيت له من حق أخيه شيئا فلا يأخذه، فإنما أقطع له قطعة من النَّار» ([رواه الستة ومالك وأحمد]). فكان ترك قتلهم مع كونهم كفَّاراً لعدم ظهور الكفر منهم بحجة شرعية.

ويدل على هذا أنه لم يستتبهم على التعيين، ومن المعلوم أن أحسن حال من ثبت نفاقه وزندقته أن يستتاب كالمرتد، فإن تاب وإلا قتل، ولم يبلغنا أنه استتاب واحدا بعينه منهم، فعُلم أن الكفر والردة لم تثبت على واحد بعينه ثبوتا يوجب أن يقتل كالمرتد، ولهذا كان يقبل علانيتهم، ويكل سرائرهم إلى الله، فإذا كانت هذه حالُ من ظهر نفاقه بغير البينة الشرعيَّة فكيف حال من لم يظهر نفاقه؟ ولهذا قال صلى الله عليه وسلم: «إني لم أُومَر أن أنقب عن قلوب الناس ولا أشق بطونهم» ([متفق عليه])

(*) انظر قول الشاطبي رحمه الله في الموافقات (2/271 وما بعدها) وتأمَّل بتعجب مطرب كيف تتوافق أقوال الأئمة بمعانيها لتفهم كيف تكون هداية الكتاب والسنة لمن صدر عنهما، وابن تيمية رحمه الله مشرقي شامي، والشاطبي رحمه الله مغربي أندلسي، وابن تيمية توفي سنة 728هـ والشاطبي سنة 790هـ، فلم يأخذ أحدهما من الآخر ولكنها الهداية واتفاق المصدر، رحم الله أئمتنا وألحقنا بهم على خير وهداية.

لما استؤذن في قتل ذي الخويصرة، ولما استؤذن في قتل رجل من المنافقين قال: «أليس يشهد أن لا إله إلا الله؟» قيل: بلى، قال: «أليس يصلّي؟» قيل: بلى، قال: «أولئك الذين نهاني الله عن قتلهم» ([رواه الإمام مالك وأحمد])، فأخبر صلى الله عليه وسلم أنه نهي عن قتل من أظهر الإسلام من الشهادتين والصلاة وإن زُنَّ (أي اتُّهم) بالنفاق ورُمي به وظهرت عليه دلالته - إذا لم يثبت بحجة شرعية أنه أظهر الكفر، وكذلك قوله في الحديث الآخر: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، فإذا قالوها عصموا منّي دماءهم وأموالهم إلا بحقّها وحسابهم على الله» ([رواه الستة ورواه الإمام أحمد])، معناه أني أمرت أن أقبل منهم ظاهر الإسلام، وأكل بواطنهم إلى الله، والزنديق والمنافق إنّما يقتل إذا تكلّم بكلمة الكفر وقامت عليه بذلك البينة، وهذا حكم بالظاهر، لا بالباطن، وبهذا الجواب يظهر فقه المسألة.

الوجه الثاني: أنه صلى الله عليه وسلم كان يخاف أن يتولد من قتلهم من الفساد أكثر مما في استبقائهم، وقد بين ذلك حيث قال: «لا يتحدّث الناس أن محمدا يقتل أصحابه» وقال: «إذاً تُرعد له أُنُفٌ كثيرة بيثرب»، فإنه لو قتلهم بما يعلمه من كفر لأوشك أن يظن الظان أنه إنما قتلهم لأغراض وأحقاد وإنما قصده الإستعانة بهم على الملك، كما قال: «أكره أن تقول العرب لمّا ظَفِرَ بأصحابه أقبل يقتلهم»، وأن يخاف من يريد الدخول في الإسلام أن يقتل مع إظهاره الإسلام كما قُتل غيره.

وقد كان أيضا يغضب لقتل بعضهم قبيلته وناس آخرون ويكون ذلك سببا في الفتنة، واعتبر ذلك بما جرى في قصة عبد الله بن أبيّ لما عرّض سعد بن معاذ بقتله خاصم له أناسٌ صالحون وأخذتهم الحمية حتى سكّنهم رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد بيّن ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم لمّا استأذنه عمر في قتل ابن أبيّ، قال أصحابنا: ونحن الآن إذا خفنا مثل ذلك كففنا عن القتل.

فحاصله أن الحدّ لم يقم على واحد بعينه، لعدم ظهوره بالحجة الشرعية التي

يعلمه بها الخاص والعام، أو لعدم إمكان إقامته، إلا مع تنفير أقوام عن الدخول في الإسلام، وارتداد آخرين عنه، وإظهار قوم من الحرب والفتنة ما يربي فساده على فساد ترك قتل منافق، وهذان المعنيان حكمهما باق إلى يومنا هذا، إلا في شيء واحد وهو أنه صلى الله عليه وسلم ربما خاف أن يظن الظان أنه يقتل أصحابه لغرض آخر مثل أغراض الملوك، فهذ منتف اليوم.

والذي يبيّن حقيقة الجواب الثاني أن النبي صلى الله عليه وسلم لما كان بمكة مستضعفا هو وأصحابه عاجزين عن الجهاد أمرهم الله بكفّ أيديهم والصبر على أذى المشركين، فلما هاجروا إلى المدينة وصار له دارُ عزٍّ ومنعة أمرهم بالجهاد وبالكفّ عمّن سالمهم وكفّ يده عنهم، لأنه لو أمرهم إذ ذاك بإقامة الحدود على كلّ كافر ومنافق لنَفَر عن الإسلام أكثر العرب إذ رأو أن بعض من دخل فيه يقتل، وفي مثل هذه الحال نزل قوله تعالى: (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودَعْ أذاهم وتوكّل على الله وكفى بالله وكيلا) [الأحزاب 48]. وهذه السورة نزلت بعد الخندق، فأمره الله في تلك الحال أن يترك أذى الكافرين والمنافقين له، فلا يكافئهم عليه لما يتولّد في مكافأتهم من الفتنة، ولم يزل الأمر كذلك حتى فتحت مكّة، ودخلت العرب في دين الله قاطبة، ثمّ أخذ النبي صلى الله عليه وسلم في غزو الروم، وأنزل الله سورة براءة، وكمّل شرائع الدين من الجهاد والحج والأمر بالمعروف، فكان كمالُ الدين حين نزل قوله تعالى: (اليوم أكملت لكم دينكم) [المائدة 3] قبل الوفاة بأقل من ثلاثة أشهر. ولما أنزل براءة أمره بنبذ العهود التي كانت للمشركين وقال فيها: (يا أيّها النبي جاهد الكفار والمنافقين واغلظ عليهم) [التوبة 73] وهذه الآية ناسخة لقوله تعالى: (ولا تطع الكافرين والمنافقين ودع أذاهم) وذلك أنه لم يبق حينئذ للمنافق من يعينه لو أقيم عليه الحد، ولم يبق حول المدينة من الكفار من يتحدث بأن محمدا يقتل أصحابه، فأمره الله بجهادهم والإغلاظ عليهم، وقد ذكر أهل العلم أن آية الأحزاب منسوخة بهذه الآية ونحوها، وقال في الأحزاب: (لئن لم ينته المنافقون والذين في قلوبهم مرض والمرجفون في المدينة لنغرينّك بهم ثمّ لا يجاورونك فيها إلا قليلا

ملعونين أينما ثقفوا أُخذوا.. الآية) [الأحزاب 60-61]، فعلُم أنهم كانوا يفعلون أشياء إذ ذاك إن لم ينتهوا عنها قُتلوا عليها في المستقبل لما أعزّ الله دينه ونصر رسوله فحيثما كان للمنافق ظهور يخاف من إقامة الحدّ عليه فتنة أكبر من بقائه عملنا بآية: (دع أذاهم) كما أنه حيث عجزنا عن جهاد الكفار عملنا بآية الكفّ عنهم والصفح، وحيثما حصل القوة والعزّة خوطبنا بقوله: (جاهد الكفار والمنافقين).

فهذا يبين أن الإمساك عن قتل من أظهر نفاقه بكتاب الله على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ لا نسخ بعده، ولم نَدَّعِ أن الحكم تغيّر بعده لتغيّر المصلحة من غير وحي نزل، فإن هذا تصرّف في الشريعة، وتحويل لها بالرأي، ودعوى أنّ الحكم المطلق كان لمعنىً وقد زال، وهو غير جائز، كما نسبوا إلى من قال: إنّ حكم المؤلّفة انقطع ولم يأت على انقطاعه بكتاب ولا سنّة سوى ادّعاء تغير المصلحة (120).

قلت: والخوف من فتنة قتل المنافقين إنما يعود بعد الأمر بقتلهم وتغيّر الحكم إلى عدم ثبوت موجب القتل، وهذا يقوله ابن تيمية نفسه كما في مجموع الفتاوى حيث يقول:- والذين كان يعرفهم لو عاقب بعضهم لغضب له قومه ولقال الناس إن محمدا يقتل أصحابه، فكان يحصل بسبب ذلك نفور عن الإسلام، إذ لم يكن الذنب ظاهرا يشترك الناس في معرفته (121).

وبهذا لا يجوز الإحتجاج بهذا اللفظ النبوي على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ترك قتل بعض أصحابه مع استحقاقهم القتل وثبوت التهمة عليهم ثم يقول:- لا أقتلهم حتى لا يقال إني أقتل أصحابي، فإنه قد علم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قتل بعض الفضلاء من أصحابه كماعز والغامدية، وهم المقطوع لهم بالإيمان والجنة، بل رجمهما بالحجارة رضي الله عنهما، وبهذا يتبين أن الناس

---

(120) الصارم المسلول 673/3 وما بعدها.

(121) مجموع الفتاوى 422/7-423.

سيقولون: إن محمدا (صلى الله عليه وسلم) يقتل أصحابه لما لا يكون له الحجة الشرعية الظاهرة عليهم، وهذا مما يوجب اضطراب القلوب وتغيرها، ولذلك سيقولون: إن محمدا يقتل أصحابه.

ثم تأمل كلمة «أصحابه»، هذه تنبيك بالجواب، فإن هؤلاء المنافقين عند بعض الصحابة وعند العرب هم من الصحابة، ولم تقم بينة أنهم من أعدائه بل من أشد أعدائه (هم العدو فاحذرهم) وهذا لإسرارهم وتخفّيهم، وأما إذا أقيمت الحجة الشرعية عليهم بظهور نفاقهم فقد بان لكل مخالف أنهم من أعدائه وليسوا له بأصحاب كما قتل جماعة عكل وعرينة لما بان عداؤهم. والله أعلم.

التحقيق في سبب ورود قوله تعالى:

(ولئن سألتهم ليقولن إنّما كنا نخوض ونلعب، قل أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون * لا تعتذروا قد كفرتم بعد إيمانكم إن نعف عن طائفة منكم نعذب طائفة بأنهم كانوا مجرمين)[التوبة 65-66].

ورد مرفوعا(122) في سبب نزول هاتين الآيتين ما يلي:-

قال ابن أبي حاتم: حدثنا يونس بن عبد الأعلى حدثنا عبد الله بن وهب أخبرني هشام بن سعد عن زيد بن أسلم عن عبد الله بن عمر قال: قال رجل في غزوة تبوك في مجلس يوما: ما رأيت مثل قرّائنا هؤلاء، لا أرغب بطونا ولا أكذب ألسنةً ولا أجبن عند اللقاء، فقال رجل في المجلس: كذبت، ولكنك منافق، لأخبرنّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، فبلغ ذلك النبي صلى الله عليه وسلم ونزل القرآن، قال عبد الله: فأنا رأيته متعلقا بحقب ناقة رسول الله تنكبه الحجارة وهو يقول: يا رسول الله إنما كنا نخوض ونلعب، ورسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: أبالله وآياته ورسوله كنتم تستهزؤون.

---

(122) قلت مرفوعا: لأن سبب النزول إذا ورد من قول الصحابي فإنه في حكم المرفوع كما قاله جمع من الأئمة منهم البخاري وأبو عبد الله الحاكم ونصره ابن تيمية في رسالته مقدمة في التفسير.

قلت: سنده صحيح ومن طريق هشام بن سعد رواه الطبري في تفسيره.

وورد في ذلك سبب آخر أعرضت عنه لضعفه، وأما تعيين الرجل فورد في ذلك أحاديث لا تزيدنا في هذا الباب الذي نحن فيه.

ولو أنعمت في الحديث نظرا، وفكرت في قول الرجل لوجدته من لحن القول الذي لا تقوم به حجة على قتله ردّة، ولكن جاء القرآن ليفضح ما في قلبه عند قولها وهو الكفر، ولذلك قال الله قبل: (يحذر المنافقون أن تنزل عليهم سورة تنبئهم بما في قلوبهم، قل استهزؤوا إن الله مخرج ما تحذرون) [التوبة 64].

فالآية فضحت كفر قلبه الذي دفعه لهذا الكلام، وهو كلام أخفى الكثير من مراده وأظهر بعضه مخافة السيف أو مخافة الفضيحة، وهو قول لو قاله اليوم أحد لما ثبت لنا مراده حتى نستوثق منه، وهذا شأن كل كلام محتمل غير صريح، والرجل بكل يسر سيقول: أنا أسب رجالا بما أراه فيهم، وأقصى ما يحكم عليه التعزير في شتمه المسلمين، مع أن الحالة التي ورد فيها سبب النزول سيدخل في كلامه في الشتم والسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولكنه يستطيع أن يحلف (كعادة المنافقين وكما فعل) أنه ما أراده.

ثم لو أنعمت أخرى فسترى أنه حلف أنه كان يخوض ويلعب، ولفظه يحتمل هذا، ولكننا نجزم بكذبه بنص الوحي، وليس هو مما تقام به الحدود والأحكام، والله أعلم.

هذا نهاية الأمر في هذا الباب، فلا يجوز لأحد أن يزعم أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أسقط عن المنافقين حد الردة مع استحقاقهم له، فإن قائل هذا مبطل محجوج ولا يبعد عنه الكفر عياذا بالله تعالى كما تقدم من كلام ابن حزم رحمه الله تعالى.

قوله سبحانه: (اتخذوا أيمانهم جنة).

ومما ذكره الله تعالى في كتابه من أسباب المنافقين في دفع الحكم الشرعي عنهم بالقتل هو الحلف لرسول الله صلى الله عليه وسلم ولأصحابه رضي الله عنهم أنهم على دين الإسلام ولم يخرجوا منه.

قال تعالى:– (يحلفون بالله ليرضوكم والله ورسوله أحق أن يرضوه إن كانوا مؤمنين) [التوبة 62].

قال الطبري:– يحلف لكم أيها المؤمنون هؤلاء المنافقون بالله ليرضوكم فيما بلغكم عنهم من أذاهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وذكرهم إياه بالطعن عليه، والعيب له، ومطابقتهم سراً أهل الكفر عليكم، بالله والأيمان الفاجرة أنهم ما فعلوا ذلك، وإنهم لعلى دينكم ومعكم على من خالفكم، يبتغون بذلك رضاكم (123).

وقال تعالى: (يحلفون لكم لترضوا عنهم فإن ترضوا عنهم فإن الله لا يرضى عن القوم الفاسقين) [التوبة 96].

وقال تعالى: (يوم يبعثهم الله جميعا فيحلفون له كما يحلفون لكم ويحسبون أنهم على شيء ألا إنهم هم الكاذبون) [المجادلة 18]. وقال تعالى: (ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون) [التوبة 65].

فبين الله سبحانه أن خوفهم منكم هو الذي جعلهم يحلفون هذه الأيمان الكاذبة إنهم منكم. فدل هذا أنه كان لأيمانهم مانعا من قتلهم.

(123) جامع البيان 170/10.

حكمه:

قال البغوي:- وذهب جماعة إلى أن إسلام الزنديق والباطنية لا يقبل بكل حال وهو قول مالك وأحمد.(129).

قال مالك: النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم، فيقتل إذا شهد عليه بها دون استتابة لأنه لا يظهر ما يستتاب منه(130).

وقال ابن سلمون:- واما إذا كان مستترا بالكفر فهو الزنديق وحكمه عندنا الكفر من غير استتابة، فلا تقبل توبته(131).

وأما أبو حنيفة ففي الخانية:- إن جاء الزنديق قبل أن يؤخذ فأقر أنه زنديق فتاب عن ذلك، تقبل توبته، وإن أخذ ثم تاب لم تقبل توبته ويقتل (132).

وقال: أقتل الزنديق سراً فإن توبته لا تعرف(133).

وهو قول أحمد(134).

واسحق(135).

وقال الشافعي:- يستتاب المرتد ظاهرا والزنديق جميعا(136).

وللعلماء تفصيل في تعدد الأقوال في المذهب الواحد نعرض عنه مخافة الإطالة.

---

(129) شرح السنة 243/10.
(130) تبصرة الحكام في أصول أقضية الأحكام 193/2. وكذا قال ابن عبد البر في الإستذكار 146/22.
(131) هامش تبصرة الحكام 268/2.
(132) البحر الرائق لابن نُجيم 136/5 وانظر الأشباه والنظائر له ص189.
(133) أحكام القرآن للجصاص 350/3، وانظر الدر المختار لابن عابدين 456/3.
(134) المبدع للحنابلة 179/9، والمغني 126/8 وإن كان صاحب المغني قد اختار قبول توبته.
(135) التمهيد لابن عبد البر 310/5.
(136) انظر المهذب للشيرازي 222/2-223، وكفاية الأخيار للحصكفي 125/2.

وحجتهم في قتل الزنديق هي حجتهم في قتل المرتد دون فرق وهو قوله صلى الله عليه وسلم:- من بدل دينه فاقتلوه (137).

وقوله سبحانه وتعالى: (أخذوا وقتلوا تقتيلا)، وقوله: (جاهد الكفار والمنافقين)، وقوله: (فقاتلوا أئمة الكفر)، وقد تقدم وجه الدلالة لهذه الآيات.

يقول الزركشي:: وأما الزنديق فلأنه كان مظهراً للإسلام، مسراً للكفر، فإذا وُقف على ذلك منه فأظهر التوبة لم يزد على ما كان منها قبلها وهو إظهار الإسلام(138).

يقول ابن تيمية:- والزنديق هو المنافق وإنما يقتله من يقتله إذا ظهر منه أنه يكتم النفاق، قالوا ولا تعلم توبته لأن غاية ما عنده أنه يظهر ما كان يظهر، وقد كان يظهر الإيمان وهو منافق ولو قبلت توبة الزنادقة لم يكن سبيل إلى تقتيلهم والقرآن قد توعّدهم بالقتل(139).

وحجة الشافعي رحمه الله، قوله تعالى: (اتخذوا أيمانهم جنة)، فقد قبل الله منهم أيمانهم جنة في عدم قتلهم، فإنْ استتيبوا فحلفوا خلي سبيلهم.

والذي أعتقده أن الصواب عدم قبول توبته. وما احتج به إمامنا الشافعي رحمه الله ليس بحجة على ما أراد، وقد تقدم كلام ابن تيمية رحمه الله في تفسير الجنة التي لا تخرق، ثم إن الأيمان التي نفعتهم هي عند ضعف الأدلة أو عدم قبولها في حق زندقتهم كما تبين لنا في مبحث عدم إظهار المنافقين لنفاقهم..

والحمد لله رب العالمين

---

(137) رواه البخاري 237/12 و 239 من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.

(138) شرح الزركشي على مختصر الخرقي 228/6.

(139) مجموع الفتاوى 212/7.

حكمه:

قال البغوي:– وذهب جماعة إلى أن إسلام الزنديق والباطنية لا يقبل بكل حال وهو قول مالك وأحمد.(129).

قال مالك: النفاق في عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم هو الزندقة فينا اليوم، فيقتل إذا شهد عليه بها دون استتابة لأنه لا يظهر ما يستتاب منه(130).

وقال ابن سلمون:– واما إذا كان مستترا بالكفر فهو الزنديق وحكمه عندنا الكفر من غير استتابة، فلا تقبل توبته(131).

وأما أبو حنيفة ففي الخانية:– إن جاء الزنديق قبل أن يؤخذ فأقر أنه زنديق فتاب عن ذلك، تقبل توبته، وإن أخذ ثم تاب لم تقبل توبته ويقتل (132).

وقال: أقتل الزنديق سراً فإن توبته لا تعرف(133).

وهو قول أحمد(134).

واسحق(135).

وقال الشافعي:– يستتاب المرتد ظاهرا والزنديق جميعا(136).

وللعلماء تفصيل في تعدد الأقوال في المذهب الواحد نعرض عنه مخافة الإطالة.

---

(129) شرح السنة 243/10.

(130) تبصرة الحكام في أصوب اقضية الأحكام 193/2. وكذا قال ابن عبد البر في الإستذكار 146/22.

(131) هامش تبصرة الحكام 268/2.

(132) البحر الرائق لابن نُجيم 136/5 وانظر الأشباه والنظائر له ص189.

(133) أحكام القرآن للجصاص 350/3، وانظر الدر المختار لابن عابدين 456/3.

(134) المبدع للحنابلة 179/9، والمغني 126/8 وإن كان صاحب المغني قد اختار قبول توبته.

(135) التمهيد لابن عبد البر 310/5.

(136) انظر المهذب الشيرازي 222/2–223، وكفاية الأخيار للحصكفي 125/2.

وحجتهم في قتل الزنديق هي حجتهم في قتل المرتد دون فرق وهو قوله صلى الله عليه وسلم:- من بدل دينه فاقتلوه (137).

وقوله سبحانه وتعالى: (أخذوا وقتّلوا تقتيلا)، وقوله: (جاهد الكفار والمنافقين)، وقوله: (فقاتلوا أئمة الكفر)، وقد تقدم وجه الدلالة لهذه الآيات.

يقول الزركشي:: وأما الزنديق فلأنه كان مظهراً للإسلام، مسراً للكفر، فإذا وُقف على ذلك منه فأظهر التوبة لم يزد على ما كان منها قبلها وهو إظهار الإسلام(138).

يقول ابن تيمية:- والزنديق هو المنافق وإنما يقتله من يقتله إذا ظهر منه أنه يكتم النفاق، قالوا ولا تعلم توبته لأن غاية ما عنده أنه يظهر ما كان يظهر، وقد كان يظهر الإيمان وهو منافق ولو قبلت توبة الزنادقة لم يكن سبيل إلى تقتيلهم والقرآن قد توعّدهم بالقتل(139).

وحجة الشافعي رحمه الله، قوله تعالى: (اتخذوا أيمانهم جنة)، فقد قبل الله منهم أيمانهم جنة في عدم قتلهم، فإن استتيبوا فحلفوا خلي سبيلهم.

والذي أعتقده أن الصواب عدم قبول توبته. وما احتج به إمامنا الشافعي رحمه الله ليس بحجة على ما أراد، وقد تقدم كلام ابن تيمية رحمه الله في تفسير الجنة التي لا تخرق، ثم إن الأيمان التي نفعتهم هي عند ضعف الأدلة أو عدم قبولها في حق زندقتهم كما تبين لنا في مبحث عدم إظهار المنافقين لنفاقهم..

والحمد لله رب العالمين

---

(137) رواه البخاري 237/12 و 239 من حديث ابن عباس رضي الله عنهما.
(138) شرح الزركشي على مختصر الخرقي 228/6.
(139) مجموع الفتاوى 212/7.

هبل والعودة المقيتة..

الدكتور العبد الرّحيم السّبيعي

الحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله.

سيد قطب عليه رحمة الله مدرسة متكاملة في كل جوانب حياته، فهو مدرسة في الدعوة إلى الله، ومدرسة في الثبات على المنهج، ومدرسة في التضحية بالغالي والنفيس في سبيل الله، ومدرسة في الأدب والشعر، وهو نسيج وحده في ذلك كله، وأنت عندما تقرأ له لا تخطئ العين أسلوبه، ولو خلطته بغيره لما وجدت عناءً في معرفته، وكم أخرجنا كلماته من ثنايا كتابات كثير ممن يكتبون ولا يعزون.

وسيّد رحمه الله صادق اللهجة، شفاف الأسلوب، رقيق العبارة، تحسّ بأنك تسمو معه، وترتقي وتتألّق بكلماته، وبخاصة إذا كان هذا الشعر يخرج من رحم المحنة، ومن وسط المعمعة، ومن وراء القضبان.

يكتب سيّد قصيدته عن هبل، ذلك الرمز الذي صنع الدجل، وتعبيد الناس لغير الله، ذلك الرمز الذي تحطّم على أيدي الرجال، ها هو يعود اليوم في ثوبه الجديد

ناطقا متكلّما، ويجد من يسبّح بحمده، بل يحرق البخور تسبيحا بحمده وتمجيدا:

هبل هبل .. رمــــز السـخـــافـــة والدّجل

من بـعـــــــدمــــــــا اندثرت على أيدي الأباة

عـــــدت إلينا اليـــــوم في ثوب الطغـــــاة

تتنشّق البـــخـــور تحـــرقـــه أســـاطيـــر النفـــاق

وتصنع تلك نفوس استمرأت الذل، وشربت كأس المهانة حتى الثمالة، وهي نفوس موجودة في كل وقت، مأسورة لشهوات تسترزق بذلها ومهانتها:

من قـــيـــدت بالأســـر قـــيـــد الخنا والإرتزاق

ثمّ يعجب كيف يقود وثن تلك الجموع..؟! وإنه لشيء مخجل حقّا أن يسيّر وثن تلك الجموع:

وثن يقــــود جـــــمــــــوعـــــه يا للـــخـــجل

والعجيب أنهم بتراتيلهم الوثنية وبأعاجيبهم السحرية، استطاعوا أن يُفووا القطيع، فأصبح أكثرهم يتبتل في محراب هبل، مثوبة وخضوعا لا يفقهون شيئا وكأنهم خراف تساق في قطيع:

هـــــبل هـــــبل ..

رمــــز الســـــخــــــافـــــة والدجل

لا تسألن يا صاحبي تلك الجموع

لمن التعبّد والمثوبة والخضوع

دعها فما هي غير خرفان القطيع

ومع كل هذا فياليت أن هذا الصنم من صنع محلّي، بل هو من صنع أجنبي، مصنوع في بلاد العم سام، وتكفل المال ليصنع منه ذلك البطل وليمخرق على الناس ليستمرّوا في تراتيلهم لذلك المعبود:

معبودها صنم يراه العم سام

وتكفل الدولار كي يضفي عليه الإحترام

وسمى القطيع غباوة يا للبطل

وهم بعد أن سُحروا وفُتنوا، واستخفهم فأطاعوه، أخذوا يضفون عليه صفات التمجيد والتقديس، ويصفونه بصفات ليست في الأنبياء، بل هي من صفات الملائكة... وهم لا يملون يهتفون له بكرة وأصيلا، ويقومون له الليل وأطراف النهار–

هبل هبل..

رمز الخيانة والجهالة والسخافة والدجل

هتافة التهريج ما ملّوا الثناء

زعموا له ماليس عند الأنبياء

ملك تجلبب بالضياء وجاء من كبد السماء

هو فاتح.. هو عبقري ملهم

هو مرسل.. هو عالم ومعلّم

ومن الجـــــهـــــالة مـــا قـــتـل

وها هو ذلك الوثن الغبي يصدق ما يشيعه أساطين المنافقين، وهتافة التهريج، وأعمدة الخيانة والعمالة، من تلك الأمجاد الزائفة والبطولات الكاذبة:

هـــبل هـــبل..

رمـــز الخـــيـــانة والعـــمـــالة والدجل

صِـيـغتْ له الأمـجـاد زائفـة فـصـدّقـهـا الغـبي

ولكن الأحـرار يردون هـذا الكذب ويسـتنكرون هذا التـضليل، ويكشـفـون هذا الزيف، ولكن الأحرار في هذا الزمان قليلون..

واســـتنكر الكذب الصـــراح وردّه الحـــرّ الأبيّ

لكنمـــا الأحـــرار في هذا الزمـــان هـم قـليل

فما مصيرهـم..؟

إنه مصـير الأحـرار في كل وقت، السجن والألم والجراحات فليدخلوا السـجن الرهيب وليصبروا الصبر الجميل.

ولكن كما انتهى هبل الأول، فلا بد أن ينتهي هبل الآخر، ولا بد لكل طاغوت من نهاية، ولكل مخلوق أجل..

وليـشـــهـدوا أقـسى رواية.. فلكل طـاغـيـة نهـاية

ولـكـل مـــــخـلوق أجـل.. هـبـل .. هـبـل

هـــبل.. هـــبل

أخي في الله ألا ترى معي أن هذه القصيدة تصف حالنا مع هؤلاء الطغاة في هذا الزمان وكل زمـان، بل إن (هبل) القديم أكـثـر سـجـاذة، وأقل مكرا من هذه الأصنام المنتشرة في كل مكان،.. ولئن كان سيّد يتكلّم عن هبل عصـره.. فإن لكل بلد في هذا الزمان هبل، ولكل (هبل) عبّادُه ومنافقوه وحـارقوا البخور بين يديه.. نسأل الله أن يعجل بإخراج الرجال الذين يكسرون هبل، ويُميتون الباطل، ويعيدون النور، وما ذلك على الله بعزيز.

وفقك الله

السلخ

هو أن تعمد إلى بيت فتضع مكان كل لفظ لفظاً آخر في معناه، مثل أن تقول في قول الشاعر:

« دَعِ المكارمَ لا ترْحل لبُـغـيـتـهـا

واقْعد فإنك أنت الطاعم الكاسي »:

ذَرِ المآثر لا تَظْعن لَمِطْلبـــهـــا

واجْلس فـــإنك أنت الآكل اللاّبس

التعريفات للجرجاني

من يرد الله به خيرا يفقّهه في الدّين

مسألة في

حكم تارك الصلاة -2-

الشيخ/ أبو بصير الشامي

3- حكم المصلي الذي لا يحافظ على الصلوات الخمس:

الراجح -والله تعالى أعلم- أن المصلي الذي لا يحافظ على صلاته، فيصلي أحيانا ويترك أحيانا، لكن يغلب عليه عدم الترك، أنه غير كافر الكفر الأكبر، هذا ما دلت عليه الأدلة، وإليك بعضها:

قال تعالى: (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) [مريم 59].

ففسر السلف -رضي الله عنهم- إضاعة الصلاة بإضاعة وقتها، وقالوا: لو كان تركا لكان كفرا، وكانوا كفارا (1) فدل أن ضياع المواقيت، يعتبر ذنبا كبيرا وعظيما إلا أنه لا يرقى إلى درجة الكفر الأكبر.

---

(1) انظر تفسير ابن كثير 134/3.

وقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «أول ما يُحاسب الناس به يوم القيامة من أعمالهم الصلاة، يقول ربنا عز وجل لملائكته وهو أعلم: انظروا في صلاة عبدي أتمها أم نقصها؟ فإن كانت تامة كتبت له تامة، وإن كانت انتقص منها شيئا، قال: انظروا هل لعبدي من تطوع؟ فإن كان له تطوع قال: أتموا لعبدي فريضته، ثم تؤخذ الأعمال على ذاكم».

فلو كان انتقاص شيء من الفريضة يعتبر كفرا، لما نفعه التطوع ولما جبرت صلاته بالنوافل، لأنه لا ينفع مع الكفر عمل.

وقوله صلى الله عليه وسلم: «انتقص منها شيئا»، يحتمل أمرين وكلاهما دلت عليه السنة: أحدهما أنه أقام الصلاة، لكنه أحيانا لم يأت بأركانها وفرائضها على الوجه المطلوب. والثاني، أنه ترك صلاة كاملة أو أكثر خلال حياته في الدنيا، فتُجبر صلاته وتكمل من صلاة التطوع إن كان له تطوع.

وقال صلى الله عليه وسلم: «إنها ستكون عليكم بعدي أمراء، يشغلهم أشياء عن الصلاة لوقتها، حتى يذهب وقتها، فصلوا الصلاة لوقتها» قال رجل: إن أدركتها معهم أصلي معهم؟ قال: «نعم إن شئت». أي يصليها معهم نافلة، لأن الفريضة لا تُعاد في اليوم مرتين.

وكونه صلى الله عليه وسلم أذن للرجل بأن يأتم بهم ويصلي معهم، فدل أنهم ليسوا كفارا بترك الصلاة حتى يفوت كل وقتها.

وقال صلى الله عليه وسلم: «فإن ربكم يقول: من صلى الصلاة لوقتها، وحافظ عليها ولم يضيعها استخفافا بحقها، فله عليَّ عهد أن أدخله الجنة. ومن لم يصلها لوقتها، ولم يحافظ عليها ، وضيعها استخفافا بحقها، فلا عهد له علي، إن شئت عذبته، وإن شئت غفرت له».

فكونه يترك للمشيئة فدل أنه غير كافر، لأن الكافر ليس له في الآخرة إلا الخلود

في النار، أعاذنا الله منها.

وقوله صلى الله عليه وسلم:«ولم يحافظ عليها، وضيعها استخفافا بحقها»، لا ينبغي أن يفهم منه مطلق الترك، لأن ترك الصلاة كليا كفرٌ أكبر كما تقدم.

قال ابن تيمية: فأما من كان مصرا على تركها لا يصلي قط، ويموت على هذا الإصرار والترك، فهذا لا يكون مسلما، لكن أكثر الناس يصلون تارة ويتركونها تارة، فهؤلاء ليسوا يحافظون عليها، وهؤلاء تحت الوعيد، وهم الذين جاء فيهم الحديث الذي في السنن، حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال: «خمس صلوات كتبهن الله على العباد في اليوم والليلة، من حافظ عليهن كان له عهد عند الله أن يدخله الجنة، ومن لم يحافظ عليهن لم يكن له عهد عند الله، إن شاء عذبه وإن شاء غفر له».

وقال بعد أن ذكر الحديث الآنف الذكر: يظهر أن الإحتجاج بذلك على تارك الصلاة لا يكفر، حجة ضعيفة، لكنه يدل على أن تارك المحافظة لا يكفر. (2).

وقال ابن القيم في تأويل الحبوط الوارد في قوله صلى الله عليه وسلم: «فإن من ترك صلاة العصر، فقد حبط عملُه»: والذي يظهر في الحديث -والله أعلم بمراد رسوله- أن الترك نوعان: ترك كلي لا يصليها أبدا، فهذا يحبط العمل جميعه، وترك معين في يوم معين، فهذا يحبط عمل ذلك اليوم، فالحبوط العام في مقابلة الترك العام، والحبوط المعين في مقابل الترك المعين (3)..

فتأمل كيف فرق بين الترك الكلي المكفر والذي يؤدي إلى حبوط الأعمال، وبين الترك الجزئي الخاص في يوم معين الغير مكفر، والذي يؤدي إلى حبوط أعمال ذلك اليوم فقط.

---

(2)الفتاوى: 578/7 و49/22.

(3) الصلاة وحكم تاركها ص65.

شبهة ورد:

قد يرد سؤال يقول: ما دام الأمر كذلك، كم هي عدد الصلوات التي يكفر صاحبها لو تركها، أم أن باب الترك مفتوح على مصراعيه، ويكفي المرء أن يصلي بعض الصلوات في حياته ليرفع عنه حكم الكفر، وحتى لا يكون كمن يترك الصلاة كليا..؟

أقول: الذي دلت عليه السنة أن من عنده من صلاة التطوع بقدر ما ضيع وترك من صلاة الفرض، فهذا على الراجح يؤخذ له من تطوعه ليتمم له ما أنقص من الفرائض، وهو تحت الوعيد والمشيئة.

أما من غلب عليه ترك الصلاة، وقل عنده التطوع، فأنّى لهذا من إتمام ما أنقص وترك من الصلوات، لذا لا مناص من كفره وتكفيره، والله تعالى أعلم.

وعليه فإننا نقول: من كان لا يصلي إلا الجمعة، أو في رمضان فقط، أو في المناسبات السنوية كالأعياد وغيرها، فهو كافر مرتد، يستتاب، فإن تاب وإلا يُعامل معاملة أهل الردة، والله أعلم.

تنبيه:

قولنا أن عدم المحافظة على الصلوات الخمس لا يرقى إلى الكفر الأكبر، لا ينبغي أن يفهم منه الإستهانة من قدر الصلاة -وقد قدمنا الحديث عن أهمية الصلاة- بل إن ترك صلاة واحدة لهو أعظم عند الله من جميع الآثام والكبائر عدا الشرك.

قال تعالى: (فخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا) [مريم 59]

والغي هو الخسران، وقيل: هو واد في جهنم بعيد القعر خبيث الطعم، وقيل: هو

واد في جهنم من قيح ودم (4).

وقال تعالى: (فويل للمصلين الذين هم عن صلاتهم ساهون)[الماعون 4-5].

والويل معناه المشقة في العذاب، وقيل أنه واد في جهنم بين جبلين يهوي فيه الهاوي أربعين خريفا، وقيل: أنه وادٍ يجري بفناء جهنم من صديد أهل النار، وقيل غير ذلك (5).

وقال تعالى: (ما سلككم في سقر. قالوا لم نكُ من المصلين) [المدثر 42-43].

وهذه الآية تحمل على الكافر التارك للصلاة كليا، ولكن شاهدنا منها بيان أهمية وعظمة الصلاة في الإسلام، حيث أول ما عدوا من ذنوبهم التي كانت سببا في دخولهم «سقر» تركهم للصلاة.

أما «سقر» فهي التي وصفها الله تعالى بقوله: (وما أدراك ما سقر. لا تُبقي ولا تَذرُ. لواحة للبشر) المدثر: ٢٧ إلى ٢٩. أعاذنا الله منها ومن كل سبب يؤدي إليها.

وفي الحديث عن عبد الله بن عمرو بن العاص، عن النبي صلى الله عليه وسلم، أنه ذكر الصلاة يوما، فقال: من حافظ عليها كانت له نورا وبرهانا ونجاة يوم القيامة، ومن لم يحافظ عليها لم تكن له نورا ولا برهانا ولا نجاة، وكان يوم القيامة مع قارون، وفرعون، وهامان، وأبيِّ بن خلف» (6).

قال ابن القيم: تارك المحافظة على الصلاة، إما أن يشغله ماله أو ملكه أو رياسته أو تجارته، فمن شغله عنها ماله فهو مع قارون، ومن شغله عنها ملكه فهو مع فرعون، ومن شغله عنها رياسته ووزارته فهو مع هامان، ومن شغله عنها تجارته

---

(4) انظر تفسير ابن كثير 185/3.
(5) انظر تفسير القرطبي 7/2.
(6) رواه أحمد والطبراني وابن حبان، وإسناده جيد، عن فقه السنة 83/1.

فهو مع أبيّ بن خلف (7).

فتأمل قرناء السوء هؤلاء، في المقام البئيس ذاك، ثم تأمل السبب إلى كل ذلك.. إنه عدم المحافظة على الصلاة!.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من فاتته صلاة العصر فكأنما وُتِرَ أهله وماله». أي فقد أهله وماله وبقي وحيدا، وهذا فيمن تفوته صلاة واحدة، فما بالك بمن تفوته أكثر من صلاة..؟!.

وقال صلى الله عليه وسلم: «من ترك ثلاث جمعات من غير عذرٍ، كُتب من المنافقين».

وهذا الحكم الرهيب فيمن يصلي لكنه ترك ثلاث جمعات من غير عذر، فكيف بمن تفوته الصلاة أياما وجمعات عديدة، لا شك أنه أولى بالنفاق، وأغلظ إثما وجرما.

4- مناقشة ادلة المخالفين في المسألة:

قال ابن القيم رحمه الله: ومن العجب أن يقع الشك في كفر من أصر على تركها، ودعي إلى فعلها على رؤوس الملأ، وهو يرى بارقة السيف على رأسه، ويُشد للقتل، وعصبت عيناه، وقيل له: تصلي وإلا قتلناك، فيقول: اقتلوني، ولا أصلي أبدا. ومن لا يكفر تارك الصلاة، يقول هذا مؤمن مسلم يغسل، ويُصلى عليه، ويدفن في مقابر المسلمين! وبعضهم يقول: إنه مؤمن كامل الإيمان، إيمانه كإيمان جبريل وميكائيل، فلا يستحي من هذا قوله من إنكاره تكفير من شهد بكفره الكتاب والسنة

(7) من فقه السنة 83/1.

واتفاق الصحابة !! (8).

قلت: ومع ذلك سنتناول أدلة المخالفين في المسألة بشيء من التفصيل، لنرى مدى دلالتها على صحة مذهبهم المرجوح في تارك الصلاة.

وقد تأملتها فوجدتها لا تخرج عن ستة أدلة:

1- قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يشرك به ويغفر ما دون ذلك لمن يشاء) [النساء 48]:

قالوا: ترك الصلاة ذنب دون الشرك، وبالتالي فإن تارك الصلاة تناله المغفرة ويدخل تحت المشيئة، لأن الآية شملت أصحاب جميع الذنوب عدا الشرك.

أقول: لا تعارض بين الآية وبين القول بأن تارك الصلاة كافر خالد في نار جهنم، لأن الأحاديث النبوية الصحيحة -وقد تقدم ذكر بعضها- قد صرحت وبوضوح أن من ترك الصلاة فقد أشرك ووقع في الكفر والشرك. وبالتالي فإن تارك الصلاة يشمله الشطر الأول من الآية لا الآخر، وهو قوله تعالى: (إن الله لا يغفر أن يُشرك به). فثبت أن الآية الكريمة شاهد عليهم وليست لهم كما زعموا.

فإن قيل: أين يكمن إشراك تارك الصلاة، وهو لم يتخذ مع الله إلها آخر؟

أقول: لا مناص لنا للحياد عن تسمية الأشياء ووصفها بأسمائها وأوصافها الشرعية، فإذا أطلق الشارع على فعل أو شيء بأنه شرك فلا بد لنا إلا أن نسميه بذلك الإسم والوصف. أما أين يكمن إشراك تارك الصلاة، فهو بتركه للصلاة واتباعه لأهوائه وشهواته ونزواته -التي كانت سببا في تركه للصلاة- فقد أطاع هواه باتباعه، واتخذه ندا لله عز وجل، فهو في حقيقته يعبد ويطيع ما يأمر به هواه، لا ما يأمر به الله سبحانه وتعالى، ألم تقرأ قوله تعالى: (أرأيت من اتخذ إليه هواه أفأنت تكون عليه وكيلا) [الفرقان 43]. فتأليه الهوى هنا وعبادته تكون باتباعه

(8) كتاب الصلاة ص62-63.

وطاعته فيما هو كفر، واعلم أن الشرك لا يُطلق في الشرع إلا لنوع عبادة تصرف لغير الله عز وجل، يعرف ذلك من يعرف المجالات العديدة التي تدخل في معنى العبادة لغة واصطلاحا.

2- حديث: يدرس الإسلام:

روى ابن ماجة بسنده عن أبي معاوية، عن أبي مالك الأشجعي، عن ربعي، عن حذيفة رضي الله عنه قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يدرس الإسلام كما يدرس وشيُ الثوب (9) حتى لا يُدرى ما صيامٌ، ولا صلاة، ولا نسك، ولا صدقة، ويُسرى على كتاب الله عز وجل في ليلة، فلا يبقى في الأرض منه آيةٌ، وتبقى طوائفُ من الناس، الشيخ الكبير والعجوز يقولون: أدركنا آباءنا على هذه الكلمة: لا إله إلا الله، فنحن نقولها».

فقال صلة بن زُفر لحذيفة: ما تُغني عنهم لا إله إلا الله، وهم لا يدرون ما صلاة ولا صيام ولا نسك ولا صدقة؟ فأعرض عنه حذيفة، ثم ردها عليه ثلاثا، كل ذلك يُعرض عنه حذيفة، ثم أقبل عليه في الثالثة، فقال: يا صِلَةُ تنجيهم من النار، ثلاثا.

قال الشيخ الألباني: أخرجه ابن ماجه (4049)، والحاكم (473/4) من طريق أبي معاوية..

وقال الحاكم: «صحيح على شرط مسلم» ووافقه الذهبي.

هذا وفي الحديث فائدة فقهية هامة، وهي أن شهادة أن لا إله إلا الله تنجي قائلها من الخلود في النار يوم القيامة ولو كان لا يقوم بشيء من أركان الإسلام الخمسة الأخرى، كالصلاة وغيرها (10).

---

(9) يدرس الثوب: أي يمحى وتذهب معالمه وآثاره، وشْي الثوب: أي نقشه.

(10) الصحيحة 127/1 و 130.

قلت: لفظ الحديث هو من رواية ابن ماجة فقط، أما رواية الحاكم كما في المستدرك والتي قال عنها -أي الحاكم-: صحيح على شرط مسلم، ووافقه عليها الذهبي، ليس فيها ذكر للصلاة لا في متن الحديث، ولا في سؤال صلة لحذيفة بن اليمان، وكان ينبغي للشيخ أن يشير إلى ذلك، وبخاصة أنه استشهد بتصحيح الحاكم وموافقة الذهبي له، واعتبر الحديث انتصارا لمذهبه في عدم كفر تارك الصلاة.

وقد وهم الشيخ الألباني ثانية عندما قوّل الحافظ ابن حجر. والغزالي ما لم يقولا انتصارا لمذهبه في تارك الصلاة، فقال: «ويعجبني بهذه المناسبة ما نقله الحافظ في الفتح (300/13) عن الغزالي أنه قال: والذي ينبغي الإحتراز منه: التكفير ما وجد إليه سبيلا، فإن استباحة دماء المسلمين المقرين بالتوحيد خطأ، والخطأ في ترك ألف كافر في الحياة، أهون من الخطأ في سفك دم لمسلم واحد» (11).

والصواب كما في الفتح (314/13)، أن الغزالي لم يقل «فإن استباحة دماء المسلمين المقرين بالتوحيد خطأ» وإنما قال: «فإن استباحة دماء المصلين المقرين بالتوحيد خطأ»، فواضح الفرق بين القولين والنقلين، ولو أثبت الشيخ كلمة المصلين بدلا من كلمة المسلمين كما في الأصل، لما كان لإستشهاده بمقولة الغزالي معنى أو دليل، لأنه استدل به لبيان حرمة تاركي الصلاة، وخطأ تكفيرهم.

عودة إلى الحديث ثانية، فنقول: على افتراض صحة الحديث (12) فإنه ليس فيه دليل على عدم كفر تارك الصلاة، أو تارك العمل بأركان الإسلام الخمسة -كما زعم

---

(11) رسالة حكم تارك الصلاة ص61.

(12)لأن الحديث في سنده أبو معاوية محمد بن خازم الضرير الكوفي، وهو من المرجئة، والحديث المذكور مما يتعلقون به وأمثاله من الأحاديث الواردة في الموضوع، ولأن روايته عن غير الأعمش فيها اضطراب وأوهام كما قاله أحمد وجماعة، وهذا منها، ولأنه قد رُمي بالتدليس، وهذا الحديث رواه بالعنعنة فيخشى أن يكون دلس. (عن فتوى لرئاسة ادارات البحوث العلمية والإفتاء، رقم الفتوى: 7649، بتاريخ 1404/11/1هـ).

الشيخ-، وإنما يدل على مبدأ العذر بالجهل المعجز، فالقوم لا يدرون، ولا يستطيعون أن يدرسوا لأن القرآن قد رفع، واندرست تعاليمه وآثاره من الأرض، فهم -بنص الحديث- عاجزون عن معرفة الحق، وبالتالي عن العمل به. والعجز الذي لا يمكن دفعه يرفع التكليف عن صاحبه -أيًا كان نوع هذا التكليف- بلا خلاف، قال تعالى: (فاتقوا الله ما استطعتم) [التغابن 16]، وقال تعالى: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها) [البقرة 286].

قال الإمام الشافعي رحمه الله: فإن الله يعلم أن هذا مستطيع يفعل ما استطاعه فيثيبه، وهذا مستطيع لا يفعل ما استطاعه فيعذبه، فإنما يعذبه لأنه لا يفعل مع القدرة، وقد علم الله ذلك منه، ومن لا يستطيع لا يأمره ولا يعن به على ما لم يستطيعه (13).

لذلك عندما سئل حذيفة: هل تنفعهم شهادة التوحيد وهم بهذه الحالة من التقصير الذي سببه الجهل، فأجاب أن نعم تنفعهم وتنجيهم من العذاب.

وهم مثلهم مثل من أسلم بالشهادتين ثم مات قبل أن يتمكن من معرفة شيء عن بقية أركان الدين، فضلا عن أن يعمل بها، ومثلهم كذلك بمن أسلم حديثا وهو في منطقة نائية تمنعه من أن يصل العلم كما تمنع العلم من أن يصله، ومثل هؤلاء لا خلاف أنهم يعذرون بالجهل ما داموا يعيشون ظروفهم القاهرة تلك، التي لا يستطيعون الفكاك منها، وأن لا إله إلا الله تنفعهم وتنجيهم من نار جهنم.

وعليه فإننا نقول: لا يجوز قياس العاجز على القادر المستطيع أو العكس، وحمل الأحكام التي تقال في الجاهل العاجز على العالم القادر، وتعميمها عليه.

ولو سئل حذيفة -رضي الله عنه- أو غيره من أهل العلم، عن أناس انتشر العلم في زمانهم وظهر، وسهل طلبه لمن يريده ويسعى إليه، ثم هم مع ذلك لا يأتون بشيء

---

(13) عن شرح العقيدة الطحاوية ص271.

من أركان الإسلام سوى مجرد التلفظ بشهادة التوحيد.. أتراهم كانوا سيقولون عنهم: إن اكتفاءهم بلفظ شهادة التوحيد، ينفعهم وينجيهم من النار، وإن لم يأتو بشيء من أركان الإسلام، وأعماله الظاهرة والباطنة؟! اللهم لا وألف لا..!

قال ابن تيمية: إن العذر لا يكون عذرا إلا مع العجز عن إزالته، وإلا متى أمكن الإنسان معرفة الحق، فقصر فيه، لم يكن معذورا (14).

خلاصة القول: أن الحديث ليس فيه أدنى دلالة على عدم كفر تارك الصلاة، وإنما يدل على مبدأ العذر بالجهل المعجز الذي لا يمكن دفعه. وحمل الحديث على غير ذلك المعنى هو من باب تحميل المعاني مالا تحتمل.

وقول الشيخ الألباني أن شهادة أن لا إله إلا الله تنجي قائلها من الخلود في النار يوم القيامة، ولو كان لا يقوم بشيء من أركان الإسلام الخمسة الأخرى كالصلاة وغيرها. هو قول أقرب ما يكون إلى قول أهل التجهم والإرجاء، وقد تقدم إغلاظ السلف وتكفيرهم لمن يقول بهذا القول.

قال الإمام أحمد: من قال هذا فقد كفر بالله، ورد على أمره، وعلى الرسول ما جاء له عن الله.

وقال ابن تيمية: قال تعالى: (ويقولون آمنا بالله وبالرسول وأطعنا ثم يتولى فريق منهم من بعد ذلك وما أولئك بالمؤمنين)، فنفى الإيمان عمن تولى عن العمل، ففي القرآن والسنة من نفي الإيمان عمن لم يأت بالعمل مواضع كثيرة كما نفى فيها الإيمان عن المنافق (15).

وقال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما، فإن عرف التوحيد

---

(14) رفع الملام ص114.

(15) مجموع الفتاوى 142/7.

ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما (16).

وقال ابن القيم: مجرد الإقرار والإخبار بصحة رسالته لا يوجب الإسلام إلا أن يلزم طاعته ومتابعه، وإلا فلو قال: أنا أعلم أنه نبي ولكن لا أتبعه ولا أدين بدينه كان من أكفر الكفار كما لهؤلاء المذكورين وغيرهم، وهذا متفق عليه بين الصحابة والتابعين وأئمة السنة أن الإيمان لا يكفي فيه قول اللسان بمجرده، ولا بمعرفة القلب مع ذلك، بل لا بد فيه من عمل القلب وهو حبه لله ورسوله وانقياده لدينه، والتزامه طاعته ومتابعة رسوله (17).

وقال الشيخ سليمان آل الشيخ في رده على صاحب المقدمة، في كتابه النافع «توحيد الخلاق»: إنه فهم أن الإيمان يكفي فيه مجرد التصديق القلبي وإن لم يوجد عمله، ولا عمل الجوارح، وهذا بعينه قول المرجئة ومعتقدهم، فإنهم يقولون الإيمان قول بلا عمل، وقد رد البخاري وغيره من الأئمة الأعلام على هؤلاء القوم اللئام وبينوا غلطهم وسوء غلطهم وسوء اعتقادهم للكتاب والسنة ومذاهب الأئمة..

وفي هذا القدر من كلام أهل العلم كفاية لبيان خطأ الشيخ، وانحرافه عن عقيدة أهل السنة والجماعة في الإيمان، ولم نرد في هذه العجالة مناقشة قوله الخطير الآنف الذكر بشيء من التفصيل -يشغلنا عن موضوع البحث- فهذا له موضع آخر(18).

3- حديث الشفاعة:

روى عبد الرزاق في مصنفه، بسنده عن أبي سعيد الخدري قال: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: إذا خلص المؤمنون من النار وأمنوا، فما مجادلة أحدكم لصاحبه في الحق يكون له عليه في الدنيا بأشد من مجادلة المؤمنين لربهم في

---

(16) مجموعة التوحيد ص83.

(17) مفتاح دار السعادة 1/93-94.

(18) انظر غير مأمور كتابنا «الانتصار لأهل التوحيد والرد على من جادل عن الطواغيت».

إخوانهم الذين أُدخلوا النار، قال: يقولون ربنا إخواننا كانوا يصلون معنا، ويصومون معنا، ويحجون معنا، فأدخلتهم النار، قال: فيقولون: اذهبوا فأخرجوا من عرفتم منهم، فيأتونهم فيعرفونهم بصورهم، لا تأكل النار صورهم، فمنهم من أخذته النار إلى أنصاف ساقيه، ومنهم من أخذته إلى كفيه فيخرجون، فيقولون: ربنا قد أخْرجنا من أمرْتنا.

قال: ثم يقول: أخرجوا من كان في قلبه مثقال دينار من الإيمان، ثم من كان في قلبه وزن نصف دينار، حتى يقول: أخرجوا من كان في قلبه مثقال ذرة، قال أبو سعيد: فمن لم يصدق بهذا الحديث فليقرأ هذه الآية (إن الله لا يظلمُ مثقال ذرة وإن تكُ حسنةً يضاعفها ويؤت من لدنه أجراً عظيما) [النساء 40]

قال: فيقولون: ربنا قد أخرجنا من أمرتنا فلم يبق في النار أحد فيه خير، قال: ثم يقول الله: شفعت الملائكة، وشفعت الأنبياءُ، وشفع المؤمنون، وبقي أرحم الراحمين، قال: فيقبض قبضة من النار -أو قال قبضتين- ناساً لم يعملوا لله خيراً قط، وقد احترقوا حتى صاروا حُمَماً، قال: فيؤت بهم إلى ماء يقال له الحياة، فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل، قال: فيخرجون من أجسادهم مثل اللؤلؤ، وفي أعناقهم الخاتم: عتقاء الله، قال: فيقال لهم: ادخلوا الجنة، فما تمنيتم ورأيتم من شيء فهو لكم، قال: فيقولون ربنا أعطيتنا ما لم تعط أحدا من العالمين، قال: فيقول: فإن لكم عندي أفضل منه، فيقولون: ربنا وما أفضل من ذلك؟ فيقول: رضائي عنكم، فلا أسخط عليكم أبدا» والحديث مخرج من الصحيحين، ولكن آثرنا رواية عبد الرزاق في مصنفه، لأنها الرواية التي اعتمدها الشيخ ناصر في رسالته «حكم تارك الصلاة»، وأقام رسالته كلها على هذا الحديث، حيث اعتبره حجة قاطعة على عدم كفر تارك الصلاة، وهو في استدلاله بهذا الحديث على المسألة، زعم أنه لم يسبق من الأولين ولا الآخرين، حيث لم يمتد إلى فقه هذا الحديث أحد سواه!.

وإليك ما قاله -بعد أن سرد الحديث- في رسالته المذكورة: «وهو أن المؤمنين لما

شفّعهم الله في إخوانهم المصلين والصائمين وغيرهم في المرة الأولى، فأخرجوهم من النار بالعلامة، فلما شفعوا في المرات الأخرى، وأخرجوا بشرا كثيرا، لم يكن فيهم مصلون بداهة وإنما فيهم من الخير كلٌ حسب إيمانه، وهذا ظاهر جدا لا يخفى على أحد إن شاء الله..

«مما يدل على أن شفاعة المؤمنين كانت لغير المصلين في المرة الثانية وما بعدها، وأنهم أخرجوهم من النار. فهذا نص قاطع في المسألة ينبغي أن يزول به النزاع في هذه المسألة بين أهل العلم..».

«وعلى ذلك فالحديث دليل قاطعٌ على أن تارك الصلاة إذا مات مسلما يشهد أن لا إله إلا الله أنه لا يخلد في النار مع المشركين. ففيه دليل قوي جدا أنه داخل تحت مشيئة الله تعالى...».

«فإن عجبي لا يكاد ينتهي من إغفال جماهير المؤلفين الذين توسعوا في الكتابة في هذه المسألة الهامة ألا وهي: هل يكفر تارك الصلاة كسلا أم لا؟ لقد غفلوا جميعاً -فيما اطلعت- عن إيراد هذا الحديث الصحيح.. لم يذكره من هو حجة له، ولم يجب عنه من هو حجة عليه». انتهى الإقتباس من رسالة «حكم تارك الصلاة».

أجيب على ما تقدم في الحديث، وما قاله الشيخ الألباني وفهمه من الحديث، من خلال النقاط التالية:

أولا: عند الحديث عن مسألة الوعد والوعيد، لا بد من الإلمام بجميع النصوص ذات العلاقة بالمسألة، وإعمالها جنبا إلى جنب، مجتهدين قدر الإمكان التوفيق فيما بينها عند ظهور التعارض، وعدم ضرب بعضها ببعض.

فليس من العدل والإنصاف والتقوى النظر إلى نص واحد وغض الطرف عن بقية النصوص ذات العلاقة، انتصارا لحكم، أو رأي، أو منهب، أو قول، أو شخص، فإن الذين وقعوا في طرفي النقيض -الإفراط والتفريط- كان في غالب الأحيان بسبب

إعمالهم لنص واحد أو نصوص، وجدوا فيها ضالتهم -كما يظنون- متجاهلين بقية النصوص الأخرى ذات العلاقة، والتي قد تضيف على المسألة فهما جديدا، ودلالات أخرى هم لا يريدونها..!

من ذلك مثلا: قولهم في الحديث «أن من قال لا إله إلا الله دخل الجنة»، أنه دليل على أن كل من قال -ولو مجرد القول- لا إله إلا الله فإنه من أهل الجنة، صارفين النظر عن النصوص الأخرى الصحيحة التي تفيد أن لا إله إلا الله قد قُيدت -إضافة إلى النطق- بقيود وشروط لا بد من استيفائها وتحقيقها لمن أراد الإنتفاع بها، وفي حال تذكرهم بمخالفاتهم لدلالات هذه النصوص وفقهها، تراهم يكثرون الجدال واللف والدوران، وربما رموك بأنك تخالف السنة، وترد على النبي صلى الله عليه وسلم قوله..!!.

وهؤلاء: مثلهم مثل من قال مرة: بأن عامل القمامة من أهل الجنة!!، وعندما سئل عن سبب مقولته الخاطئة هذه، أجاب بأن البخاري روى في الأدب المفرد عن أبي برزة الأسلمي قال: قلت يا رسول الله دلني على عمل يُدخل الجنة، قال: «أمِط الأذى عن طريق الناس»..

فقال: هذا دليل على أن من أماط الأذى عن طريق الناس فهو من أهل الجنة، ومن أراد أن يدخل الجنة فعليه أن يميط الأذى عن طريق الناس.. فتأمل!!.

ثانيا: من أصول أهل السنة والجماعة، أن المرء مهما كثرت ذنوبه وقلت حسناته، لا بد أن يكون من الموحدين الذين ماتوا على التوحيد حتى يفوز بالجنة والرحمة، وتناله شفاعة الشافعين.

فقد صح عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال لعمر: «يا ابن الخطاب! اذهب فناد في الناس: إنه لا يدخل الجنة إلا المؤمنون» مسلم. أي الموحدون.

وفي حديث آخر قال: «يا ابن عوف! اركب فرسك، ثم ناد: إن الجنة لا تحل إلا

المؤمن».

وقال صلى الله عليه وسلم: «لا يدخل الجنة إلا نفس مسلمة» البخاري.

وقال صلى الله عليه وسلم: «أتاني آت من عند ربي، فخيرني بين أن يدخل نصفُ أمتي الجنة وبين الشفاعة، فاخترت الشفاعة، وهي لمن مات لا يُشرك بالله شيئا». أي مات على التوحيد المنافي لجميع مظاهر الشرك الأكبر.

ومن حديث الشفاعة الذي أخرجه البخاري عن أنس، وفيه أن النبي صلى الله عليه وسلم بعد أن يتشفع فيمن في قلبه مثقال شعيرة من إيمان، ثم يعود ثانية فيؤذن فيمن في قلبه مثقال ذرة أو خردلة من إيمان، ثم يعود فيؤذن له أن يشفع فيمن كان في قلبه أدنى مثقال حبة خردل من إيمان فيخرجه من النار، وفي الرابعة يقول صلى الله عليه وسلم: يا رب ائذن لي فيمن قال: لا إله إلا الله، فيقول: وعزتي وجلالي، وكبريائي وعظمتي لأخرجن منها من قال لا إله إلا الله.

وفي رواية صحيحة عند ابن أبي عاصم في السنة، قال صلى الله عليه وسلم: «مازلت أشفع إلى ربي عز وجل ويشفعني، وأشفع ويشفعني، حتى أقول أي رب، شفعني فيمن قال: لا إله إلا الله فيقول: هذه ليست لك يا محمد ولا لأحد، هذه لي، وعزتي وجلالي ورحمتي لا أدع في النار أحداً يقول لا إله إلا الله».

فيه أن الذين يدخلون الجنة برحمة الله كما في الحديث الذي يرويه أبو سعيد الخدري عندما يقبض الله سبحانه قبضة أو قبضتين من النار فيخرج ناساً لم يعملوا لله خيرا قط، هم أنفسهم هؤلاء الموحدون الذين يشهدون أن لا إله إلا الله، والمذكورون في حديث أنس.

وفيه كذلك أن شفاعة الشافعين لمن في قلبه مثقال دينار من إيمان أو نصف دينار أو أقل من ذلك، هو لمن زاد عنده إيمانه وعمله عن أصل التوحيد بقدر دينار أو أكثر أو أقل.

أما الذين لم يعملوا لله خيرا قط، ويخصهم الله برحمته، يجب أن يحمل -كما دلت النصوص المتقدمة ذكرها- على أنهم لم يعملوا خيرا زائدا عن أصل التوحيد الذي لا بد منه لدخول الجنة.

ثالثا: فإن عرفت ذلك بقي عليك أن تعرف صفة التوحيد الذي لا بد منه للخروج من النار ودخول الجنة. فأقول: التوحيد ليس مجرد كلمة تطلق على اللسان -كما يزعم مرجئة العصر- ثم يتبعها شرود وإعراض عن دين الله وقيوده وشروطه، فالتوحيد ليس كذلك وإنما هو عبودية، وطاعة، وانقياد، وخضوع، وحب لله عز وجل، قال تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء) [البينة 5]..

فالتوحيد النافع، هو: اعتقاد وقول وعمل، لا يجزئ واحد منها عن الآخر، وهذا ما عليه اعتقاد أهل السنة والجماعة.

أما العمل الذي يدخل في شروط صحة التوحيد والإيمان، هو كل عمل تركه يؤدي بصاحبه إلى الشرك الأكبر. والعكس كذلك كل عمل فعله يؤدي إلى الشرك والكفر فيكون تركه واجتنابه شرطا لصحة التوحيد والإيمان.

وعليه فإن الصلاة -كما دلت النصوص المتقدم ذكرها، وكذلك أقوال أهل العلم- شرط لصحة التوحيد النافع الذي ينجي صاحبه يوم القيامة، لأن تركها شرط يحبط جميع الأعمال كما تقدم.

قال ابن تيمية: لو قدر أن قوما قالوا للنبيَّ صلى الله عليه وسلم: نحن نؤمن بما جئتنا به بقلوبنا من غير شك، ونقر بألسنتنا بالشهادتين، إلا أنا لا نطيعك في شيء مما أمرت به، ونهيت عنه، فلا نصلي ولا نصوم، ولا نحج، ولا نصدُق الحديث، ولا نؤدي الأمانة، ولا نفي بالعهد، ولا نصل الرحم، ولا نفعل شيئا من الخير الذي أمرت به، ونشرب الخمر وننكح ذوات المحرم بالزنا الظاهر، ونقتل من قدرنا عليه من أصحابك وأمتك، ونأخذ أموالهم، بل نقتلك أيضاً، ونقاتلك مع أعدائك، هل كان

يتوهم عاقل أن النبي صلى الله عليه وسلم يقول لهم: أنتم مؤمنون كاملوا الإيمان، وأنتم من أهل شفاعتي يوم القيامة (19).

ويرجى لكم أن لا يدخل أحد منكم النار، بل كل مسلم يعمل بالاضطرار أنه يقول لهم: أنتم أكفر الناس بما جئت به، ويضرب رقابهم إن لم يتوبوا من ذلك.

وقد تقدم قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: «لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختل شيء من هذا لم يكن الرجل مسلما، فإن عرف التوحيد ولم يعمل به، فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما».

رابعا: قول الشيخ الألباني أن شفاعة المؤمنين -في المرة الثانية لمن في قلبه مثقال دينار من إيمان- كانت لغير المصلين، وأنهم أخرجوهم من النار! هو تقول وظن من عنده، وتحميل للنص ما لا يحتمل، قال تعالى: (وما لهم به من علم إن يتبعون إلا الظن وإن الظن لا يُغني من الحق شيئا) [النجم 27].

خامساً: قد دلت السنة أن هؤلاء الذين يشفع لهم المؤمنون والملائكة في المرة الثانية، والثالثة، هم موحدون ومن أهل الصلاة، كما في الحديث الذي أخرجه البخاري وغيره، عن أبي هريرة، عن النبي صلى الله عليه وسلم، وجاء فيه «حتى إذا فرغ الله من القضاء بين عباده، وأراد أن يُخرج من النار من أراد أن يرحم ممن كان يشهد أن لا إله إلا الله، أمر الملائكة أن يُخرجوهم، فيعرفونهم بعلامة آثار السجود، قال: وحرم الله على النار أن تأكل من ابن آدم أثر السجود، قال: فيخرجونهم قد امتحشوا فيُصبُّ عليهم من ماء يقال له الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل..» (20).

---

(19) مجموع الفتاوى 287/7، معذرة لشيخ الإسلام ابن تيمية، فإن أهل التجهم والإرجاء في هذا العصر يقولون ذلك، إلا أنهم لا يقولون: أنهم مؤمنون كاملوا الإيمان..!

(20) أخرجه البخاري وعبد الرزاق في مصنفه 20856، وهو قبل الحديث مباشرة الذي استشهد به الشيخ الألباني في رسالته المذكورة، ومع ذلك لم يتعرض لذكره..؟!

قلت: تأمل كيف يعرفونهم بآثار السجود، مما يدل على أنهم كانوا من أهل الصلاة، وفي الحديث دلالة على أن من العلل لبقاء آثار السجود من دون أن تمسها النار، هو ليتمكن الشافعون من معرفتهم وهم في النار، والله أعلم.

ولا أستبعد أن هؤلاء هم أنفسهم الذين جاء ذكرهم في حديث أبي سعيد الخدري، والذين يخرجون من النار برحمة الله، بعد انتهاء شفاعة الشافعين، لتطابق أوصافهم في الحديثين.

جاء وصفهم في حديث أبي سعيد الخدري: «وقد احترقوا حتى صاروا حمماً، قال: فيؤتى بهم إلى ماء يقال له الحياة، فيصب عليهم فينبتون كما تنبت الحبة في حميل السيل..» وذلك بعد المرة الثانية، والثالثة وانتهاء شفاعة الشافعين.

وفي حديث أبي هريرة جاء وصفهم: «فيعرفونهم بعلامة آثار السجود.. فيخرجونهم قد امتحشوا فيصبُّ عليهم من ماء يقال له الحياة، فينبتون نبات الحبة في حميل السيل..».

ألا ترى أنهم هم أنفسهم الذين جاء ذكرهم في حديث أبي سعيد الخدري، إلا أنهم في حديث أبي هريرة جاءت زيادة -ظاهرة صريحة- توضح أنهم من أهل السجود والصلاة، وهذا الذي أعرض عن ذكره وبيانه الشيخ ناصر!!.

سادسا: فإذا عرفت أن الحديث الذي استدل به الشيخ الألباني ليس فيه أدنى دلالة على عدم كفر تارك الصلاة، بل لا يصح أصلاً كدليل في المسألة، فلك أن تعجب من قوله بأن الأولين والآخرين قد غفلوا عن دلالة الحديث في المسألة، ليأتي هو فيستدرك على السلف والخلف ما قد فاتهم من فقه هذا الحديث!!.

سابعا: هب أن في الحديث دلالة على المسألة، فهي لا ترقى أن تكون خفية، ظنية مرجوحة، أترى أن تُرد الأدلة اليقينية الظاهرة، الراجحة، الثابتة والمحكمة، وقد تقدم ذكرها -بدلالة مظنونة مرجوحة..؟!!

بهذا القدر ينتهي الرد على تعلق المخالفين -في المسألة- بهذا الحديث، لننظر إلى متعلقهم الرابع الذي يتعلقون به في عدم كفر تارك الصلاة!

4- حديث: البطاقة:

عن عبد الله بن عمرو قال: سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «إن الله سيخلص رجلاً من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة، فينشر عليه تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ثم يقول: أتنكر من هذا شيئا، أظلمك كتبتي الحافظون؟ فيقول: لا يا رب، فيقول أفلك عذر؟ فيقول: لا يا رب، فيقول: بلى إن لك عندنا حسنة فإنه لا ظلم عليك اليوم. فتخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله، وأشهد أن محمدا عبده ورسوله. فيقول: احضر وزنك، فيقول: ما هذه البطاقة مع هذه السجلات؟ فقال: إنك لا تُظلم، قال: فتوضع السجلات في كفة، والبطاقة في كفة، فطاشت السجلات وثقلت البطاقة، فلا يثقل مع اسم الله شيء». أخرجه أحمد، والترمذي، والحاكم وغيرهم، وهو حديث صحيح معروف.

قالوا: هذا حديث صحيح، يدل على أن الرجل ليس عنده من الحسنات شيء سوى شهادة التوحيد، وفي مقابلها ذنوب ومعاصٍ يصعب حصرها تملأ تسعة وتسعين سجلاً، كل سجل مثل مد البصر، ومع ذلك فإن الله تعالى يدخله الجنة بفضل حسنة شهادة التوحيد، مما دل على أن تارك الصلاة ليس كافرا، وأن الرحمة تشمله، بدلالة هذا الحديث.

أجيب على هذا الفهم والإستدلال بنقطتين:

أولا: لا يجوز اعتبار هذه الذنوب الموجودة في التسعة والتسعين سجلاً -مهما تعددت وتنوعت- أنها تشمل على الشرك الأكبر، أو شيءٍ من نواقض التوحيد، والتي منها ترك الصلاة كلياً كما تقدم ، لأن الشرك لا تنفع معه حسنة، ولا يمكن أن يجتمع معه إيمان ينفع، كما في الحديث: «لا يجتمع إيمان وكفر في قلب امرئ».

لأن اجتماعهما يستلزم اجتماع الأضداد، الشيء وما ينافيه في آنٍ معاً، وهذا من المستحيل أن يقع، وبالتالي فإن الحديث يخرج عن كونه دليلا على عدم كفر تارك الصلاة.

ثانيا: إن شهادة التوحيد التي نفعت صاحب تلك الذنوب الكثيرة، أو غيره من أصحاب الذنوب والمعاصي، هي الشهادة التي تتحقق فيها شروط الصحة، التي من دونها لا تنفع صاحبها مهما أكثر من ترداده على لسانه.

نجمل ذكر هذه الشروط في النقاط التالية:

1- شرط النطق: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمداً رسول الله، ويقيموا الصلاة، ويؤتوا الزكاة، فإذا فعلوا ذلك عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحق الإسلام وحسابُهم على الله» متفق عليه.

قال النووي: فيه أن الإيمان شرطه الإقرار بالشهادتين مع اعتقادهما واعتقاد جميع ما أتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم.(21).

وقال ابن تيميةرحمه الله: الشهادتان إذا لم يتكلم بهما مع القدرة فهو كافر باتفاق المسلمين، وهو كافر باطنا وظاهرا عند سلف الأمة وأئمتها وجماهير علمائها(22).

2- شرط الكفر بالطاغوت: والطاغوت كل ما عبد من دون الله -ولو في مجال من مجالات العبادة- وهو راضٍ. قال تعالى: (فمن يكفر بالطاغوت ويؤمن بالله فقد استمسك بالعروة الوثقى لا انفصام لها والله سميع عليم) [البقرة 256] والعروة الوثقى هي: لا إله إلا الله.

---

(21) النووي على مسلم 212/1.

(22) مجموع الفتاوى 609/7.

مفهوم المخالفة الذي دل عليه منطوق النصوص الشرعية، أن من آمن بالله لكنه لم يكفر بالطاغوت لا يكون قد استمسك بالعروة الوثقى، ولا شهد أن لا إله إلا الله الشهادة التي تنفعه أو تنجيه.

وهذا يوضحه قوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه مسلم: «من قال لا إله إلا الله وكفر بما يعبد من دون الله حرم ماله ودمه وحسابه على الله».

قال الشيخ محمد بن عبد الوهاب: فقوله «كفر بما يعبد من دون الله» تأكيد للنفي، فلا يكون معصوم الدم والمال إلا بذلك، فلو شك أو تردد لم يعصم دمه وماله(23).

قلت: مثل من يشهد أن لا إله إلا الله ثم لم يسبق ذلك بالكفر بالطواغيت، كمن يقول بالشيء وبضده في آن معاً، وبالتوحيد والشرك..!

3- شرط العلم: لقوله تعالى: (فاعلم أنه لا إله إلا الله) [محمد 19]. ولقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه مسلم: «من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة».

مفهوم الحديث أن من مات وهو لا يعلم أنه لا إله إلا الله لا يدخل الجنة، لأن الجهل بالشيء من لوازمه عدم اعتقاده في القلب، وعدم اعتقاد التوحيد كفر بلا خلاف.

4- شرط الصدق والإخلاص: لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه البخاري: «ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله صدقا من قلبه إلا حرّمه الله على النار».

ولقوله صلى الله عليه وسلم: «أبشروا وبشروا من وراءكم، أنه من شهد أن لا إله

---

(23) مجموعة التوحيد ص35.

إلا الله صادقا بها دخل الجنة».

مفهوم الحديث أن من يشهد أن لا إله إلا الله كذباً ونفاقاً لا صدقاً، فهو من أهل النار، ولا يدخل الجنة.

5- شرط انتفاء الشك: قال تعالى: (وقالوا إنا كفرنا بما أرسلتم به وإنا لفي شك مما تدعوننا إليه مريب. قالت رسلهم أفي الله شكٌ فاطر السماوات والأرض) [إبراهيم 9-10]

ولقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه مسلم: «أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة».

مفهوم الحديث أن من لقي الله بشهادتي التوحيد وهو شاك فيهما أو بشيء من مقتضياتهما لا يدخل الجنة.

6- شرط حصول اليقين: لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه مسلم: «من يشهد أن لا إله إلا الله مستيقناً بها قلبه فبشره بالجنة».

مفهوم الحديث أن من يشهد أن لا إله إلا الله وهو غير مستيقن بها وبمدلولاتها ومتطلباتها لا يبشر بالجنة، ولا يكون من أهلها.

٧- شرط المحبة المنافي لأدنى درجات الكره لما أنزل الله: قال تعالى: (ومن الناس من يتخذون من دون الله أنداداً يحبونهم كحب الله والذين آمنوا أشد حباً لله) [البقرة 165].

وقال تعالى: (قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فتربصوا حتى يأتي الله بأمره والله لا يهدي القوم الفاسقين) [التوبة 24].

وقال تعالى: (والذين كفروا فتعسا لهم وأضل أعمالهم. ذلك بأنهم كرهوا ما أنزل الله فأحبط أعمالهم) [محمد 8-9].

فعلل كفرهم وحبوط أعمالهم بأنهم كرهوا ما أنزل الله، وأعظم ما أنزل الله شهادة التوحيد أن لا إله إلا الله، فمن كرهها أو عاداها، أو عادى أهلها ووالى أعداءها فهو من الكافرين الذين كرهوا ما أنزل الله.

ونحوه قوله تعالى: ونادوا يا مالك ليقض علينا ربك قال إنكم ماكثون لقد جئناكم بالحق ولكن أكثركم للحق كارهون) [الزخرف 78]. فعلل سبب مكثهم في نار جهنم بأنهم كانوا للحق الذي أنزله الله كارهين.

8- شرط الرضى والتسليم والإنقياد التام: لقوله تعالى: (فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم ثم لا يجدوا في أنفسهم حرجاً مما قضيت ويسلموا تسليماً). [النساء 65].

وقوله تعالى: (يا أيها الذين آمنوا لا تقدموا بين يدي الله ورسوله واتقوا الله إن الله سميع عليم، يا أيها الذين آمنوا لا ترفعوا أصواتكم فوق صوت النبي ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون) [الحجرات 1-2].

وقوله تعالى: (وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم)[الأحزاب 36]. وقوله تعالى: (فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم)[النور 63].

وقد فسر الإمام أحمد وغيره من أهل العلم الفتنة بالشرك، قال تعالى: (والفتنة أكبر من القتل) أي الشرك والكفر.

ومنه يعلم أن من يتلفظ بشهادة أن لا إله إلا الله لكنه لا يرضاها منهجا لحياته، ولا يسلم وينقاد لها ولمعانيها، ولا يحتكم إليها فهو ليس ممن يشهدون أن لا إله إلا

الله الشهادة التي تنفعهم يوم القيامة.

9- شرط العمل بها وبلوازمها ومتطلباتها: فيعمل بالتوحيد، ويجتنب الشرك في الظاهر والباطن، وهو المراد من قوله تعالى: (وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين حنفاء ويقيموا الصلاة ويؤتوا الزكاة وذلك دين القيمة) البينة: ٥. وقوله تعالى: (وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون) [الذاريات 56].

فمن أبطل العمل بالتوحيد كشرط لصحته، فقد أبطل الغاية التي لأجلها خلق الله الخلق، وأنزل الكتب، وأرسل الرسل، قال تعالى: (وما أرسلنا من قبلك من رسول إلا نوحي إليه أنه لا إله إلا أنا فاعبدون) [الأنبياء 25]. وقال تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) [النحل36]. وعليه فإننا نقول: من اكتفى بمجرد النطق بشهادة التوحيد من دون عمل بمضمونها ومتطلباتها، ثم هو في واقع حياته لم يعبد الله قط، لا في صلاة، ولا صوم، ولا زكاة، ولا حج، ولا في شيء مما يتقرب به إلى الله، وفي المقابل لم يجتنب عبادة الطواغيت وموالاتها، فهو كافر مشرك، ومناقض ومكذب لشهادة أن لا إله إلا الله التي يتلفظ بها.

وقد تقدم قول الشيخ محمد بن عبد الوهاب: لا خلاف أن التوحيد لا بد أن يكون بالقلب واللسان والعمل، فإن اختلف شيء من هذا لم يكن الرجل مسلماً فإن عرف التوحيد ولم يعمل به فهو كافر معاند كفرعون وإبليس وأمثالهما.

10- شرط الموافاة عليها: لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه مسلم: «ما من عبد قال لا إله إلا الله ثم مات على ذلك إلا دخل الجنة».

مفهوم الحديث أن من قال لا إله إلا الله، لكنه لم يمت عليها، ومات وهو على ضدها من الشرك لا يدخل الجنة، ولا يكون من أهلها. ولأن النصوص الشرعية قد دلت على أن العبرة بالخواتيم، وبما يختم به على المرء.

قال تعالى: (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [البقرة 217].

وعليه فإننا نقول: من قال لا إله إلا الله وكفر بما يُعبد من دون الله، وكان عالماً بشهادة التوحيد ومتطلباتها، وصادقاً مخلصاً بها، ومستيقنا غير شاك فيها، ومحبا لها ولأهلها، وعاملاً بها وبمقتضياتها، ثم بعد كل ذلك مات عليها، إلا أدخله الله الجنة، هذا ما يقتضيه التوفيق ومبدأ الأخذ بجميع النصوص ذات العلاقة بالمسألة.

أما إعمال نص بمفرده مع إهمال بقية النصوص الأخرى ذات العلاقة بالمسألة، فهذا خلق لا يقدم عليه إلا اللصوص، لا أقول لصوص الدرهم والدينار –فهؤلاء أمرهم أهون– وإنما لصوص العلم والدين.

وبالتالي فإن شهادة التوحيد، التي نفعت ذلك الرجل ورجحت على جميع سجلاته المليئة بالذنوب والمعاصي، هي الشهادة التي يتحقق فيها الشروط العشرة الآنفة الذكر، والتي إذا اختل منها شرط واحد فإن حركة اللسان بشهادة التوحيد لم تعد تنفعه في شيء، فتنبه لهذا –يا هذا– ولا يغرنك ما يقوله لك مشايخ التجهم والإرجاء، مشايخ السوء والضلال، فتخسر دينك وآخرتك.

5- إطلاق الشريعة على بعض الأعمال حكم الكفر:

من الأدلة التي يعتمدونها على عدم كفر تارك الصلاة، قولهم أن الشريعة أطلقت على كثير من الأعمال حكم الكفر، وأريد به كفر النعمة، أو الكفر الأصغر، أو الكفر دون الكفر، وترك الصلاة عمل، وهو من تلك الأعمال التي حكم الشارع عليها بالكفر وأراد به كفر النعمة، أو الكفر دون كفر..

أجيب على هذا القول بنقطتين:

أولاً: ليس كل عمل ليس كفرا لكونه عملاً، فإن كثيرا من الأعمال أطلق عليها الشارع حكم الكفر الأكبر، وإن جاءت مجردة عن الإعتقاد أو الإستحلال القلبي،

منها شتم الله والدين، أو الإستهزاء بالدين أو بشيء من فرائضه وواجباته وأحكامه، ومنها السجود للصنم، أو التوجه للمخلوق بأي نوع من أنواع العبادة كالركوع، والدعاء، والإستغاثة، النذر وغيرها، ومنها موالاة الكافرين ومظاهرتهم على المسلمين، ومنها الجلوس في مجالس الكفر والشرك من غير إنكار أو إكراه، ومنها معاداة المسلمين وقتالهم والعمل على صدهم عن دينهم، ومنها قتل الأنبياء والرسل أو قتالهم، أو شتمهم، أو الطعن بهم، أو خصهم بأي نوع من أنواع الأذى والطعن، ومنها الصد عن حكم الله وإرادة التحاكم إلى الطاغوت، ومنها سن التشريعات والقوانين المضاهية لشرع الله، ومنها تزيين الكفر والشرك وتحسينه في أعين الناس، ومنها العمل بالسحر، ومنها ترك الصلاة وهي مسألتنا هذه..

فهذه الأعمال كلها كفر لذاتها، وإن جاءت مجردة عن الإعتقاد أو الإستحلال، وصاحبها يكفر على أي وجه يمارسها (24) ولولا خشية الإطالة والخروج عن الموضوع لذكرنا الأدلة مفصلة الدالة على كفر هذه الأعمال كفرا أكبر(25).

ثانيا: إن الأحكام الشرعية -ومنها الكفر- الواردة في الكتاب والسنة لا يجوز صرفها عن مدلولها الشرعي الظاهر إلى مدلول آخر، إلا بدليل أو قرينة شرعية توجب وتفيد هذا الصرف والتأويل، ومن دون هذا الضابط تضيع الأحكام، ونفتح باباً للتأويل -تمر فيه تأويلات الزنادقة وأهل الأهواء- لا يمكن إغلاقه.

لذا أقول: إذا أطلق الشارع على فعل معين حكم الكفر فالأصل أن يحمل هذا الكفر على ظاهره ومدلولاته الشرعية، وهو الكفر المناقض للإيمان الذي يوجب لصاحبه الخلود في نار جهنم، ولا يجوز صرف هذا الكفر عن ظاهره ومدلوله إلى

---

(24) سواء مارسها على وجه الإعراض والتولي، أو العناد والكبر، أو الإستحلال والجحود، أو الكره والبغض، أو الإستهزاء والطعن، أو إيثار الدنيا وزينتها وزخرفها، أو سياسة كما يقولون فكل هذه الأوجه تكفّر، ولا تبرر ممارسة الكفر، كما لا تمنع من لحوق الوعيد والكفر بصاحبها.

(25) انظر إن شئت كتابنا «قواعد في التكفير» القاعدة الخامسة.

كفر النعمة أو الكفر الأصغر الرديف للمعصية أو الذنب الذي لا يستوجب الخلود في نار جهنم إلا بدليل شرعي آخر يفيد هذا الصرف والتأويل، وفي حال انعدام الدليل الصارف يتعين الوقوف على الحكم بمدلوله ومعناه الأول.

ولما انعدم الدليل الشرعي الذي يلزمنا بصرف الكفر عن تارك الصلاة إلى الكفر دون كفر، أو إلى الكفر العملي الأصغر، تعين علينا القول بكفر تارك الصلاة كفرا أكبر مخرجا عن الملة.

6- حديث: إن للإسلام صوى:

الحديث الذي رواه أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «إن للإسلام صوىً ومنارا كمنار الطريق، منها أن تؤمن بالله ولا تشرك به شيئا، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وحج البيت، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وأن تسلم على أهلك إذا دخلت عليهم، وأن تسلم على القوم إذا مررت لهم فمن ترك من ذلك شيئا، فقد ترك سهما من الإسلام، ومن تركهن كلهن، فقد ولى الإسلام ظهره»(27).

قالوا: هذا دليل على أن تارك الصلاة ليس كافراً، إذا لو كان كافراً لفقد الإسلام كله وليس سهماً منه وحسب..

أقول: الحديث ليس فيه دليل أو أدنى إشارة على عدم كفر تارك الصلاة، وإليك بيان ذلك:

أولا: قوله صلى الله عليه وسلم «فمن ترك من ذلك شيئاً» لا يشمل جميع ما تقدم ذكره من أركان ومنارات وشرائع، بدلالة نصوص أخرى عديدة تفيد أن من ترك الإيمان بالله يقع في الكفر البواح وليس فقط يكون قد ترك سهما من الإسلام.

---

(27) الصحيحة 333، وانظر رسالة حكم تارك الصلاة للشيخ الألباني ص66.

وكذلك لمّا دلت نصوص أخرى عديدة تفيد كفر تارك الصلاة، علمنا بالضرورة أن الصلاة مستثناة -كالإيمان بالله- من قوله صلى الله عليه وسلم: «فمن ترك ذلك شيئا فقد ترك سهما من الإسلام»، وبالتالي فقد بطل تعلق المخالفين بهذه العبارة من الحديث، والله أعلم.

ثانيا: لما علمنا بالضرورة من ديننا أن ترك الإيمان بالله تعالى كفر أكبر بمفرده وبذاته، أدركنا أن المراد من قوله صلى الله عليه وسلم «ومن تركهن كلهن فقد ولي الإسلام ظهره» هو بقية الشرائع والمنارات -غير الإيمان بالله- المذكور في الحديث. وبها -بذاته- دليل على كفر تارك الصلاة، أو من ينتفي عنه جنس العمل بجميع الأركان والشرائع العملية المذكورة في الحديث، وهو بخلاف ما أراد تقريره مشايخ الإرجاء والتجهم.

ثالثا: قد دلت النصوص الشرعية الصحيحة -وقد تقدم ذكرها- أن من ترك الصلاة فقد فقدَ دينه كله، وجعله وراء ظهره، ولم يبق عنده من الإسلام شيء، وهذا نفس الحكم الوارد في الحديث فيمن يترك جنس العمل بالأركان والشرائع العملية الواردة في الحديث، وهذا دليل آخر على كفر تارك الصلاة.

فدل على أن الحديث ليس لهم فيه أدنى تمسك ينتصرون به لمذهبهم، بل هو شاهد لنا عليهم، والحمد لله الذي تتم بفضله الطيبات الصالحات.

وبمناقشة استدلالهم بهذا الحديث نكون قد انتهينا من مناقشة أدلة المخالفين في المسألة، وقد علم القارئ أن القول بعدم كفر تارك الصلاة هو قول مرجوح، لا يسنده دليل صريح صحيح من الكتاب والسنة.

قال الشيخ ابن عثيمين: وقد تأملت الأدلة التي استدل بها من يقول أنه لا يكفر، فوجدتها لا تخرج عن أحوال أربعة:

1- إما أنها لا دليل فيها أصلاً.

2- أو أنها قيدت بوصف يمتنع معه ترك الصلاة.

3- أو أنها قيدت بحال يعذر فيها من ترك هذه الصلاة.

4- أو أنها عامة فتخصص بأحاديث كفر تارك الصلاة.

وقال: ليس في النصوص أن تارك الصلاة مؤمن، أو أنه يدخل الجنة، أو ينجو من النار ونحو ذلك مما يحوجنا إلى تأويل الكفر الذي حكم به على تارك الصلاة بأنه كفر نعمة، أو كفر دون كفر (28).

5- معاملة تارك الصلاة:

بعد أن بينا بالأدلة من الكتاب والسنة، وأقوال علماء الأمة أن تارك الصلاة كافر مرتد، لا بد للمسلمين أن يعرفوا خطورة هذا الحكم، وتبعاته على صاحبه ومن حوله ممن يتعاملون معه، ليدركوا الواجب عليهم نحو تارك الصلاة، وما ينبغي عليهم القيام به، وكيف تكون علاقتهم به، وكيف يتعاملون معه..

والإجابة على هذه المسألة نجملها في النقاط التالية:

1- تارك الصلاة، كافر مرتد، حكمه القتل، لقوله صلى الله عليه وسلم: «من بدل دينه فاقتلوه»، سواء كان المرتد عن دينه ذكراً أو أنثى، والسنة في تارك الصلاة أنه يستتاب، فإن تاب وأقام الصلاة وإلا قتل كفراً.

2- يحرم نكاحه من المسلمة، فلا يعقد له قران، فإن كان متزوجا فسخ العقد

(28) من رسالة حكم تارك الصلاة لابن عثيمين.

وفُرق بينهما، لأن الكافر لا يجوز أن يُقَرّ على زواجه من المسلمة، كما قال تعالى: (لا هنّ حلّ لهم ولا هم يحلون لهنّ) [الممتحنة 10].

كما لا يجوز أن يُقَرّ على الزواج من مشركة -كتابية- لأن دمه هدر.

ومنه يُعلم تفريط المسليمن الكبير في هذا الجانب -في هذا الزمان- حيث نجد أن الآباء لا يبالون أن يزوجوا بناتهم ومن تحت أيديهم من النساء، من أناس لا يصلون، ولا يعرفون الطهارة، فالمهم عندهم أن يكون الرجل صاحب مال ومن ذوي الجاه والمراكز، وقد فاتهم أنهم بذلك قد ألقوا بناتهم إلى مشرك نجس لا تحل له، ولا يحل لها.. قال تعالى: (إنما المشركون نجس)، فكيف يا هذا يهون عليك أن تلقي ابنتك إلى أحضان مشرك نجس..؟!

3- يحرم عليه دخول المساجد، وبخاصة الحرم المكي، لقوله تعالى: (إنما المشركون نجس فلا يقربوا المسجد الحرام بعد عامهم هذا) التوبة: ٢٨. ولقوله تعالى: (ما كان للمشركين أن يعمروا مساجد الله شاهدين على أنفسهم بالكفر) [التوبة 17]. ولقوله تعالى: (إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر) [التوبة 18].

ومن هوان المسلمين -في هذا الزمان- أننا نجد مساجدهم وبخاصة القديم منها -مرتعا للسواح الكفار ومن الذكور والإناث، ومن دون أدنى حشمة أو حياء.. المهم عند القوم -كما زعموا- ما يدره السواح على البلد من دولارات، وعملات أجنبية، لا أشبعهم الله ولا أغناهم، أما ما يدره هؤلاء السواح الكفرة من أمراض، وفساد، وتفسخ للأخلاق فليس مهماً..؟!

4- يفقد تارك الصلاة ولايته على أبنائه وبناته، فلا يجوز له أن يتولى تزويج بناته وأبنائه، لأنه لا ولاية لكافر على مسلم، كما قال تعالى: (ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلاً) [النساء 141].

وقال ابن عباس: لا نكاح إلا بولي مرشد، وأعظم الرشد وأعلاه دين الإسلام، وأسفه السفه وأدناه الكفر والردة عن الإسلام، قال الله تعالى: (ومن يرغب عن ملة ابراهيم إلا من سفه نفسه) (29).

5- لا يرث المسلم ولا يورثه، لأنه لا توارث بين أهل الإيمان وأهل الكفر، لقوله صلى الله عليه وسلم في الحديث الذي أخرجه مسلم: «لا يرث المسلم الكافر ولا يرث الكافر المسلم».

وفي انتقال ميراثه لأبنائه من المسلمين تفصيل وخلاف، فقد نقل عن علي -رضي الله عنه- أنه دفع ميراثه إلى ولده من المسلمين، ومثله عن ابن مسعود (30) والله تعالى أعلم.

6- تارك الصلاة لا تؤكل ذبيحته، فذبائحه حرام، لأن من شروط صحة الذبح أن يكون الذابح مسلما أو كتابيا، قال الخازن في تفسيره: أجمعوا على تحريم ذبائح المجوس وسائر أهل الشرك من مشركي العرب وعبدة الأصنام ومن لا كتاب له.

وقال الإمام أحمد : لا أعلم أحدا قال بخلافه إلا أن يكون صاحب بدعة (31).

7- وهو إن مات -على تركه للصلاة- لا يغسل، ولا يكفن، ولا يُصلي عليه، ولا يُدعى له بالرحمة والمغفرة، ولا يقبر في مقابر المسلمين، وإنما يواري كما توارى الجيف والكلاب عند النتن، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لعلي بن أبي طالب عندما مات أبو طالب: «اذهب فواره» ثم أمره بالإغتسال(32).

ومنه يعلم تفريط كثير من المسلمين في هذه المسائل -بفعل سموم الفكر

---

(29) السابق.

(30) انظر فقه السنة 412/2.

(31) عن رسالة حكم تارك الصلاة لابن عثيمين.

(32) انظر صحيح سنن أبي داود (2753).

الإرجائي المنتشر- حيث تجدهم لا يميزون بين المرتد وغيره، حيث لا يوجد عندهم ميت لا تجوز الصلاة عليه، بل لمجرد أن الميت ينتسب لأبوين مسلمين أو اسمه إسم إسلامي فهذا كاف لأن يصلوا عليه، وأن يقبروه في مقابر المسلمين، وأن يجروا له بقية مراسم الدفن الشرعية المعروفة، وإن كان في حياته عدواً للإسلام والمسلمين، شتاماً للرب والدين، لا يعرف صلاة، ولا صوما، ولا شيئاً من أركان الإسلام..!!

8- ثم هو في الآخرة فمصيره إلى العذاب الشديد، إلى جهنم وبئس المصير، خالدا فيها أبدا، كما قال تعالى: (ومن يرتدد منكم عن دينه فيمت وهو كافر فأولئك حبطت أعمالهم في الدنيا والآخرة وأولئك أصحاب النار هم فيها خالدون) [البقرة 217].

9- ما تقدم -وبخاصة أننا في زمان غياب تطبيق الحدود الشرعية- لا يمنع من نصحه وتعليمه، وتحذيره من مغبة وتبعات الكفر الذي هو عليه، إن وُجد أن النصح ينفعه، أو يلقي له سمعاً، أما إن أصر على ترك الصلاة، وأبى وعاند وكابر، وجب هجره واعتزاله وتحذير الناس منه ومن صحبته، ومن معاملته، ولا تجوز مجالسته ولا مؤاكلته، عساه يشعر بعظم الذنب الذي هو عليه فيندرع ويتوب.

قال تعالى: (لُعنَ الذين كفروا من بني اسرائيل على لسان داودَ وعيسى ابن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون) [المائدة78-79].

روى الطبري (12308) -في تفسير الآية- بسنده عن ابن مسعود قال، قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إن بني اسرائيل لما ظهر منهم المنكر، جعل الرجل يرى أخاه وجاره وصاحبه على المنكر، فينهاه، ثم لا يمنعه ذلك من أن يكون أكيله وشريبه ونديمه، فضرب الله قلوب بعضهم على بعض، ولعنوا على لسان داود وعيسى ابن مريم، قال عبد الله: وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم متكئاً فاستوى جالساً، فغضب وقال: لا والله، حتى تأخذوا على يدَي الظالم فتأطروه على

الحق أطراً» وفي رواية قال: «والذي نفسي بيده لتأمرنّ بالمعروف، ولتنهونّ عن المنكر، ولتأخذنّ على يدي المسيء، ولتؤطرنه على الحق أطراً، أو ليضربنّ الله قلوب بعضكم على بعض، وليلعننكم كما لعنهم» [والحديث مروي بطرق عدة يقوي بعضها بعضا].

هذا ما أردت ذكره في هذا المبحث الموجز الهام، راجياً أن أكون قد وفقت في الإجابة على ما يدور في خلد القارئ الحريص على دينه من مسائل وتساؤلات حول المسألة.

كما أرجو من الله تعالى أن يبارك في هذه الرسالة، ويجعلها سببا لهداية الراشدين التاركين للصلاة.. إنه تعالى سميع قريب مجيب.

وصلى الله على محمد النبي الأمي وعلى آله وصحبه وسلم

عن أنس رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال:

"ثلاث من كُنَّ فيه وجد حلاوة الإيمان، أن يكون اللهُ ورسوله أحبّ إليه ممّا سواهما، وأن يحبّ المرء لا يحبّه إلاّ لله، وأن يكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يُقذف في النار".

[متفق عليه واللفظ لمسلم]

سلسلة:
الذب الأحمد
عن شريعة أحمد ﷺ

بغية القاصد في بيان قواعد المصالح والمفاسد (5)

أبو الوليد الأنصاري
خالد بن فتحي الآغا

الثالثة من صور المخالفة للشرع في باب المصالح والمفاسد:
مكايد إبليس للعباد في القيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

ولنبدأ أولا بذكر منزلة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من الدين فنقول وبالله التوفيق:

اعلم أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من أعظم أركان الشريعة القويمة وآكد فرائضها حتى جعل ربنا تبارك وتعالى مدار بعثة نبينا صلى الله عليه وسلم عليه كما قال عز وجل: (الذين يتبعون النبي الأمي الذي يجدونه مكتوبا عندهم في التوراة والإنجيل يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر... الآية) [الأعراف 163]. قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: وقوله سبحانه في صفة نبينا صلى الله عليه وسلم (يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ويحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث) هو بيان لكمال رسالته فإنه صلى الله عليه وسلم هو الذي أمر على لسانه

بكل معروف، ونهى عن كل منكر وأحل كل طيِّب وحرم كلّ خبيث(1).

قلت: جملة (يأمرهم...) يحتمل أن يراد بها ابتداء وصف الله تعالى النبي صلى الله عليه وسلم كأنه قيل الآمر بالمعروف والناهي عن المنكر، ويحتمل أن يكون متعلقا بـ(يجدونه)فيكون في موضع الحال على سبيل التجوّز، وقيل هو في محل نصب حال من الرسول، وقيل هو مفسر لـ(مكتوبا) في قوله (مكتوبا عندهم)، وإنما أتى بالجملة بلفظ الفعل لأن لفظ الفعل يفيد التجدد والإستمرار والإعتناء ساعة فساعة في كل حين وآن، فكأن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فعل متجدد مستمر لا ينتهي ولا يتوقف، وذلك على نحو قوله تعالى: (إن الله فالق الحب والنوى يخرج الحي من الميِّت ومخرج الميِّت من الحي) [الأنعام 95]، فذكر إخراج الحي من الميت بصيغة الفعل لكونه أظهر في القدرة فأتى بلفظ الفعل ليدل على أن الفاعل معتن بالفعل في كل وقت وحين، ومثل ذلك ما ذكره الجرجاني في دلائل الإعجاز في قوله سبحانه: (هل من خالق غير الله يرزقكم من السماء) فقد ذكر فيه الرزق بلفظ الفعل لأنه يفيد أنه تعالى يرزقهم حالا فحالا وساعة فساعة.

وكما نعته تعالى بذلك نعت به أمته أيضا فقال سبحانه: (كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله) [آل عمران 110] ونحوه قوله تعالى: (ولتكن منكم أمة يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) [آل عمران 104] وقال تعالى: (والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض يأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة ويطيعون الله ورسوله أولئك سيرحمهم الله إن الله عزيز حكيم) [التوبة 71] وقال تعالى: (ليسوا سواءً من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون ءايات الله ءاناء الليل وهم يسجدون * يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين) [آل عمران 113-114]. فأتى في جميع ذلك بلفظ

---

(1) مجموع الفتاوى 121/28.

الفعل ليدل على أن هذه الفريضة متجددة مستمرة تعتني بها الأمة في كل آن وحين وأنها من أعظم أوصافها وبها كانت خير أمة أخرجت للناس.

قال الشوكاني رحمه في فيض القدير الله تعالى: قوله (خير أمة أخرجت للناس) أي أظهرت لهم، وقوله (تأمرون بالمعروف الخ) كلام مستأنف يتضمن بيان كونهم خير أمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به فإذا تركوا الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر زال عنهم ذلك، ولهذا قال مجاهد إنهم خير أمة على الشرائط المذكورة في الآية، وهذا يقتضي أن يكون تأمرون وما بعده في محل نصب على الحال أي كنتم خير أمة حال كونكم آمرين ناهين مؤمنين بالله وبما يجب عليكم الإيمان به من كتابه ورسوله وما شرعه لعباده، فإنه لا يتم الإيمان بالله سبحانه إلا بالإيمان بهذه الأمور. اهـ

ولما كان هذا الباب من أعظم الأبواب التي يحفظ بها الدين وتنصر بها الشريعة غلّظ سبحانه في شأن تركه والتهاون فيه كما قال تعالى: (لعن الذين كفروا من بني إسرائيل على لسان داود وعيسى بن مريم ذلك بما عصوا وكانوا يعتدون * كانوا لا يتناهون عن منكر فعلوه لبئس ما كانوا يفعلون * ترى كثيرا منهم يتولون الذين كفروا لبئس ما قدمت لهم أنفسهم أن سخط الله عليهم وفي العذاب هم خالدون) [المائدة 78-80].

فجعل تركه مجلبة للعنة الله وسخطه، نعوذ بالله من ذلك، كما جعل الإعراض عنه علامة من علامات أهل النفاق فقال تعالى: (المنافقون والمنافقات بعضهم من بعض يأمرون بالمنكر وينهون عن المعروف ويقبضون أيديهم نسوا الله فنسيهم إن المنافقين هم الفاسقون) [التوبة 67]

وفي صحيح مسلم والسنن ومسند الإمام أحمد مرفوعا من حديث أبي سعيد الخدري رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم قال: «من رأى منكم منكرا فليغيِّره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان».

وفي المسند من حديث حذيفة رضي الله عنه أنّ النبي صلى الله عليه وسلم قال: «والذي نفسي بيده لتأمرن بالمعروف ولتنهونّ عن المنكر أو ليوشكن الله أن يبعث عليكم عقابا من عنده ثم لتدعنّه فلا يستجيب لكم».

وروى مسلم في صحيحه من حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: «ما من نبي بعثه الله في أمة قبلي إلا كان له من أمته حواريون وأصحاب يأخذون بسنته ويقتدون بأمره، ثم إنها تخلف من بعدهم خلوف يقولون ما لا يفعلون ويفعلون ما لا يؤمرون، فمن جاهدهم بيده فهو مؤمن ومن جاهدهم بلسانه فهو مؤمن ومن جاهدهم بقلبه فهو مؤمن وليس وراء ذلك من الإيمان حبة خردل».

فهذه الأحاديث -وغيرها كثير- تدل على محلّ هذه الفريضة من الدين ولذا كانت مقررة عند الصحابة رضي الله عنهم، وتأمّل ما رواه البخاري ومسلم في صحيحيهما من حديث أنس بن مالك رضي الله عنه، واللفظ للبخاري، قال جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد، فزجره الناس، فنهاهم النبي صلى الله عليه وسلم، فلما قضى بوله أمر النبي صلى الله عليه وسلم بذَنُوبٍ من ماء فأهريق عليه.

فقد قال الحافظ بن حجر رحمه الله تعالى في شرحه: "وفي الحديث من الفوائد: أن الإحتراز من النجاسة كان مقررا في نفوس الصحابة رضي الله عنهم ولهذا بادروا إلى الإنكار بحضرته صلى الله عليه وسلم قبل استئذانه، ولما تقرر عندهم أيضا من طلب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر."(2).

وقال الصنعاني رحمه الله تعالى في شرح البلوغ: "ولأن الصحابة لما تبادروا إلى الإنكار أقرّهم صلى الله عليه وسلم وإنما أمرهم بالرفق كما في رواية للجماعة إلا مسلما أنه قال: «إنما بعثتم ميسّرين ولم تبعثوا معسّرين» ولو كان الإنكار غير

---

(2) فتح الباري 324/1، والشاهد قوله: ولهذا بادروا ...الخ.

جائز لقال لهم: إنه لم يأت الأعرابي ما يوجب نهيكم له."(3).

قلت: ومما يدل على استقرار ذلك في نفوس أصحاب نبينا صلى الله عليه وسلم أحاديث منها قصة الغلامين من الأنصار يوم بدر مع عبد الرحمن بن عوف، وقول كل واحد منها له: ياعمّ أتعرف أبا جهل..؟ قلت: نعم، ما حاجتك إليه يا ابن أخي..؟ قال: أخبرت أنه يسبّ رسول الله صلى الله عليه وسلم، والذي نفسي بيده لئن رأيته لا يفارق سوادي سواده حتى يموت الأعجل منّا.. الحديث. فتأمّل ذلك..!

ومنها ما في الصحيحين من حديث سعد بن أبي وقّاص رضي الله عنه في استئذان عمر رضي الله عنه على رسول الله صلى الله عليه وسلم وعنده نساءٌ من قريش يكلّمنه ويستكثرن عالية أصواتهنّ، فلما رأين عمرَ بادرن الحجاب، فأنكر عليهن رضي الله عنه وقال: أي عدوّات أنفسهنّ! أتهبنني ولا تهبن رسول الله... الحديث. والشاهد فيه مبادرته بالإنكار عليهنّ.

ومنها حديث ابن عمر في الصحيحين كذلك لما توفي رأس النفاق ابن سلول وقام رسول الله صلى الله عليه وسلم ليصلي عليه، فقام عمر فأخذ بثوب رسول الله صلى الله عليه وسلم، فقال: يا رسول الله، تصلي عليه وقد نهاك ربك أن تصلي عليه؟! فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «إنما خيّرني الله فقال: (استغفر لهم أو لا تستغفر لهم، إن تستغفر لهم سبعين مرة) وسأزيد على السبعين» قال: إنه منافق..! قال: فصلى عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم، فأنزل الله: (ولا تصلِّ على أحدٍ منهم مات أبدا ولا تقم على قبره). والشاهد فيه استنكار عمر رضي الله عنه إرادة الصلاة على عبد الله بن أبي لما عُرف به من شدة صلابته في الدين وبغضه الكفار والمنافقين، ولم ينكر عليه رسول الله صلى الله عليه وسلم صنيعه ذلك.

ومنها قول عمر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم في شأن حاطب

---

(3) سبل السلام 32/1.

بن أبي بلتعة رضي الله عنه: يا رسول الله، دعني أضرب رأس هذا المنافق..! مع ما كان لحاطب رضي الله عنه من الفضل كشهود بدر وغيره، والحديث رواه الشيخان وأحمد في المسند من حديث علي رضي الله عنه.

وجملة القول أن هذا الباب من أعظم أبواب الدين وأجلّها مقاما وأرفعها منزلة.قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى:"والأمر بالمعروف وهو الحق الذي بعث الله به رسوله، والنهي عن المنكر وهو ما خالف ذلك من أنواع البدع والفجور، بل هو من أعظم الواجبات، وأفضل الطاعات، بل هو طريق أئمة الدين، ومشايخ الدين، نقتدي بهم فيه، قال الله تعالى:(ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر وأولئك هم المفلحون) وهذه الآية بها استدل المستدلون على أن شيوخ الدين، يقتدى بهم في الدين، فمن لم يأمر بالمعروف وينه عن المنكر لم يكن من شيوخ الدين ولا ممن يقتدى بهم"(4).

وقال رحمه الله تعالى في رسالته السالفة الذكر: "وكل بشر على وجه الأرض فلا بد له من أمر ونهي، ولا بد أن يأمر وينهى، حتى لو أنه وحده لكان يأمر نفسه وينهاها إما بمعروف وإما بمنكر، كما قال تعالى: (إن النفس لأمّارة بالسوء)، فإن الأمر هو طلب الفعل وإرادته، والنهي طلب الترك وإرادته، ولا بد لكل حي من إرادة وطلب في نفسه يقتضي بهما فعل نفسه، ويقتضي بهما فعل غيره إذا أمكن ذلك، فإن الإنسان حي يتحرك بإرادته، وبنو آدم لا يعيشون إلا باجتماع بعضهم مع بعض، وإذا اجتمع اثنان فصاعدا فلا بد أن يكون بينهما ائتمار بأمر وتناه عن أمر".

وفي رسائل أئمة الدعوة النجدية قال الشيخ العلامة عبد اللطيف بن عبد الرحمن في جوابه على بعض السائلين:- وكما ذكرتَ من طلب الفائدة بما ورد من

---

(4) مجموع الفتاوى 11/510.

النصوص الشرعية الدالة على وجوب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فهذا مما لا يخفى على آحاد العامة من المسلمين فضلا عن الطلبة والمتعلمين، وهذا الأصل من آكد الأصول الإسلامية وأوجبها وألزمها، وقد ألحقه بعضهم بالأركان، التي لا يقوم بناء الإسلام إلا عليها، وهو من فروض الكفاية لا يسقط عن المكلفين إلا إن قام به طائفة يحصل بها المقصود الشرعي، وفرض الكفاية آكد من فرض العين من جهة متعلّقه، لأن الخطاب به لجميع الأمة، وإنما أرسلت الرسل وأنزلت الكتب، للأمر بالمعروف الذي رأسه وأصله التوحيد، والنهي عن المنكر الذي رأسه وأصله الشرك، والعمل لغير الله ، وشرع الجهاد لذلك، وهو قدر زائد على مجرد الأمر والنهي، ولولا ذلك ما قام الإسلام ولا ظهر دين الله، ولا علت كلمته.(5).

والحاصل أن الأدلة من الكتاب والسنة ثم أقوال الثقات من أهل العلم قد تضافرت على تقرير هذا الأصل وبيان محلّه من الدين، ولو ذهبنا نتتبّع جميع ما ورد في ذلك لطال الفصل- وإنما ذكرت ما ذكرت ههنا لما رأيناه في زماننا وما رآه غيرنا من تضييع لهذه الفريضة وتهاون في القيام بها، وأحسن القوم حالا من يحتج على تركه بالباب الذي نحن بصدد الحديث عنه، أعني قواعد المصالح والمفاسد، فعُطّل باسم ذلك كلّه الدين، وظهر الشر والفساد في الأرض، وعاث المبطلون في الأرض فسادا، يحكمونها بغير شريعة الله فغيّرت منارات الأرض، واعتدي على الدين والنفس والعرض، وازدحمت سجون أعداء الدين بالصالحين من عباد الله وأوليائه، بل بالمؤمنات الطاهرات الصالحات القانتات، يجأرْنَ إلى الله وما من مجيب، وأبيحت ديار الإسلام لكلّ صليبي حاقد، وماكر خبيث فنهبوا خيراتها واستباحوا حرماتها، والقوم عن هذا كله في غفلة معرضون، وزعموا أن «مصلحة الديانة» في السكوت عن ذلك والصبر عليه وأن المفسدة في إنكاره وتغييره، والآمر بالمعروف والناهي عن المنكر في موازينهم مبتغ تفرقة أهل الإسلام ساع بالفتنة

(5) الدرر السنية في الأجوبة النجدية 67/8.

بينهم ولا حول ولا قوة إلا بالله.

واعلم أن تضييع هذا الأصل ليس حادثا في الأمة، بل قال النووي رحمه الله تعالى في شرح الصحيح: واعلم أن هذا الباب أعني باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر قد ضيّع أكثره من أزمان متطاولة ولم يبق منه في هذه الأزمان إلا رسوم قليلة جداً، وهو باب عظيم به قوام الأمر وملاكه وإذا كثر الخبث عمّ العقاب الصالحَ والطالحَ، وإذا لم يأخذوا على يد الظالم أوشك أن يعمّهم الله تعالى بعقابه فليحذر الذين يخالفون عن أمره أن تصيبهم فتنة أو يصيبهم عذاب أليم.(6).

أقول: وعلى مثل ذلك فلتبك البواكي، والنووي رحمه الله تعالى توفي في الرابع والعشرين من رجب سنة ست وسبعين وستمائة، والحال ما ذكر، فكيف به لو رأى ما آل إليه الحال في زماننا ونحن بعده بما يزيد عن سبعة قرون، وقد صار المعروف منكرا والمنكر معروفا، وصار السعي في تحصيل ملذات الدنيا وشهواتها باسم الدين ديدنا للناس ودينا، وإلى الله وحده الشكاية وإليه وحده بثُّ الهموم والأحزان، ولا حول ولا قوّة إلا بالله العلي العظيم.

تضييع هذا الأصل والخلط فيه بحجة تحصيل المصالح ودرء المفاسد:

وبيانه أن مراعاة ذلك في الأمر والنهي وإن كان مطلوبا للشارع مأمورا به لكن ما كلّ ما ادّعي أنه مصلحة فهو مصلحة في ذات الأمر أعني من جهة اعتبار الشارع له، وفي المقابل ما كلّ ما ادّعي أنه مفسدة فهو مفسدة في نفس الأمر، وإنّما المعتبر من ذلك ما اعتبره الشارع ولا مزيد، والقوم إنما دُخِل عليهم من هذا الباب فوقع بسبب ذلك فساد عظيم، وبيان ذلك من وجوه:

الوجه الأول:

---

(6) مسلم بشرح النووي 24/2/1.

أنهم جعلوا القيام بهذه الفريضة من تنفير الناس عن الدين وصدهم عنه، وهذه مفسدة بزعمهم، ورأوا في السكوت عن ذلك إقبال الناس ورضاهم وغشيانهم مجالسهم، وهذه مصلحة بزعمهم.

والجواب عن ذلك أن يقال: أن غالب ما يقع فيه الناس من المنكرات هو مما ألفته نفوسهم وورثوه عن آبائهم وأسلافهم، وهو لا محالة إمّا يوافق هوىً وإما يوافق شبهة، وهذا شأن النفوس أنّها تأنس بالعوائد الرديئة، خاصة وأن ذلك يوافق ما زيّن لها من حب الشهوات، وما جُبلت عليه من ميلها إليها، ولذا بيّن ربنا تبارك وتعالى أن هذا مما حصل بسببه الإعراض عن الدين تحذيرا من التهاون فيه والوقوع في مثله، فقال تعالى: (بل قالوا إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مهتدون * وكذلك ما أرسلنا من قبلك في قرية من نذير إلا قال مترفوها إنا وجدنا ءاباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) [الزخرف 22-23]، وحكى عن قوم إبراهيم أنهم قالوا له لما أنكر عليهم عبادة غير الله تعالى: (إذ قال لأبيه وقومه ما تعبدون * قالوا نعبد أصناما فنظل لها عاكفين * قال هل يسمعونكم إذ تدعون * أو ينفعونكم أو يضرّون * قالوا بل وجدنا ءاباءنا كذلك يفعلون) [الشعراء 70-74]، ومثل هذا في القرآن كثير جداً، وفي صحيح البخاري في كتاب بدء الوحي من حديث ابن عباس في قصة أبي سفيان مع هرقل، أن هرقل سأله عن النبي صلى الله عليه وسلم فقال: ماذا يأمركم؟ فقال أبو سفيان: يقول اعبدوا الله وحده ولا تشركوا به شيئا، واتركوا ما يقول آباؤكم...(7) قال الحافظ: وهي كلمة جامعة لترك ما كانوا عليه في الجاهلية، فدلّ هذا على أن من الموروثات عن الآباء والأجداد ما قد يكون سببا للصدّ عن الدين والإعراض عنه، بل هو الغالب في الحقيقة، وإذا كان الأمر كذلك فالمصلحة إنما هي في إنكاره والتخويف منه والحضّ على تركه والإعراض عنه، فإن المعروف ما سمّاه الشارع معروفا وإن كان منكرا عند الخلق، كما أن المنكر ما

(7) انظر فتح الباري 32/1.

سمّاه الشارع منكرا وإن كان معروفا عند الناس، فهذا هو الميزان فحسب، وثمة أمر آخر وهو أن العالِمَ بالمنكر إذا رآه ولم ينكره اتخذه عامة الناس من رعاع الخلق وجهلتهم حجة وذريعة لما هم عليه من المنكرات والضلالات، حتى إذا ما أنكر ذلك عليهم أحدٌ قالوا: لو كان منكرا لما أقرّه فلان ولا رضيه، ثمّ إن عاد لينكر عليهم بعد ذلك ولو بطول زمان أعرضوا وقالوا: فلم لا نهيتنا أوّل مرة؟! فأين المصالح التي يزعم القوم تحصيلها..؟! وقل لي بربك كم حرمت الأمة من الخير وكم وقع فيها من الشر بسبب الخلط في هذا الباب..؟!

- فإن قيل وهو الوجه الثاني:

إنما المصلحة في مخالطتهم مع التدرج في الإنكار عليهم، وليس المقصود السكوت عن باطلهم مطلقا، بل إنما نتألفهم أولا بحسن المعاشرة، وجميل المودة، حتى إذا ما تحصّل لنا ذلك أنكرنا عليهم بعدُ وبيّنّا ما يجب علينا بيانه من ذلك...؟!

قلنا: في هذه زلّت الأقدام، فإن المخالطة المزعومة يحصل بها جملة من المفاسد،

منها:- أن يتخذ أصحاب هذه المنكرات سكوت العالم عن المنكر حجة على جواز فعله ولو كان سكوته عنه إلى حين كما قيل:

أمعاشر العلماء إنّ سكوتكم	من حجة الجهّال والضلال
إن قلت قال الله قال رسوله	قال الصحابة سادة الأجيال
سيقول شيخي قال لي عن شيخه	والشيخ عندي عمدة الأقوال(8)

ومنها:- أن النفوس من طبائعها أن تتبلّد أمام المشاهد المحسوسة المتكررة، وإن كانت تراها عظيمة لأوّل مرة، لكن لا يلبث ذلك حتى يزول بالمشاهدة والتكرار،

(8) من منظومة لامية لكاتب هذه السطور.

وهذه السموات السبع وهي سقف العالم كله على عظيم اتساعها وما فيها من أجرام وكواكب مرفوعة بغير عمد بقدرة الواحد القهار جلّ جلاله، وهي على كرّ العصور ومرّ الدهور لا يعتريها تغيّر ولا بِلى، ولا تصدّع ولا فطور، ومع ذلك كم من البشر يمرّون على هذه الآية وهم عنها معرضون..؟! وهذا الإنسان على ضعفه وعجزه كم أودع الله فيه من أسرار حكمته وعجائب قدرته ما تحار معه العقول وتخبت له القلوب والناس في غفلة عن هذا كله..؟! وهذا الحال بعينه يحصل مع ما يألفه المرء من المنكرات والضلالات..! وكم رأينا بأنفسنا من خالط أصحاب المنكرات زاعما أنه يتألفهم ويتدرج في الإنكار عليهم حتى صارت رؤية منكراتهم إلفا له وعادة..؟! والعجب ما رأيناه من بعضهم أن الأمر قد بلغ بهم إلى أن يعدّ التبلد والسكوت عما يراه من المنكر على جلسائه من الحكمة والصبر والعزيمة، فترى محارم الله تنتهك في مجالسهم ولا يتحرّك لهم طرف ولا يهتزّ لهم جفن، ولو أنكر أحد ما يراه في مجالسهم من الباطل شنّعوا عليه ورموه بكل عيب ونقيصة وقالوا مفسد مخذّل، ماله من الحكمة من نصيب، وهذا إن دل على شيء فإنما يدلّ على موت القلوب وفسادها، وإلا فالقلب العامر بمحبة الله تعالى يغضبه أن تنتهك محارم الله، ويعظم ذلك عنده، وإنه والله لعظيم، وكم من فسّاق المسلمين كان على ما هو فيه من ضلالة وغواية ذا حميّة وغيرة على الدين إذا ما طعن فيه طاعن أو تكلّم فيه منافق خبيث، غيورا على أعراض أهل الإسلام أن تنتهك، فلما كتب الله له الهداية وصار يغشى حلقهم ومجالسهم قتلوا فيه حميّته وغيرته، واغتالوا فيه رجولته ونخوته، وكل ذلك بزعمهم تحصيلا لمصالح الدين، والحق أنه إيثار للحظوظ النفسية الدنية على مصالح الآخرة العلية، قال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن في رسالة له في الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بعدما ذكر وجوبه ومكانه من الدين:

"وترك ذلك على سبيل المداهنة والمعاشرة وحسن السلوك ونحو ذلك مما يفعله بعض الجاهلين، أعظم ضررا، وأكبر إثما من تَركِه لجهالة، فإن هذا الصنف رأوا أن السلوك وحسن الخلق ونَيل المعيشة لا يحصل إلا بذلك، فخالفوا الرسل وأتباعهم، وخرجوا عن سبيلهم ومناهجهم، لأنهم يرون العقل إرضاء الناس على طبقاتهم،

ويسالمونهم، ويستجلبون مودتهم ومحبتهم، وهذا مع أنه لا سبيل إليه، فهو إيثار للحظوظ النفسية والدعة، ومسالمة الناس وترك المعاداة في الله، وتحمل الأذى في ذاته، وهذا في الحقيقة هو الهلكة الآجلة، فما ذاق طعم الإيمان من لم يوال في الله ويعاد فيه، فالعقل كل العقل ما أوصل إلى رضا الله ورسوله، وهذا إنما يحصل بمراغمة أعداء الله ، وإيثار مرضاته، والغضب إذا انتهكت محارمه، والغضب ينشأ من حياة القلب، وغيرته وتعظيمه، وإذا عدم الحياة والغيرة والتعظيم، وعدم الغضب والإشمئزاز، وسعى بين الخبيث والطيب في معاملته وموالاته ومعاداته فأي خير يبقى في قلب هذا...؟! وفي بعض الآثار أن الله أوحى إلى جبرائيل أن اخسف بقرية كذا وكذا، فقال: يا رب إن فيهم فلانا العابد، قال: به فابدأ، إنه لم يتمعّر وجهه فيّ قطّ. وذكر ابن عبد البر: أن الله بعث ملكين إلى قرية ليدمّراها، فوجدا فيها رجلا قائما يصلي في مسجد، فقالا: يا رب إن فيها عبدك فلانا يصلي، فقال الله عزّ وجلّ: دمّراها ودمّراه معهم، فإنه ما تمعّر وجهه فيّ قطّ، انتهى، ومن له علم بأحوال القلوب وما يوجبه الإيمان ويقتضيه، من الغضب لله والغيرة لحرماته، وتعظيم أمره ونهيه، يعرف من تفاصيل ذلك ما ذكرنا، ولو لم يكن إلا مشابهة المغضوب عليهم والضالين، في الأنس بأهل المعاصي، ومؤاكلتهم، ومشاربتهم لكفى بذلك عيبا، والله الموفق والهادي لا إله غيره.."(9) انتهى كلامه رحمه الله وإنما نكرته بطوله لنفاسته، فتأمّله.

وقال الشيخ العلامة حمد بن عتيق رحمه الله في رسالة له ما ملخصه: "ومما ينبغي أن يعلم أن العقل على ثلاثة أنواع: عقل غريزي، وعقل إيماني مستفاد من مشكاة النبوة، وعقل نفاقي شيطاني يظن أربابه أنهم على شيء، وهذا العقل هو حظ كثير من الناس بل أكثرهم، وهو عين الهلاك وغرة النفاق، فإن أربابه يرون أن العقل إرضاء الناس جميعهم، وعدم مخالفتهم في أغراضهم وشهواتهم، واستجلاب

---

(9) الدرر السنية 70/8.

مودتهم، ويقولون صلح نفسك بالدخول مع الناس، ولا تبغض نفسك عندهم وهذا هو فساد النفس وهلاكها من أربعة أمور:

الأول: أن فاعل ذلك ملتمس رضا الناس بسخط الله، وصار الخَلْقُ في نفسه أجلَّ من الله وكذا تارك الأمر بالمعروف مع القدرة عليه، والنهي عن المنكر فلم يفعله فقد تسبب أن يلعنه الله كما دل على ذلك آي الكتاب.

الثاني: أن المداهن لا بد أن يفتح الله له بابا من الذل والهوان من حيث طلب العز، وقد قال بعض السلف: من ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر مخافة المخلوقين نزعت منه الطاعة.

الثالث: أنها إذا نزلت العقوبات، فالمداهن داخل فيها، كما في قوله تعالى: (واتقوا فتنة لا تصيبن الذين ظلموا منكم خاصة).

الرابع: أن المداهن الطالب رضا الخلق، أخبث حالا من الزاني والسارق والشارب، قال ابن القيم رحمه الله تعالى: وليس الدين بمجرد ترك المحرمات الظاهرة، بل القيام مع ذلك بالأمور المحبوبة لله، وأكثر الدينين لا يعبؤون منها إلا بمشاركتهم فيه عموم الناس، وأما الجهاد والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والنصيحة لله ورسوله وعباده، ونصرة الله ورسوله وكتابه ودينه، فهذه الواجبات لا يخطرون ببالهم فضلا عن أن يريدوا فعلها، فضلا عن أن يفعلوها، وأقل الناس دينا وأمقتهم إلى الله من ترك هذه الواجبات، وإن زهد في هذه الدنيا جميعها، وقل أن يرى منهم من يحمر وجهه ويتمعر في الله، ويغضب لحرماته ويبذل عرضه في نصرة دينه، وأصحاب الكبائر أحسن عند الله حالا من هؤلاء"(10) انتهى ما أردته من كلامه ملخَصا.

(10) السابق 75/8.

ومنها:- مخالفة ما اتفق عليه أئمة الهدى من أنَّ قاعدة الشريعة إنما هي تحصيل أعظم المصلحتين ولو بتفويت أدناهما، ودرء أعظم المفسدتين ولو بارتكاب أدناهما، إذ أن ما يدعيه هؤلاء من التدرج في الإنكار يفوت بسببه في الغالب مصالح هي أعظم من المصالح التي سعوا في تحصيلها، والتدرج في الإنكار إنما يكون بإنكار الأعظم فالأعظم بحسب ما دلّت عليه أدلة الشريعة، فإنكار الكفر والشرك مقدم على إنكار الكبائر مثلا، وإنكار الكبائر مقدّم على إنكار الصغائر من الذنوب، كما أن الإنكار على المصرّ على المعصية مقدّم على غير المصرّ ، والإنكار على المجاهر بالمعصية مقدم على غير المجاهر، وهذا كله كما ذكر أئمّتنا رحمهم الله تعالى إذا حصل التعارض بين المصالح والمفاسد، وإلا فالأصل جلب كل مصلحة ودفع كل مفسدة كما أسلفناه، قال شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله تعالى: "وجماع ذلك داخل في القاعدة العامة، فيما إذا تعارضت المصالح والمفاسد والحسنات والسيئات أو تزاحمت، فإنه يجب ترجيح الراجح منها فيما إذا ازدحمت المصالح والمفاسد وتعارضت المصالح والمفاسد، فإن الأمر والنهي وإن كان متضمنا لتحصيل مصلحة ودفع مفسدة فينظر في المعارض له، فإن كان الذي يفوت من المصالح أو يحصل من المفاسد أكثر لم يكن مأمورا به، بل يكون محرما إذا كانت مفسدته أكبر من مصلحته، لكن اعتبار مقادير المصالح والمفاسد هو بميزان الشريعة، فمتى قدر الإنسان على اتباع النصوص لم يعدل عنها، وإلا اجتهد برأيه لمعرفة الأشباه والنظائر، وقلّ أن تعوز النصوص من يكون خبيرا بها وبدلالتها على الأحكام.."(11).

فإن قيل: وهو الوجه الثالث:

قد ورد في السنن ما يدل على جواز السكوت عن صاحب المنكر لمصلحة التأليف، وهذا البخاري رحمه الله تعالى قد ذكر في صحيحه تعليقا ما يدل على

---

(11) مجموع الفتاوى 129/28.

ذلك فقال: ويذكر عن أبي الدرداء: «إنا لنكشر في وجوه أقوام وقلوبنا تلعنهم» والكشر بالشين المعجمة وفتح أوله: ظهور الأسنان. وروى البخاري كذلك في صحيحه في كتاب الأدب ومسلم كذلك عن عائشة رضي الله عنها أن رجلا استأذن على النبي صلى الله عليه وسلم فلما رآه قال: «بئس أخو العشيرة وبئس ابن العشيرة» فلما جلس تطلق النبي صلى الله عليه وسلم في وجهه وانبسط إليه، فلما انطلق الرجل قالت عائشة: يا رسول الله، حين رأيت الرجل قلت له كذا وكذا، ثم تطلقت في وجهه وانبسطت إليه..؟ فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «يا عائشة، متى عهدتني فحّاشا، إن شر الناس عند الله منزلة يوم القيامة من تركه الناس اتقاء شرّه»، وشبيه به كذلك ما رواه البخاري في صحيحه من حديث المسور بن مخرمة رضي الله عنه أن النبي صلى الله عليه وسلم أهديت له أقبية من ديباج مزرّرة بالذهب، فقسمها في أناس من أصحابه، وعزل منها واحدا لمخرمة، فلما جاء قال: خبّأت لك هذا، قال أيوب بثوبه أنه يريه إيّاه، وكان في خلقه شيئا..

فهذه الأحاديث تدل على ما ذكرناه من جواز مخالطة أصحاب المنكرات مع تألفهم وإحسان معاملتهم والتدرج في الإنكار عليهم..!

قلنا: أما أحاديث رسول الله صلى الله عليه وسلم كلها فعلى الرأس والعين، وأما استدلالكم بهذه الأحاديث على ما ذكرتم فباطل من وجوه:

الأول: أنه ليس في شيء من هذه الأحاديث ذكر لوقوع المنكرات لا في حضرته عليه الصلاة والسلام ولا في غير حضرته حتى يصح الإستدلال بها على ما أردتم.

الثاني: أن القول بذلك يلزم منه أن يكون النبي صلى الله عليه وسلم قد رأى ذلك ولم ينكره، وهذا باطل بل هو افتراء على رسول الله صلى الله عليه وسلم، وقد أمر عليه الصلاة والسلام بالبيان وتبليغ أمته وقد قال له ربه سبحانه: (يا أيها الرسول بلّغ ما أنزل إليك من ربك وإن لم تفعل فما بلّغت رسالته والله يعصمك من الناس)، وفي الصحيحين من حديث عائشة رضي الله عنها أنها قالت لمسروق لما قال لها: يا

أماه هل رأى محمد ربه..؟ فقالت: لقد قفَّ شعري مما قلت، أين أنت من ثلاث من حدثكهن فقد كذب...، وذكرت منها: ومن حدثك أنه كتم فقد كذب، ثم قرأت:(يا أيها الرسول بلغ ما أنزل إليك من ربك... الآية).. فرسول الله صلى الله عليه وسلم ما ترك شيئا من الخير إلا وأمر أمته به، ولا شرًا إلا وحذّرها منه..! فأنى يصح القول الذي يهرف به هؤلاء..؟ وقد اتفق أئمتنا رحمهم الله تعالى على أن تأخير البيان عن وقت الحاجة لا يجوز..؟! وزمن النبي صلى الله عليه وسلم كان زمن تشريع وتعليم للأمة وقد وصف الله تعالى نبيه بأنه يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكروهي جملة حالية تقتضي المداومة والإستمرار عليه كما مضى بيانه.

الثالث: أن يقال إن الذي دلّت هذه الأحاديث على جوازه إنما هو المداراة وإلانة القول بالكلام للناس والإنشراح لهم تأليفا لقلوبهم مع عدم السكوت عن باطلهم ومنكراتهم، وهذا على خلاف صنيع القوم، فإن الذي يقعون فيه إنما هو المداهنة في الدين بالسكوت عن صاحب المنكر والأنس به والبشاشة لحديثه مع ترك الإنكار عليه، وقد فرّق الأئمة رحمهم الله تعالى بين الأمرين فذكروا جواز الأول وتحريم الثاني، وعلى الأول بوّب البخاري رحمه الله تعالى في صحيحه فقال: باب المداراة مع الناس.. وقد ورد فيها أحاديث منها عند الطبراني عن جابر مرفوعا «مداراة الناس صدقة»، وكذا حديث آخر عند البزار عن أبي هريرة رضي الله عنه «رأس العقل بعد الإيمان مداراة الناس»، وهما حديثان ضعيفان كما قال الحافظ ابن حجر رحمه الله تعالى، وحديث أبي هريرة هذا قد روي عن سعيد بن المسيب من قوله كذلك، وأخرجه البيهقي عنه بلفظ «رأس العقل المداراة وأهل المعروف في الدنيا هم أهل المعروف في الآخرة»، ومنه حديث «داروا سفهاءكم»، قال في ‹تمييز الطيب من الخبيث›: هو دائر على بعض الألسن بزيادة (بثلث أموالكم)، وقد سئل عنه الحافظ ابن حجر فلم يتكلم، ولم أقف عليه مرفوعا وما أشبهه بالموضوع.. وفي مسند الفردوس بلا سند عن أبي هريرة رضي الله عنه:رفعه داروا النساء تنتفعوا بهن فإنهن لا يستوين لكم أبدا»، وقال في كشف الخفاء: ويقرب منه ما اشتهر على

الألسنة مما ليس بحديث «المداراة عن العرض حسنة»، ومنها «دارهم ما دمت في دارهم»، قال السخاوي في المقاصد: ما علمته، وقال في كشف الخفاء عن شيخ مشايخه نجم الدين الغزّي: ليس بحديث وإنما هو شعر وتمامه «وأرضهم ما دمت في أرضهم» (12).

فهذا كله في المداراة الجائزة لا المداهنة المحرمة، قال القرطبي رحمه الله تعالى: وقال عياض: والفرق بين المداراة والمداهنة أن المداراة بذل الدنيا لصلاح الدنيا أو الدين أو هما معا، وهي مباحة، وربما استحبت، والمداهنة ترك الدين لصلاح الدنيا، والنبي صلى الله عليه وسلم إنما بذل له من دنياه حسن عشرته والرفق في مكالمته، ومع ذلك لم يمدحه بقول، فلم يناقض قوله فيه فعله، فإن قوله فيه قول حقّ، وفعله معه حسن عشرة فيزول مع هذا التقرير الإشكال بحمد الله تعالى (13).

وقال الحافظ رحمه الله تعالى: وهذا الحديث أصل في المداراة. انتهى.

وقال ابن بطال: المداراة من أخلاق المؤمنين، وهي خفض الجناح للناس ولين الكلمة وترك الإغلاظ لهم في القول، وذلك من أقوى أسباب الألفة، وظنّ بعضهم أن المداراة هي المداهنة فغلط، لأن المداراة مندوب إليها والمداهنة محرمة، والفرق أن المداهنة من الدهان وهو الذي يظهر على الشيء ويستر باطنه، وفسرها العلماء بأنها معاشرة الفاسق وإظهار الرضا بما هو فيه من غير إنكار عليه، والمداراة هي الرفق بالجاهل في التعليم، وبالفاسق في النهي عن فعله، وترك الإغلاظ عليه حيث لا يظهر ما هو فيه، والإنكار عليه بلطف القول والفعل، ولا سيما إذا احتيج إلى تألفه ونحوذلك (14).

---

(12) انظر كشف الخفا ومزيل الإلباس عما اشتهر من الأحاديث على ألسنة الناس ص399، وكذا المقاصد الحسنة ص211.

(13) نقله الحافظ عنه في الفتح 454/10.

(14) فتح الباري/ شرح كتاب الأدب/ باب المداراة مع الناس ص527.

وقال الشيخ عبد اللطيف بن عبد الرحمن رحمه الله تعالى: وأما الفرق بين المداراة والمداهنة، فالمداهنة: ترك ما يجب لله من الغيرة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والتغافل عن ذلك، لغرض دنيوي، وهوى نفساني كما في حديث: إن من كان قبلكم كانوا إذا فعلت فيهم الخطيئة، أنكروها ظاهرا، ثم أصبحوا من الغد يجالسون أهلها، ويواكلونهم ويشاربونهم، وكأن لم يفعلوا شيئا بالأمس.. فالإستئناس والمعاشرة مع القدرة على الإنكار هي المداهنة،

وثمود لو لم يدهنوا في ربهم　　　لم تَدْمَ ناقتهم بسيف غدار

أما المداراة، فهي: درء الشر المفسد بالقول اللين، وترك الغلظة، أو الإعراض عنه إذا خيف شره، أو حصل منه أكبر مما هو ملابس.. انتهى(15).

وقال النووي رحمه الله تعالى: ولا يتاركه (يعني الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر) أيضا لصداقته ومودته ومداهنته وطلب الوجاهة عنده ودوام المنزلة لديه، فإن صداقته ومودته توجب له حرمة وحقا ومن حقه أن ينصحه ويهديه إلى مصالح آخرته وينقذه من مضارها، وصديق الإنسان ومحبه هو من سعى في عمارة آخرته وإن أدى ذلك إلى نقص في دنياه، وإنما كان إبليس عدواً لنا لهذا وكانت الأنبياء صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين أولياء للمؤمنين لسعيهم في مصالح آخرتهم وهدايتهم إليها... (16).

هذا وقد سمعت من بعضهم استدلالا باردا حول تجويز ما ذهبوا إليه من السكوت على أصحاب المنكرات ومودتهم دون الإنكار عليهم وهو:

الوجه الرابع:

---

(15) الدرر السنية 71/8.

(16) النووي على مسلم 24/2/1.

ومحصله أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يدخل الحرم وفيه ثلاثمائة وستون صنما، وقد ذكر الأئمة رحمهم الله في تفسير قوله تعالى: (فلا جناح عليه أن يطّوّف بهما...) أن معنى ذلك عند أقوام أن النبي صلى الله عليه وسلم لما اعتمر عمرة القضية تخوف أقوام كانوا يطوفون بهما في الجاهلية قبل الإسلام لصنمين كانا عليهما تعظيما منهم لهما وقالوا: كيف نطوف بهما، وقد علمنا أن تعظيم الأصنام وجميع ما كان يعبد من ذلك من دون الله شرك، ففي طوافنا بهذين الحجرين ... ذلك، فأنزل الله هذه الآية الدالة على رفع الحرج عنهم، ومعناها: فمن حج البيت أو اعتمر فلا يتخوفن من الطواف بهما من أجل ما كان أهل الجاهلية يطوفون بهما من أجل الأصنام الموجودة حولها، فدل ذلك على جواز ما ذكرناه من السكوت على صاحب المنكر تأليفا له مع القدرة على اجتنابه وترك مخالطته.

والجواب عنه

أوّلا: أننا لا نسلم أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد طافوا بالبيت دون أن يسبق إنكارهم على كفار قريش ذلك بل إن رسول الله صلى الله عليه وسلم ما بعث إلا بهذا، وكان عليه الصلاة والسلام يعيب آلهتهم ويسفه أحلامهم، وقد حكى الله عز وجل عنهم قولهم: (أهذا الذي يذكر آلهتكم بسوء...) وكان يعرف بينهم بالصابئ وكذا أصحابه، وما كانت عداوتهم له إلا لأجل ما كان يعيب عليهم من ذلك، وكان ذلك مستفيضا بينهم معلوما عندهم، فإنه أصل الدين الذي جاء به وعماده كما قال تعالى: (ولقد بعثنا في كل أمة رسولا أن اعبدوا الله واجتنبوا الطاغوت) فدل كل ما ذكرناه على أن الإنكار كان حاصلا ولا بد.

الأمر الثاني: أنه تقرر عند الأئمة رحمهم الله أن النهي على مراتب متفاوتة دلّ عليها حديث أبي سعيد المتقدم، وهو موافق لقوله تعالى: (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)، وإنما يؤاخذ المرء بما قدر على إنكاره من المنكر ولم ينه عنه،، قال القاضي عياض رحمه الله تعالى في شرح الحديث المذكور: هذا الحديث أصل في صفة

التغيير، فحق المغير أن يغيره بكل وجه أمكنه زواله به قولا كان أو فعلا.. فيكسرّ آلات الطرب ويريق المسكر بنفسه أو يأمر من يفعله، وينزع الغُصُوبَ ويردها إلى أصحابها بنفسه أو يأمر إذا أمكنه..(17).

وقال حافظ المغرب أبو عمر بن عبد البر رحمه الله تعالى: وقد لزم النهي عن المنكر كل مستطيع بقوله عزّ وجلّ: (الذين إن مكناهم في الأرض أقاموا الصلاة وأتوا الزكاة وأمروا بالمعروف ونهوا عن المنكر) ومن مكن في الأرض لم يضعف عن ذلك، ومن ضعف لزمه التغيير بقلبه، فإن لم يغير بقلبه فقد رضي وتابع..(18).

وقال الإمام الجليل أبو محمد علي بن حزم رحمه الله: وكل فرض كلفه الله تعالى الإنسان فإن قدر عليه لزمه، وإن عجز عن جميعه سقط عنه، وإن قوي على بعضه وعجز عن بعضه سقط عنه ما عجز عنه ولزمه ما قدر عليه منه، سواء أقله أو أكثره، برهان ذلك قول الله عز وجل (لا يكلف الله نفسا إلا وسعها)، وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أمرتكم بأمر فأتوا منه ماستطعتم..(19).

والحاصل أن النبي صلى الله عليه وسلم وأصحابه قد طافوا بالبيت والإنكار منهم واقع على قدر الإستطاعة، لم يجب عليهم إزالته باليد لعدم القدرة عليه حينئذ، ولذا لما مكّن الله عز وجل له فتح مكة وأظهره على المشركين كسّر أصنامهم وأزالها ولم يبق منها شيئا.. ولله الحمد.

والأمرالثالث: أن الحق لا يترك لأجل الباطل خاصة مع العجز عن إزالته، ولذا لما سئل بعض أئمة المالكية رحمهم الله عن الخروج لصلاة الجماعة وزيارة الإخوان مع كثرة المنكرات وكون الخارج يغلب على ظنه أنه لا يسلم من رؤية المنكر لكثرته.. أجاب: بأن الزيارة والخروج لصلاة الجماعة لا يتركان لأجل ذلك لما يشاهد من

---

(17) السابق 25/2/1.

(18) التمهيد 311/24.

(19) المحلى 87/1.

المنكر.. إذ لا يترك الحق لأجل الباطل، فإن قدر على إنكار شيء في خروجه بيده أو لسانه فعل وحصل على أجر زائد على أجر الصلاة والزيارة، وإن عجز عن ذلك كان مأجورا على كراهية ذلك بقلبه، وكذلك الغزو مع الفجرة إن قدر على إنكار فجورهم أنكر وحصل على ثواب الإنكار وأثيب على كراهية ذلك لأنه إنما تركه تعظيما لحرمات الله عز وجل، ولو تُرك الحق لأجل الباطل لترك الناس كثيرا من أديانهم..(20).

فإن قيل فهل تطرد قاعدة الإنكار هذه أم تتخلف في بعض الصور..؟

قلنا: الأصل الإطراد فالواجب على من رأى منكرا إزالته بيده أولا فإن لم يقدر على ذلك غيَّره بلسانه.. وهكذا، إلا أن الأئمة رحمهم الله تعالى قد ذكروا أن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لا بد فيه من مراعاة قواعد المصالح والمفاسد في الشريعة والتي تنبني عليها أحكامها، وهي احتمال أدنى المفسدتين لتفويت أعلاهما وتفويت أدنى المصلحتين تحصيلا لأعلاهما.. وهنا أحوال عدة:

الأول- أن يكون المنكر المقصود إزالته مما لا يفوت بإزالته شيء من المصالح ولا يترتب على إزالته شيء من المفاسد فهذا يجب إنكاره.

الثاني- أن يترتب على إزالة المنكر الوقوع في منكر آخر لكن دون الأول المقصود إزالته، فالواجب كذالك هنا إزالة الأول وإن أدى إلى الوقوع في الثاني دفعا لأعظم المفسدتين بارتكاب أدناهما.

الثالث- أن يترتب على إزالته منكر أكبر منه فهذا يحرم إزالته لأن إزالة الأول وإن كان مما يحبه الله تعالى ويرضاه، لكن كونه يترتب عليه الوقوع فيما هو أعظم

---

(20) المعيار المعرب والجامع للونشريسي 12/356.

منه يمنع من ذلك. قال الإمام الحافظ ابن عبد الهادي رحمه الله تعالى: ولا يكفي مجرد كون الفعل محبوبا له، في كونه قربة، وإنما يكون قربة إذا لم يستلزم أمرا مبغوضا مكروها، أو تفويت أمر هو أحب إليه من ذلك الفعل، وأما إذا استلزم ذلك فلا يكون قربة، وهذا كما أن إعطاء غير المؤلفة من فقراء المسلمين، وذوي الحاجات منهم، وإن كان محبوبا لله، فإنه لا يكون قربة، إذا تضمن فوات ما هو أحب إليه، من إعطاء من يحصل بعطيته قوة في الإسلام وأهله، وإن كان قويا غنيا غير مستحق، وكذلك التخلي لنوافل العبادة، إنما يكون قربة إذا لم يستلزم تعطيل الجهاد، الذي هو أحب إلى الله سبحانه من تلك النوافل، وحينئذ فلا تكون قربة في تلك الحال، وإن كانت قربة في غيرها، وكذلك الصلاة في وقت النهي إنما لم تكن قربة لاستلزامها ما يبغضه الله سبحانه ويكرهه من التشبه ظاهرا بأعدائه، الذين يسجدون للشمس في ذلك الوقت. فههنا أمران يمنعان كون الفعل قربة، استلزامه لأمر مبغوض مكروه أو تفويته لمحبوب هو أحب إلى الله من ذلك الفعل، ومن تأمل هذا الوضع حق التأمل أطلعه الله على سر الشريعة، ومراتب الأعمال وتفاوتها في الحب والبغض والضر والنفع، بحسب قوة فهمه وإدراكه، ومواد توفيق الله، بل مبنى الشريعة على هذه القاعدة وهي تحصيل خير الخيرين وتفويت أدناهما، وتفويت شر الشرين باحتمال أدناهما، بل مصالح الدنيا كلها قائمة على هذا الأصل.(21).

والرابع:- أن يستوي الأمران بأن يكون المنكر المقصود إزالته يترتب عليه منكر مثله، وهذه محل اجتهاد ونظر، والله تعالى أعلم.

ثم اعلم -أتاك الله رشدك- أن كثيرا من الناس إنما يمنعه من القيام بهذا الواجب المفروض عليه خشية فوات بعض مصالح دنياه، وكثير منهم يتعذّر بما رأيت من تحصيل المصالح ودرء المفاسد والله يعلم إنهم لكاذبون، كما يتعذر الكثيرون منهم بعجزهم عن القيام به وهم أقدر ما يكونون عليه، وإنما ثقل عليهم ما

---

(21) الدرر السنية 492/8.

يترتب عليه من التكاليف وبعدت عليهم الشقة، ولا أدلّ على ذلك من إنكارهم على من قام بإنكار ما يراه من الباطل ونهى عنه وتصدى له ودعا الناس إلى المعروف الذي جاء به شرع الله ودينه ولو صدق هؤلاء لكانوا أشد الناس فرحا بهؤلاء الآمرين الناهين ولكان أقل أحوالهم الرضا بما قاموا به والدعاء لهم بالنصر والتوفيق كما قال الإمام أبو العز الحنفي رحمه الله تعالى في شرح العقيدة الطحاوية في الكلام على الإجتهاد فيما جاء به الرسول صلى الله عليه وسلم علما وعملا: «وإن كان العبد عاجزا عن معرفة بعض ذلك أو العمل به، فلا ينهى عما عجز عنه مما جاء به الرسول، بل حسبه أن يسقط عنه اللوم لعجزه، لكن عليه أن يفرح بقيام غيره به، ويرضى بذلك، ويود أن يكون قائما به..» (22).

ثم هنا جملة من التنبيهات:-

التنبيه الأول: أن الأمر والنهي لا بد له من جملة من الأمور في القائم به.

الأول:- أن يقصد بما ينكره وجه الله تعالى، وليحذر من التهاون فيما يقدر على تغييره وانكاره فإن النفس أمارة بالسوء وربما دفعته إلى استمراء شيء مما يراه من المنكر، ولذا قال ربنا تبارك وتعالى في شأن جلد الزناة: (ولا تأخذكم بهما رأفة في دين الله) [النور 2]، والمرء متى صدق فيما يقوم به من الأمر والنهي كان ذلك حافظا له من الوقوع في مثله، وقد ذكر ابن تيمية رحمه الله للناس في هذا المقام ثلاث مراتب:

فلولاهن: قوم لا يقومون إلا في أهواء نفوسهم، فلا يرضون إلا بما يُعطونه، ولا يغضبون إلا لما يُحرمونه، فإذا أعطي أحدهم ما يشتهيه من الشهوات الحرام والحلال زال غضبه وحصل رضاه وصار الأمر الذي كان عنده منكرا ينهى عنه ويعاقب عليه، ويذم صاحبه ويغضب عليه، مرضيا عنده، وصار فاعلا له شريكا فيه،

---

(22) شرح الطحاوية..

ومعاونا عليه ومعاديا لمن نهى عنه وينكر عليه.

قلت:- وقد رأينا في زماننا هذا أمثال هؤلاء بل شراً منهم، وإلى الله وحده الشكاية وبث الهموم والأحزان، فإن قوما قد ابتلينا بهم -وشر البلية أمثالهم- لا دين لهم ولا مبدأ إلا مصالح أنفسهم والسعي وراء رغباتها فهم كل يوم في واد، ما ينكرونه اليوم يصير معروفا عندهم في الغد، والمعروف اليوم يصير في غدهم منكرا، لا يستقر لهم قرار، ولا يهدأ لهم مع تكاليف الحق بال، شأنهم كما قيل:

يوما بِحُزْوَى ويوما بالعقيق وبو ... ما بالعُذَيْبِ ويوما بالخُلَيْصاءِ

وتارة ينتحي نجدا وآونة ... شِعْبَ الحَزونِ وحينا قصر تَيْماءِ

والعجب أنهم مع هذا كله يزعمون أن مصالح الدين اقتضت منهم ذلك، وما أسهل ما يروج من أقوالهم تلك على العامة من المسلمين، فيحسبون أن الدين هو ذلك الذي فعلوه، والحال أنها الأهواء تتجارى بهم تحت ذريعة المصالح والمفاسد في الشريعة.

وثانيهن: قوم مخلصون لله، مصلحون فيما يقومون به أمرا ونهيا، صابرون على ما أوذوا، فهم من خير أمة أخرجت للناس.

وثالثهن: قوم يجتمع فيهم هذا وهذا يخلطون عملا صالحا بآخر سيئ، والله المستعان.

الثاني- العلم في الدين والفقه فيه.

واعلم أن من الأمر والنهي ما يجب على كل أحد من المسلمين وهو ما يتعلق بالأمور الظاهرة المتواترة التي يعلمها العامة من المسلمين، كالأمر بالصلاة والصيام والزكاة والحج، والنهي عن ترك شيء منها، وكذلك النهي عن المحرمات المعلومة من الدين بالضرورة كالزنا وشرب الخمر ونكاح ذوات المحارم وغير ذلك.. فهذا وأمثاله

يعلمه العام والخاص.

ومنه ما يحتاج لمعرفته إلى طلب علمه من الكتاب والسنة كتحريم حلق اللحى وإسبال الثياب ونحوه، فهذا لا يجب إلا على العالم به.

وأما إنكار أهل العلم المسائل الإجتهادية التي اختلف فيها الفقهاء فذكر النووي رحمه الله (23) أنه لا إنكار فيه، ونقل ذلك عن كثير من المحققين أو أكثرهم، ونحوه ما ذكر القاضي أبو يعلى في ‹الأحكام السلطانية› وزاد: إلا أن يكون مما ضعف فيه الخلاف وكان ذريعة إلى محظور متفق عليه (24)، ومن قال بهذا استدل له بأن الخلاف لم يزل في الفروع بين الصحابة ومن بعدهم ولا ينكر محتسب ولا غيره على غيره، وقيل بل له أن يندب غيره من العلماء على جهة النصيحة إلى الخروج من الخلاف، وفي الباب تفصيل لا نطيل بذكره والله أعلم.

قلت: وكذلك فإن معرفة مراتب المعروف وتفاوت مراتب المنكر وبناءً كلٍّ على قواعد المصالح والمفاسد بحيث يحصل أولى المعروفين ولو أدى إلى تفويت أدناهما، ويدفع أعظم المنكرين ولو أدى إلى ارتكاب أدناهما، كلّ ذلك بحاجة إلى الفقه في الدين وإلا أدى به إلى الوقوع في المحظور، والله المستعان.

الثالث: الرفق في الأمر والنهي كما دل عليه صنيع النبي صلى الله عليه وسلم مع الأعرابي، وكذا قوله تعالى لموسى وأخيه عليهما السلام: (فقولا له قولا لينا لعله يتذكر أو يخشى) [طه 44]، واعلم أن الرفق المأمور به ليس هو السكوت عن المنكر ومداهنة صاحبه والبشاشة له، وليُّ الكلام وتلبيس الحق بالباطل كما يفعله كثير من الناس، حتى جعلوا تبلّد الحس أمام ما يراه من المنكر من تمام الحكمة وكمال العقل، ثم استدلوا له بالآية الكريمة..! بل المراد بيان الحق على وجهه الأكمل دون مداراة أو لبس أو غموض، وإقامة الحجة البالغة عليه، ودحض شبهات الخصوم مع

---

(23) النووي على مسلم 23/2/1.

(24) الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء الحنبلي ص297.

حسن التوكل على الله تعالى والإعتماد عليه والتلطف في القول بإيضاحه وبيانه، وتأمل كتاب النبي صلى الله عليه وسلم إلى هرقل كما في الصحيحين من حديث ابن عباس رضي الله عنهما (25) فإن فيه: «من محمد عبد الله ورسوله إلى هرقل عظيم الروم..» قال الحافظ رحمه الله: فيه عدول عن ذكره بالملك أو الإمرة لأنه معزول بحكم الإسلام.. لكنه لم يخله من إكرام لمصلحة التأليف..

قلت:- ومع ذلك ففي الكتاب الدعوة إلى توحيد الله تعالى والأمر به وترك اتخاذ غيره أربابا، مع التحذير من التولي عن ذلك لما يلحقه من الذنب العظيم والخسران في الدنيا والآخرة.

وتأمل كذلك ما كان من موسى وهارون عليهما السلام وما قصّ الله سبحانه في شأنهما مع فرعون وملائه ودعوتها لهم، يتبين لك المراد من إلانة القول الذي أمِرا به، والله أعلم.

الرابع، الصبر على ما يلحق المرء من الأذى في سبيل ذلك، وتوطين النفس عليه، وفي أنبياء الله تعالى ورسله مما قصه عنهم في كتابه وما أصابهم من أنواع الأذى والإبتلاء خير أسوة للعبد، وكلما عظم صبره كان أقرب إلى تحقيق الإمامة في الدين، نسأل الله تعالى من فضله.

التنبيه الثاني:

اعلم أن المنكر إذا أعلن وجهر به صاحبه، كما هو حال الدعاة إلى البدع والضلالات، فالواجب حين ذلك المجاهرة بالإنكار عليه تحذيرا للمسلمين من ضلالته، فإن مصلحة الحفاظ على الدين والذب عنه مقدمة حين ذلك على مصلحته الخاصة، وكثير من الناس يخطئ في هذا الباب، فينكر على من قام ببيان المنكر للناس والتحذير منه ومن أهله ظنا منه أن المصلحة في عدم ذكر هؤلاء ولو على سبيل

---

(25) هو عند البخاري في كتاب بدء الوحي، انظر الفتح 32/1.

التعريض بهم، والحق أن إنكارهم ذلك هو المنكر، فإن الستر على مرتكب المنكر إنما يشرع إذا كان مسراً، أما إن أعلنه فالواجب الإعلان بالنكير عليه، فإن كان مع ذلك داعية إلى منكره، فقد عظم واجب الإنكار والبيان، وقد ذكر النووي في «الرياض» والغزالي في «الإحياء» وغيرهما كما نقله عنهم اللكنوي في «الرفع والتكميل» أن من المواطن التي تباح فيها غيبة الرجل حيا وميتا تحذير المؤمنين من الشر ونصيحتهم ونكر من هذا الباب جرحَ الشهود عند القاضي وجرح رواة الحديث، وقال: «وهو جائز بالإجماع بل واجب للحاجة» (26).

قلت:- ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب، وحفظ الدين من تحريف المبطلين وتأويلات الجاهلين وأقاويل أهل الأهواء والضلالات من المبتدعين، لا تتم إلا بما ذكرناه من البيان والتحذير، وهذه كتب الأئمة في هذه الأمة طافحة بذكر أسماء رؤوس الضلالات والبدع على مرّ العصور وكر الدهور، وإنما القاعدة في ذلك أن لا يشنَّع عليه بالأكثر والأغلظ ما أمكن الاكتفاء بالأقل، لأنه إنما جاز ذلك للضرورة فتقدر بقدرها، والله أعلم.

التنبيه الثالث:

من أعظم أبواب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر الزجر بالهجر، وقد قال الطبري رحمه الله تعالى كما نقله عنه الحافظ في الفتح (27)، وقصة كعب بن مالك أصل في هجران أهل المعاصي.

قلت: وقوله تعالى عن إبراهيم عليه الصلاة والسلام: (وأعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربي عسى الا أكون بدعاء ربي شقيا) [مريم 48] وقوله عز وجل عن أصحاب الكهف: (وإذ اعتزلتموهم وما يعبدون من دون الله فأووا إلى الكهف ينشر لكم ربكم من رحمته ويهيئ لكم من أمركم مرفقا) [الكهف 16] أصلٌ كذلك في

---

(26) الرفع والتكميل لابي الحسنات للكنوي ص54.
(27) الفتح 497/10.

هجران أهل الكفر والإشراك، كما أن في الآيات مع الحديث دليل على أن الهجر على مراتب متفاوتة وأحوال مختلفة يأتي الكلام عنها إن شاء الله تعالى.

(يتبع)

... ولن يستوي عند الله الإيمان والكفر، والخير والشر، والهدى والضلال، كما لا يستوي العمى والبصر، والظلمة والنور، والظل والحرور، والحياة والموت، وهي مختلفة الطبائع من الأساس: (وما يستوي الأعمى والبصير ولا الظلمات ولا النور ولا الظل ولا الحرور، وما يستوي الأحياء ولا الأموات)...

وبين طبيعة الكفر وطبيعة كلٍّ من العمى والظلمة والحرور والموت صلة، كما أن هناك صلة بين طبيعة الإيمان وطبيعة كل من النور والبصر والظل و الحياة..

إن الإيمان نور، نور في القلب ونور في الجوارح، ونور في الحواس. نور يكشف حقائق الأشياء والقيم والأحداث وما بينها من ارتباطات ونسب وأبعاد. فالمؤمن ينظر بهذا النور، نور الله، فيرى تلك الحقائق، ويتعامل معها، ولا يخبط في طريقه ولا يبطش في خطواته!

والإيمان بصر، يرى رؤية حقيقية صادقة غير مهزوزة ولا مخلخلة. ويمضي بصاحبه في الطريق على نور وعلى ثقة وفي اطمئنان.

والإيمان ظل ظليل تستروحه النفس ويرتاح له القلب، ظل من هاجرة الشك والقلق والحيرة في التيه المظلم بلا دليل..

والإيمان حياة، حياة في القلوب والمشاعر، حياة في القصد والإتجاه، كما أنه حركة بانية، مثمرة، قاصدة، لا خمود فيها ولا همود، ولا عبث فيها ولا ضياع.

والكفر عمى، عمى في طبيعة القلب، وعمى عن رؤية دلائل الحق، وعمى عن رؤية حقيقة الوجود وحقيقة الارتباطات فيه، وحقيقة القيم والأشخاص والأحداث والأشياء.

والكفر ظلمة أو ظلمات، فعندما يبعد الناس عن نور الإيمان يقعون في ظلمات من شتى الأنواع والأشكال، ظلمات تعز فيها الرؤية الصحيحة لشيء من الأشياء..

والكفر هاجرة، حرور، تلفح فيه لوافح الحيرة والقلق وعدم الإستقرار على هدف، وعدم الإطمئنان إلى نشأة أو مصير، ثم تنتهي إلى حرِّ جهنَّم ولفحة العذاب هناك!

والكفر موت، موت في الضمير، وانقطاع عن مصدر الحياة الأصيل، وانفصال عن الطريق الواصل، وعجز عن الانفعال والاستجابة الآخذين من النبع الحقيقي، المؤثرين في سير الحياة!

ولكل طبيعته ولكل جزاؤه، ولن يستوي عند الله هذا وذاك.

في ظلال القرآن
سيّد قطب -رحمه الله-

النورسيون

بقلم: أبي القـــــيّم

(الحمد لله الذي أنزل على عبده الكتاب ولم يجعل له عوجا * قيما لينذر بأسا شديدا من لدنه ويبشر المؤمنين الذين يعملون الصالحات أن لهم أجرا حسنا).

وصلاة الله على محمد وآله وصحبه وسلم تسليما كثيرا.

اعلم أيها الأخ المحب أن معرفة الفرق ضرورة شرعية ينبغي للحركة الإسلامية الواعية الإلمام بها، وهذا نابع من حاجتها إلى معرفة الواقع الذي تنطلق منه، من أجل هذا تناولت هذا الموضوع أملا في أن نساهم في بناء المسيرة الواعية للطائفة المنصورة أعزها الله وأعلى راياتها، فإنه ولي ذلك والقادر عليه.

سنركز في دراستنا للحركات الإسلامية على فهم هذه الحركات للطوائف المرتدة الحاكمة لبلاد المسلمين.

فإن ترك الجهاد والهجرة والإعداد أو الخلط والإنحراف في قضايا الحكم والخروج والردة أحد أبرز الإنحرافات التي تعصف بالتيارات الإسلامية المعاصرة.

وليت شعري لو وقفت هذه التيارات عند حد الخلط والإنحراف لهذه المسائل الجليلة فحسب، بل تعدّى الأمر ببعضها شن حملات التضليل والتجهيل على كل من اشتغل بهذه المسائل العظيمة، وحدا بالبعض إلى اعتبار جهاد طوائف الردة الممتنعة فتنة وإخلالاً بأمن البلاد أو عمالة تخدم مصالح قوى خارجية لها أطماع توسعية وأهداف سياسية والله تعالى يقول: (وإن نكثوا أيمانهم من بعد عهدهم وطعنوا في دينكم فقاتلوا أئمة الكفر إنهم لا أيمان لهم لعلهم ينتهون * ألا تقاتلون قوما نكثوا أيمانهم وهموا بإخراج الرسول وهم بدءوكم أول مرة أتخشونهم فالله أحق أن تخشوه إن كنتم مؤمنين * قاتلوهم يعذبهم الله بأيديكم ويخزهم وينصركم عليهم ويشف صدور قوم مؤمنين * ويذهب غيظ قلوبهم ويتوب الله على من يشاء).

ولا أكون مغاليا إذا قلت بأن أكثر الجماعات تخبطا وخلطا في هذه المسائل جماعات النورسيين في تركيا، الذين ما برحوا يمتطون ويستهلكون من قبل الأحزاب السياسية، فمرة يصوتون لحزب الطريق القويم ومرة يصوتون لحزب الوطن الأم بحجة أن الأحزاب اليمينية أخف ضررا على المسلمين من الأحزاب اليسارية، كما صوت زعيمهم من قَبْلُ للحزب الديمقراطي عام 1950. لكونه أتاح بعض الحريات، على الرغم من تأكيده القاطع على عدم التدخل في شؤون السياسة وتجنب العمل السياسي على أساس أن الإنشغال بالسياسة يتنافى مع مسلكه الإيماني، ويمنعه الإسلام والقرآن من الإنشغال بالسياسة كما يزعم: «نحن طلاب النور آلينا على أنفسنا ألا نجعل رسائل النور أداة طيعة للتيارات السياسية بل للكون كله فضلا عن أن القرآن قد منعنا بشدة من الإنشغال بالسياسة».(1)

ويتحدث عن نفسه فيقول: "... فإنه كتب إلى جميع أصدقائه قائلا لهم إياكم والإنحراف في التيارات أو الدخول إلى معترك السياسة وإياكم والإخلال بالأمن وذلك لتجنب السياسة" (2).

---

(1) شعاع م14عدد ص405.

(2) السابق.

فهم على الرغم من هذا الإصرار فإن الأحزاب السياسة ما برحت تمتطيها للوصول بها إلى أهدافها، وتستهلكها في أطماعها مقابل بعض المصالح الجزئية محتجين على حماقتهم هذه بالقاعدة اليتيمة: العمل بأخف الضررين وأهون الشرين.

ولا غرابة في ذلك لأنهم لا يطلعون على غير كتب ومؤلفات مرشدهم وأستاذهم، ولا يقبلون بغيره بديلا أصلا، ولذلك تجدهم أكثر الجماعات تعصبا لأستاذهم - وإن ظهر مؤخرا منهم مجموعة صغيرة عدلت عن تعصبها نسبيا، وهي جماعة (وقف الزهراء) بزعامة الشيخ عز الدين وذلك بسبب احتكاكه ببعض رموز الإخوان مصطفى مسلم ومحمد صالح الذين تجمعهم الكردية، والفرق بينهم وبين مرشدهم أن مرشدهم عندما كان يطلع على حقيقة المؤسسات الخبيثة التي تريد أن تستهلكه في أطماعها كان يتخذ منها مواقف حاسمة كما حصل له مع جمعية الإتحاد والترقي (3) ومصطفى كمال أتاتورك.

فقد ذهب إلى "سلانيك" وتعرف على كبار شخصيات الإتحاد والترقي ولكونه كان يدعو إلى الحرية وإلى مبدأ الشورى الإسلامي، فقد لقي ترحيبا من قبل قادة الإتحاد والترقي ولكنهم مع ذلك لم يستطيعوا أن يجعلوه تابعا لهم إذ بقي مستقل الفكر والشخصية، وعندما شعر من بعضهم عدم الإستقامة والعداء للدين قال لهم: لقد اعتديتم على الدين وأدرتم ظهوركم للشريعة. ثم ألقي القبض عليه من قبل حكومة الإتحاد والترقي على أثر حادثة 31 مارس، وحكمت عليه بالإعدام إلا أنها تراجعت بسبب كلمته الجريئة التي هزت قاعة المحكمة (4).

ولما دعاه مصطفى كمال أتاتورك إلى أنقرة ورأى أن أغلب النواب لا يؤدون

---

(3) جمعية الاتحاد والترقي: جمعية الضباط المرتزقة الذين أطاحوا بالدولة العثمانية وكانوا يدعون إلى التحرر والعداء للدين.

(4) سعيد النورسي لإحسان قاسم الصالحي ص30-34.

الصلاة، وأن تصرفات مصطفى أتاتورك وسلوكه معاد للإسلام، كتب بيانا قرأه الجنرال كاظم قره بكر (القائد الأول لحركة الإستقلال) على النواب فكان أن قام إلى الصلاة ما يقارب ستين نائبا، فلم يرضِ ذلك أتاتورك الذي استدعاه من فوره وكان مما قال له: لا ريب أننا بحاجة إلى أستاذ قدير مثلك، لقد دعوناك إلى هنا للإستفادة من آرائك المهمة، ولكن أول عمل قمت به لنا هو الحديث عن الصلاة، لقد كان أول جهودكم هنا هو بث الرقة بين أهل هذا المجلس، فأجابه بديع الزمان (النورسي) مشيرا أليه بإصبعه في حدة: باشا.. باشا.. إن أعظم حقيقة تتجلى بعد الإيمان الصلاة، وإن الذي لا يصلي خائن وحكم الخائن مردود.. ففكر أتاتورك في إبعاده عن أنقرة فعرض عليه منصب الواعظ العام للولايات الشرقية بمرتب مغر، ولكن الشيخ سعيد رفض ذلك (5).

والنورسيون جماعات متفقون إلا على الزعامة والحزب السياسي المفترس، لا يلتحون، وقاداتهم لا يتزوجون تقليدا لمرشدهم بحجة خدمة الدعوة، أكبر جماعاتهم وأغناها جماعة الشيخ فتح الله خوجة ثم جماعة النسل الجديد أو آسيا الجديدة.

ولكي نحيط الأخ القارئ الكريم بهذه الجماعة سنتعرض لبعض الملامح الشخصية والمعالم الفكرية لشيخهم ومرشدهم الشيخ سعيد النورسي ولعل خير ما يعكس تاريخ المرء وأفكاره ما تكلم المرء هو عن نفسه لذلك آليت جهدا ألا أورد إلا ما أخبر به هو عن نفسه وبالله تعالى التوفيق.

الطور الأول من حياة سعيد النورسي

"ولدت (1293هـ - 1873م) في قرية نورس التابعة لولاية بتلس (6). وطوال فترة حياة التلمذة وتحصيل العلوم (7) دخلت في مناقشات جادة مع كل من قابلته من

(5) السابق ص52-53.

(6) بتلس: مدينة تقع في بلاد الأكراد شرق تركيا.

(7) يقول عن نفسه: أنه تلقى العلوم الإسلامية التي يستغرق لتحصيلها سبع سنوات =

العلماء، كنت أتغلب عليهم بفضل العناية الربانية حتى بلغت استنبول، وهناك في جوها المشوب بآفة الشهرة والصيت لم أنقطع عن مناظراتي العلمية كان التوفيق الإلهي يشد أزري إلا أن وشاية الحاسدين والخصماء أودت بي أن أساق إلى مستشفى المجاذيب بأمر السلطان عبد الحميد رحمه الله رحمة واسعة (8).

ثم استقطبت نظر حكومة الإتحاد والترقي بناءً على خدماتي أثناء إعلان الدستور وحادثة 31 مارس (9) طرحت عليهم مشروع بناء جامعة في مدينة "وان" باسم مدرسة الزهراء على غرار الأزهر الشريف.. ووضعت حجر الأساس بنفسي.

ولكن ما إن اندلعت الحرب العالمية الأولى حتى شكلت من طلابي والمتطوعين فرق الأنصار وتوليت قيادتهم فخضنا معارك ضارية في جبهة القفقاس مع الروس المعتدين في بتلس... وقعت أسيرا بيدهم إلا أن العناية الربانية أنجتني من الأسر وأتيت استنبول وعينت فيها عضوا في "دار الحكمة الإسلامية" (10) وشرعت في مجاهدة الغزاة المحتلين بكل ما وهبني الله من طاقة.

قبيل نشوب حرب البلقان عين بديع الزمان قائدا للقوات الفدائية التي تشكلت من المتطوعين القادمين من شرق الأناضول، وقبيل اندلاع الحرب العالمية الأولى

= في غضون ثلاثة أشهر، وهو في الخامسة عشر من عمره (1873 – 1888).

واطلع على علوم الرياضيات والفلك والكيمياء والفيزياء والجولوجيا والفلسفة والتاريخ والجغرافيا في مدة قصيرة جدا. (إحسان قاسم الصالحي، ص4،) وهو ابن 21 سنة (1873-1894).

(8) لقد عرض على السلطان عبد الحميد بناء المدارس التي تعلم علوم الرياضيات والفيزياء والكيمياء.. الخ بجانب العلوم الدينية ثم لما قابل السلطان انتقد سياسة الإستبداد فنقمت عليه حاشية السلطة فاتهموه بالجنون.(إحسان قاسم الصالحي ص 27-28).

(9) 31 مارس: عصيان طابور من الجنود يطالب بتحكيم الشريعة، أخمدت من قبل جميعة الإتحاد والترقي وعزلت على أثرها السلطان عبد الحميد. (إحسان قاسم الصالحي: ص 32 – 33).

(10) دار الحكمة: هيئة علمية تابعة للمشيخة الإسلامية في الدولة العثمانية، كان من أعضائها شيخ الإسلام مصطفى صبري والشاعر محمد عاكف والمفسر حمدي الملي.. الخ (إحسان قاسم الصالحي: ص 45).

اصبح بديع الزمان عضوا في قسم الإتحاد الإسلامي التابعة لمؤسسات تشكيلات خاصة، وهي مؤسسة سياسية عسكرية وأمنية سرية شكلت بأمر السلطان، وظيفتها المحافظة على وحدة أراضي الامبرطورية...

وقد قامت هيئة من العلماء من بينهم سعيد النورسي بإصدار فتوى الجهاد ضد الغزاة المحتلين. ولما بدأت حركة المقاومة ضد الإحتلال الأجنبي اصدر الشيخ عبد الله أفندي فتوى ضد هذه الحركة بأمر من الإنجليز.

فرد عليه بديع الزمان بقوله: إن فتوى تصدر عن مشيخة وإدارة هي تحت ضغط الإنجليز وإمرتهم لا بد أن تكون غير سليمة، ولا يجوز الإنصياع لها، ذلك لأن الذين قاموا بمقاومة احتلال الأعداء لا يمكن اعتبارهم عصاة، إذا يجب سحب هذه الفتوى (11).

... إلى أن انتهت حروب الإستقلال وتشكلت الحكومة الوطنية في أنقرة.

الطور الثاني من حياة سعيد النورسي:

يقول:-

فنظرت من جديد -تثمينا لخدمات تلك- إلى مشروع تاسيس الجامعة في "وان"...

إلى هنا كانت حياتي طافحة بخدمة البلاد وفق ما كنت أحمله من فكرة خدمة الدين عن طريق السياسة، ولكن بعد هذه الفترة وليت وجهي كليا عن الدنيا وقبرت "سعيد القديم" (12)

(11) إحسان قاسم الصالحي ص 51،37-52.

(12) سعيد القديم: اسم الشيخ سعيد النورسي في الطور الأول من حياته وسمي أيضا بديع الزمان.

وأصبحت إنسانا جديدا يعيش للآخرة فانسللت من حياة المجتمع ونفضت يدي من كل ما يخصهم فاعتزلت الناس في تل يوشع في استنبول ومن ثم في مغارات جبل "وان" و "بتلس" بت في مجاهدة مستديمة مع روحي ووجداني انفردت الى عالم الروح رافعا شعار "أعوذ بالله من الشيطان والسياسة".

صرفت كل همي ووقتي إلى تدبر معاني القرآن وبدأت أعيش حياة "سعيد الجديد" (13) أخذتني الأقدار نفيا من مدينة إلى أخرى وفي هذه الأثناء تولّدت من صميم قلبي معان جليلة نابعة من فيوضات القرآن الكريم أمليتها على من حولي من الأشخاص، تلك الرسائل التي أطلقت عليها "رسائل النور"، إنها انبعثت حقا من نور القرآن، نبع هذا الإسم من صميم وجداني فأنا على قناعة تامة ويقين جازم بأن هذه الرسائل ليست من بنات أفكاري وإنما إلهام إلهي أفاضه الله سبحانه على قلبي من نور القرآن الكريم (14).

يقول:–

فهذه الرسائل التي تربو على المائة والثلاثين رسالة لا تبحث بحثا مقصودا عن أمور الدنيا والسياسة وإنما تخص كليا أمور الآخرة والإيمان وعلى الرغم من هذا فقد أصبحت الشغل الشاغل للإنتهازيين والمتصيدين في الماء العكر حتى أوقفتني السلطات مرات عدة.. وأجرت المحاكم تدقيقات علمية على الرسائل.. إلا أن الحقيقة "كانت تتجلى بنصاعتها دوما وتتبوأ العدالة مكانتها اللائقة بها فما من محكمة أجرت التدقيقات العلمية إلا وأنصفت قضيتنا وقررت براءة ساحتنا" اهـ. (15).

---

(13) سعيد الجديد: اسم الشيخ سعيد النورسي في الطور الثاني من حياته.

(14) وهناك انحراف في كثير من رسائل النور مسائل العقيدة، على سبيل المثال تهديده خصومه بالكوارث والآفات الطبيعة، واعتقاده بأن مصطفى كمال أتاتورك هو الدجال السفياني، ورضاه بدخول النار من أجل إنقاذ ايمان المسلمين وسنتناول الموضوع بالتفصيل فيها بعد إن شاء الله.

(15) الشعاعات ص417.

وبديع النورسي لا يخفى تضاربه وتناقضه فهو من بات يؤكد بشكل قاطع تعوذه من الشيطان والسياسة ومن جهة أخرى يؤيد ويشارك في انتخابات الحزب الديمقراطي ويسعى في طول البلاد وعرضها لجمع الأصوات له عام 1950م !.إلى أن صار هذا السلوك في أتباعه وإلى وقتنا الحاضر.

وكان بودنا أن يكون ابتعاده عن السياسة بسبب عدم جواز العمل السياسي في إطار الأنظمة الديمقراطية والحكومات العلمانية، أو أن المشاركة في مجالس الشرك التشريعي مناهضة لإفراد الله بالأمر والتشريع؟ ولكن ترك السياسة بالنسبة لسعيد النورسي لأسباب أخرى، يقول: "لقد خاض "سعيد القديم" غمار السياسة ما يقارب العشر سنوات عله يخدم الدين والعلم عن طريقها فذهبت محاولته أدراج الرياح إذ رأى:

أن تلك الطريق ذات مشاكل ومشكوك فيها وإن التدخل فيها -بالنسبة لي- فضول فهي تحول بيني وبين القيام بأهم واجب.

وهي ذات خطورة وإن أغلبها خداع وأكاذيب وهناك احتمال أن يكون الشخص آلة بيد الأجنبي دون أن يشعر.

وكذلك فإن الذي يخوض غمار السياسة إما أن يكون موافقا لسياسة الدولة أو معارضا لها فإن كنت موافقا فالتدخل فيها -بالنسبة لي- فضول ولا يعنيني حيث أنني لست موظفا في الدولة ولا نائبا في برلمانها فلا معنى عندئذ لممارسة الأمور السياسية.

وإذا دخلت ضمن المعارضة أو السياسة المخالفة للدولة فلا بد أن نتدخل في حينه إما عن طريق الفكر أو عن طريق القوة.

فإن كان التدخل عن طريق الفكر فليس هناك حاجة إلي لأن الأمور واضحة جدا فالجميع يعرفون المسائل مثلي فلا داعي إلى الثرثرة.

وإن كان التدخل بالقوة أي بأن أظهر المعارضة لأجل الوصول إلى هدف مشكوك فيه بإحداث المشاكل فهناك احتمال الولوج في آلاف من الآثام والأوزار حيث يبتلي الكثيرون بجريرة شخص واحد فلا يرضى وجداني الولوج في الآثام والنار وإلقاء الأبرياء فيها بناء على احتمال أو احتمالين من بين عشرة احتمالات لأجل هذا فإن "سعيدا القديم" قد ترك السياسة ومجالسها الدنيوية كما ترك السيجارة وقراءة الجرائد " (16) وإن كان عذره يومها الغموض الذي كان يخيم حول مفاهيم العلمانية والديمقراطية والأوضاع السياسية ورجالها، فما عذر أتباعه وقد بانت المفاهيم والأوضاع والأشخاص؟. إنه داء الأمم (إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون) [الزخرف 23]. ألا يأخذ العجب بلب المرء وهو يقرأ هذا التعليل في معالجة هذا الأمر العظيم؟!، لا أدري كيف تستقيم هذه السفسطة ودعوة التجرد إلى الله في عقل المسلم..؟!!

لقد أعرض الشيخ سعيد النورسي إذا عن الصراع السياسي، لأن الصراع السياسي يخل بخدماته الإيمانية ويشغله بالحياة الفانية كما يزعم: "أفيمكن لي ولأمثالي ممن أعرض عن الحياة ونسعى للقبر أن ندع السعي للحياة الباقية على وفق المسلم الذي سلكه أجدادنا الميامين طوال ألف وثلاث مائة وخمسين سنة وهدى تربية قرآننا العظيم وفي ضوء دساتير يقدسها ثلاث مائة وخمسون مليون في كل عصر، ثم ننشغل بحياة دنيوية قصيرة فانية وننقاد لقوانين ودساتير غير أخلاقية للمدنية السفيهة، بل قوانين جائرة كما هي في البلشفية" (17).

نعم ورد على لسانه بعض العبارات التي توحي بأنه مدرك لشناعة القوانين الوضعية. وأنه يأنف من الإنقياد إلى القوانين غير الأخلاقية والتي تشبه القوانين البلشفية، ولكنها زيادة بلة في الطين، وقديما قال الشاعر:

---

(16) إحسان قاسم الصالحي ص103، نقلا عن مكتوبات ص57.

(17) الشعاع م14عدد ص465.

إن كنت لا تدري فتلك مصــيبة وإن كنت تدري فالمصيبة أعظم

فالشيخ سعيد النورسي لا يرى تغيير ما أصاب الأمة من نكسات تسلط العلمانيين على رقاب المسلمين بالقوة، لأن التغيير بالقوة يواجه في الآثام وإلقاء الأبرياء فيها؟ ... وأنه إذا كان هناك في السلطة ممن ابتلوا بآفة الإلحاد واستحقوا بذلك العقاب فإن وراء كل واحد منهم عددا من الأطفال والمرضى والشيوخ الأبرياء؟.

لقد أجمعت الأمة على وجوب الخروج على الحاكم إذا طرأت عليه الردة لحديث عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال: "دعانا النبي صلى الله عليه وسلم فبايعناه، فكان فيما أخذ علينا أن بايعنا على السمع والطاعة في منشطنا ومكرهنا وعسرنا ويسرنا وأثرة علينا، وأن لا ننازع الأمر أهله قال: «إلا أن تروا كفرا بواحا عندكم من الله فيه برهان» [متفق عليه]".

وفي شرح هذا الحديث قال النووي: "قال القاضي عياض: أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل -إلى قوله- فلو طرأ عليه كفر وتغيير للشرع أو بدعة خرج عن حكم الولاية وسقطت طاعته ووجب على المسلمين القيام عليه وخلعه ونصب إمام عادل إن أمكنهم ذلك، فإن لم يقع ذلك إلا لطائفة وجب عليهم القيام بخلع الكافر ولا يجب في المبتدع إلا إذا ظنوا القدرة عليه، فإن تحققوا العجز لم يجب القيام، وليهاجر المسلم عن أرضه إلى غيرها ويفر بدينه (18).

وقال ابن حجر: -إذا كفر الحاكم- وملخصه أنه ينعزل بالكفر إجماعا فيجب على كل مسلم القيام في ذلك. ١هـ. (19).

---

(18) النووي على مسلم، كتاب الإمارة 229/12.

(19) فتح الباري 123/13.

إذا فما هو طريق الخلاص من الكفر الذي طرأ على الطبقة الحاكمة بالنسبة للأستاذ سعيد النورسي؟..

يقول:-

"منهجنا في ذلك: هو إظهار الحقائق الإيمانية الناصعة المدعمة بالأدلة والبراهين القاطعة التي تلزم أشد الفلاسفة والمتزندقة تمردا على التسليم بالإيمان. لذا فليس من حقنا أن نجعل رسائل النور أداة لأي شيء كان، وذلك لأسباب:

أولا: كي لا تحول الحقائق التي تفوق الألماس نفاسة إلى قطع الزجاج المتكسر في نظر أهل الغفلة حيث يتوهمونها كأنها دعاية سياسية تخدم أغراضا معينة وكي لا نمتهن تلك المعاني القرآنية القيمة.

ثانيا: إن منهج رسائل النور الذي هو عبارة عن: الشفقة والعدل والحق والحقيقة والضمير ليمنعنا بشدة عن التدخل بالأمور السياسية أو السلطة الحاكمة، لأنه إذا كان هناك بعض ممن ابتلوا بالإلحاد واستحقوا بذلك العقاب فإن وراء كل واحد منهم عددا من الأطفال والمرضى والشيوخ الأبرياء، فإذا نزل بأحد أولئك المبتلين المستحقين للعقاب كارثة أو مصيبة فإن أولئك الأبرياء أيضا سيحترقون بنارهم دون ذنب جنوه، وكذا لأن حصول النتيجة المرجوة أمر مشكوك فيه، لذا فقد منعنا بشدة عن التدخل في الشؤون الإدارية بما يخل بأمن البلاد ونظامها عن طريق وسائل سياسية.

ثالثا: في زمن عجيب كزماننا هذا، لابد من تطبيق خمسة أسس ثابتة حتى يمكن إنقاذ البلاد وإنقاذ الحياة الإجتماعية لأبنائها من الفوضى والإنقسام وهذه المبادئ هي:

1- الإحترام المتبادل.

2- الشفقة والرحمة.

3- الإبتعاد عن الحرام.

4- الحفاظ على الأمن.

5- نبذ الفوضى والفوضائية والدخول في الطاعة.

والدليل على أن رسائل النور في نظرتها إلى الحياة الإجتماعية قد ظلت تثبت وتحكم هذه الأسس الخمسة وتحترمها احتراما جادا محافظة بذلك على الحجر الأساس لأمن البلاد، هو أن رسائل النور قد استطاعت في مدى عشرين عاما أن نجعل أكثر من مائة ألف رجل أعضاء نافعين للبلاد والعباد دون أن يتأذى أو يتضرر بهم أحد من الناس. ولعل محافظتي "اسبارطة وقسطموني" خير شاهد وأبرز دليل على صدق ما نقول". (20).

لو أن الشفقة والرحمة النورسية بأطفال المجرمين وعجائزهم ومرضاهم انتهت عند حد الصفح عن المجرمين لهان الأمر، ولكن الشفقة والرحمة النورسية لم تترك الملحدين و العلمانيين فقط بل منعته من التعرض حتى للحكومة حفاظا على سلامة الأمن والنظام: "لما كانت الشفقة دستور حياتي منذ ثلاثين سنة وأساس مسلكي ومسلك رسائل النور فإنني لا أتجنب التعرض للمجرمين الذين ظلموني وحدهم بل لا أستطيع حتى مقابلتهم بالدعاء عليهم وذلك لكي لا أتسبب بإلحاق الضرر بأي شخص بريء، بل إن هذه الشفقة هي التي منعتني من أن أتعرض -أو حتى أدْعُ- على بعض الفساق أو حتى الظالمين اللادينيين الذين اندفعوا بحقد شديد في ظلمي ذلك لكي لا أتسبب في ضرر يلحق بالشيوخ والعجائز المساكين من أمثال والد ذلك الظالم أو والدته أو في الإضرار بأنفس بريئة مثل أولاده...

---

(20) الشعاع ط14دد ص407.

وهكذا فبسر هذه الشفقة لا أكتفي قطعا بعدم التعرض للحكومة وللأمن فقط بل أوصي جميع أصدقائي بذلك، إلى درجة أن بعض رجال الأمن المنصفين في ولايات ثلاث قد اعترفوا أن طلاب رسائل النور هم رجال أمن معنويون، أنهم يحافظون على الأمن وعلى النظام وهذه حقيقة يشهد عليها آلاف الشهود ويصدقها فترة حياة تمتد عشرين سنة ومع طلاب يبلغ عددهم الآلاف ولم يسجل رجال الأمن أية حادثة منهم تمس الأمن (21).

يحلو للبعض وخصوصا المبتلين بداء الحل السلمي وتجنت إراقة الدماء ممن جهلوا الشريعة والواقع أو تجاهلوا إيثارا للراحة والدعة وحفاظا على المنافع والمراكب والفرش أن يبرروا هذه المواقف بموجة الإلحاد الشرسة وهجمة العلمانية الثائرة، وهي بلا شك كانت هجمة إلحادية وموجة علمانية هوجاء ولكن الشيخ سعيد النورسي كان في قمة المعترك السياسي يتفاعل مع قضايا الأمة المصيرية ويتمتع بشجاعة منقطعة النظير، يرد على المتقاعسين المفتين المستسلمين، ويشكل فرق المتطوعين ويخوض المعارك بنفسه ويقع في أسر الروس ويهرب من الأسر ويعين عضوا في دار الحكمة التي هي أعلى مؤسسة علمية في الدولة العثمانية، ويطمع فيه الإتحاديون والكماليون كما أورده عن نفسه ولمزيد من التأكيد نورد النص التالي.

في العريضة التي وجهها إلى مجلس الوزراء يقول: "فإنني أقول مضطرا مذكرا بعض أنانيتي وريائي السابق وليس من أجل الفخر والمدح: إن الذين تيسرت لهم رؤية دفاعي... يشهدون أنه استطاع بخطبة واحدة جلب ثماني كتائب من الجنود إلى الطاعة في أحداث 31 مارس كما كتبت الجرائد آنذاك استطاع بمقالة واحدة في زمن الحرب الإستقلال باسم "الخطوات الستة" (22) أن يحول رأي العلماء في استنبول ضد الإنجليز مما كان له أثر كبير في الحركة الملية "الوطنية"، وفي جامع أيا صوفيا استمع الآلاف إلى خطبته وفي مجلس المبعوثان "المجلس النيابي" في

(21) شعاع ج14 لدد ص439-440.

(22) اسم كتاب له الله ضد الاحتلال الانجليزي.

أنقرة استقبل بتصفيق حار وقام مائة وثلاث وستون نائبا بالموافقة على تخصيص مائة وخمسين ألف ليرة لمدرسة دار الفنون "الجامعة" وعندما دعا إلى الصلاة قابل حدة رئيس الجمهورية في ديوان الرئاسة ورد عليه دون خوف أو وجل وعندما كان في "دار الحكمة الإسلامية" رأت بالإجماع أنه أوفقُ شخص لتبليغ الحكمة الإسلامية إلى حكماء أوربة بشكل مؤثر" (23).

هذه الشخصية الجبارة التي كانت فارس الميادين العلمية والسياسية والجهادية، ابن المنطقة المعروف الذي يحرك الأحداث، معاصر أخر العهود العثمانية يقضي ثلاثا وعشرين سنة في سجون اليهودي الدخيل مصطفى كمال أتاتورك الذي قلب الأوضاع ونجح في تمرير مخططاته وتحقيق برامجه بجدارة منقطعة النظير، حقا إنه مثير للدهشة ملفت للنظر ولكنه حصل فعلا وبكل أسف وسيحصل في كل مرة نولي كتاب ربنا الدبر ونعرض عن سنة نبينا صلى الله علبه وسلم في حل مشاكلنا وقضايانا.

قال تعالى: (ومن أعرض عن ذكري فإن له معيشة ضنكا ونحشره يوم القيامة أعمى * قال رب لم حشرتني أعمى وقد كنت بصيرا قال كذلك أتتك آياتنا فنسيتها وكذلك اليوم تنسى).

إن الخطأ في الحركة والعمل ناتج من الخطأ في التصور والتفكير وفساد القول والعمل يعود إلى فساد العلم والإرادة، والذي أوقع الشيخ سعيد النورسي في هذه المواقف اعتقاده بأن هذه الحكومة حكومة إسلامية وجيشها جيش إسلامي لا يجوز الخروج عليه والجهاد ضده بحال من الأحوال.

يقول: "فإذا كانت هناك عدالة في الدنيا فيجب إصدار حكم بنقض العقوبة الصادرة بحق رجل قام بمثل هذا التفسير (تفسير آيات الحجاب) (24) لكي تمسح

---

(24) لقد أدانته المحكمة بسبب تفسيره لآيات الحجاب فكان هذا مما ردّ به على القاضي.

هذه اللطخة العجيبة عن جبين جهاز العدالة في هذه الحكومة الإسلامية" (25).

وفي رسالة وجهها إلى الحزب الديمقراطي عند فوزه بالحكومة عام 1957: "ندعو الله أن يديم حكومتنا الإسلامية" (26).

"دعيت لزيارة أنقرة سنة 1338هـ 1922م وشاهدت فرح المؤمنين وابتهاجهم باندحار اليونان أمام الجيش الإسلامي" (27).

ولذلك لم يأذن بالخروج على الحكومة الإسلامية التي يزعم عندما دعاه أحد زعماء العشائر الكردية إلى الجهاد ضد حكومة أتاتورك، وهذا نص الحوار الذي دار بينهما:

حسين باشا رئيس إحدى العشائر الكردية: أريد أن أستشيرك في أمر، إن جنودي حاضرون والخيول موجودة وكذلك الأسلحة والذخائر وأنا أنتظر أمرا منك.

سعيد النورسي: ماذا تقول ما الذي تنوي فعله؟ ومن ستحارب؟

حسين باشا: سنحارب مصطفى كمال.

سعيد النورسي: ومن هم جنود مصطفى كمال؟

حسين باشا: ماذا أقول... إنهم جنود.

سعيد النورسي: إن جنودهم أبناء هذا الوطن، هم أقرباؤك وأقربائي فمن تقتل؟ ومن سيقتلون؟.. وافهم. إنك تريد أن يقتل الأخ أخاه؟!.

---

(25) شعاع 14 مدد ص452.

(26) من كتاب ‹KONFRANSLAR› نقلا عن مقالة MUSTAFA ÇELIK ص289 من كتاب ‹TASAVUF VE ISLAM› للكاتب ERCUMENT OZKAN.

(27) شعاع 5 ص54-55.

حسين باشا: إن الموت لأفضل من هذه الحياة.

سعيد النورسي: ما ذنب الحياة؟ إذا كنت قد مللت حياتك فما ذنب المساكين.

حسين باشا: لقد أفسدت علي عزيمتي ورغبتي ولا أدري كيف سأقابل عشيرتي التي هي بإنتظار عودتي وسيظنون أنني جبنت لقد أضعت قيمتي في العشيرة.

سعيد النورسي: وماذا لو كانت قيمتك صفرا بين الناس وكنت مقبولا عند الله تعالى.

وعندما أخبره "حسين باشا" بأنه يريد من ثورته تطبيق الشريعة الإسلامية.

قال سعيد النورسي له: أتريد تطبيق الشريعة الإسلامية؟ إن تطبيق الشريعة الإسلامية لا تكون بهذه الطريقة فلو قلت لك يا حسن باشا تعالى مع جنودك الثلاث مائة لتطبيق الشريعة الإسلامية فإن جنودك وهم في طريقهم إلى هنا سيقومون بنهب وسلب وقتل كل من يمرون عليهم في الطريق وهذا مخالف للشريعة.(28).

نعم كنا نأمل من كل قلوبنا أن يكون امتناعه عن جهاد طوائف الردة الممتنعة العجز وضيق الوسع، ولكن يهدد في أحد محاكم الدولة بقدرته على إنزال صاعقة على رؤوسهم ويزلزل الأرض من تحت أقدامهم فيما لو أراد ذاك، وهذا وإن كان فعلا عاجز عن الخروج ضد المبدلين للشرائع، لوجب الخروج عليه لإعتقاده بأنه قادر على إنزال الصاعقة عليهم كما يقول: "... ولو أن مثل هذا الرجل (يقصد نفسه) أراد التدخل في أمور الدنيا ورغب في ذاك وكانت وظيفته ومهمته المقدسة تسمح له بذلك إذن لاستطاع أن يقول أمرا أعظم بعشرات المرات من حادثة "منمن" ومن ثورة "الشيخ سعيد" (29) أي لأسمعكم صوتا راعدا كدوي المدافع وليس طنينا كطنين

---

(28) سعيد النورسي لإحسان قاسم الصالحي ص57.

(29) قاد ثورة ضد مصطفى كمال أتاتورك حتى قتل، وهو ليس سعيد النورسي.

أجنحة الذباب" (30).

ليست المشكلة عند الأستاذ النورسي جدوى أو عدم جدوى الجهاد ضد طوائف الردة الممتنعة، كما أنها ليست جهل الجنود أو عدم جهلهم، فهو أجهل منهم في أحكام الخروج وقتال الطائفة المرتدة الممتنعة كما تبين.

يقول شيخ الإسلام رحمه الله: "وأيما طائفة انتسبت إلى الإسلام، وامتنعت من بعض شرائعه الظاهرة المتواترة، فإنه يجب جهادها باتفاق المسلمين، حتى يكون الدين كله لله، كما قاتل أبو بكر الصديق رضي الله عنه وسائر الصحابة رضي الله عنهم مانعي الزكاة، وكان قد توقف في قتالهم بعض الصحابة، ثم اتفقوا، حتى قال عمر بن الخطاب لأبي بكر رضي الله عنهما: كيف تقاتل الناس وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: «أمرت أن أقاتل الناس حتى يشهدوا أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله، فإذا قالوها، فقد عصموا مني دماءهم وأموالهم إلا بحقها، وحسابهم على الله»؟. فقال له أبو بكر: فإن الزكاة من حقها. والله لو منعوني عناقا كانوا يؤدونها إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم لقاتلتهم على منعها، قال عمر: فما هو إلا أن رأيت الله قد شرح صدر أبي بكر للقتال، فعلمت أنه الحق" (31).

المشكلة عند سعيد النورسي أنه لا يرى الخروج على الدولة لأنها مسلمة كما تبين بجلاء، وأعداؤه الحقيقيون الذين يحاربونه هم الشيوعيون وبعض الزنادقة المتخفون الذين تمكنوا من الإستيلاء على بعض المناصب الهامة في الدولة، والدولة لا تعرف بهم على حد زعمه وبالتالي فجهوده منصبة على محاربته فقط: "أجل.. إنني أعرض أمام أنظار الحكومة الجمهورية لأن ما أتعرض له حاليا من مصائب من بلايا هو نتيجة لمؤمرات وادعايات منظمة بلشفية سرية"(32).

---

(30) شعاع ع14ـدد ص515.
(31) مجموع الفتاوى 356/28.
(32) شعاع ص469.

"مما يومئ بأن الذين يحاربونني هم منظمة الزندقة السرية وقسم من منظمة الشيوعية الذين التحقوا بهم هؤلاء وقد قبضوا على زمام الأمر في عدد من المناصب الرسمية المهمة في الدولة فيهاجمونني ويحاربونني أما الحكومة فإنها لا تعترف بهم أو تسمح لهم.." (33).

"إني أعلن بصراحة تامة أن محاولة تهمة الإنتماء إلى التكتلات والتجمعات والتدخل في الشؤون الداخلية إلى طلبة النور الذين لا علاقة لهم بأي جهة بالتحزب والتجمع والتكتلات والتيارات السياسية المختلفة ما هي إلا من وحي منظمة الزندقة المتسترة التي تعمل منذ أربعين سنة على هدم الإسلام ومحو الإيمان خاصة.. التي تسبب في تغذية روح التطرف والفوضى في هذه البلاد" (34).

"إني في هذا الوقت الذي أقترب فيه إلى القبر.. وفي هذا الوطن الذي هو بلاد إسلامية تسمع نعيق أبواق البلشفية.. هذا النعيق يهدد أسس الإيمان في العالم الإسلامي ويشد الشعب ولا سيما الشباب إليه بعد سلب الإيمان منهم.

إني بكل ما أملك من وجود أجاهد هؤلاء وأدعو المسلمين بخاصة الشباب إلى الإيمان فأنا في جهاد دائم مع هذه المجموعة الملحدة.. وكل عملي ينحصر في هذا"(35).

ويبدو أن الشيخ سعيد أدرك بعد العناء المضني من قضاء عمره في سجون أتاتورك حيث تمارس عليه صنوف الإيذاء والتعذيب الروحي والجسدي على الرغم من تأكيده القاطع والفعلي على محافظته على النظام والأمن وعدم التدخل في الشؤون الداخلية، أدرك أن هؤلاء لا تنفع معهم الكلمة ولا تفيدهم الحجج والبراهين الدامغة، فشعر بالحسرة والندم على ما فرط به من حسن الظن ولكن بعد فوات

---

(33) السابق ص488 .
(34) السابق ص469 .
(35) السابق ص544.

الأوان ومضي قطار العمر. فنراه يلقي اللوم على نفسه ويستسلم للأقدار معترفا بذنبه لأنه لم يلتفت إلى واجب الإعداد والجهاد ضد هؤلاء اللئام الذين يئس من عدالتهم في حقه ولم ينفعهم كل ما أثبته لهم من البراهين والأدلة على صدقة معهم وتجنت مواجهتهم يقول: "..ولكن وجود تقصيرات كبيرة عندي تجاه الوظيفة الحقيقية هو الذي يسبب لي عقابا معنويا ولو كان الإستفسار مناسبا فإنني مستعد للإجابة على استفساراتكم. أجل إن ذنبي الوحيد المتأتي من تقصيراتي الكبيرة التي لا تغتفر لي من حيث الحقيقة هو بسبب عدم التفاتي إلى الدنيا، لم أعمل ما أنا مكلف به من إبقاء وظيفة جليلة الشأن في سبيل الوطن والأمة وفي سبيل الدين، وإن عدم استطاعتي لا يشكل عذرا بالنسبة إليّ وقد توصلت الآن إلى هذه القناعة في سجن "أفيون" هذا (36).

هذا ما تيسر لنا من إثباته في الجانب السياسي الحافل للشيخ سعيد النورسي، وأما الجانب العقدي والعملي لشخصيته سنرجئه لوقت آخر إن شاء الله فهو أحفل بالعجائب والفظائع كما نوهنا من قبل سائلين المولى أن يبارك في أعمالنا ويحفظنا والمجاهدين بما يحفظ به عباده الصالحين. آمين..

والحمد لله الذي تتم بنعمته الصالحات

(36) شعاعات ص464.

الإيماء لبعض أحكام القضاء

بقلم الأستاذ/ أبي عادل الحموي

إنّ ما يميز هذا الدين لا يمكن حصره في أمور، لأنه في كل جزئية من جزئياته -بله أصوله- عظيم. ومن الأمور التي يتميز بها الإسلام هو القضاء، وكيف تكون مواصفات القاضي، والمساواة بين الخصوم، والتطبيق العملي لذلك على أرض الواقع حتى عاش الناس بين أحضان العدل.

وما نراه في حياتنا من إجحاف في حق الناس وظلم للعباد في مجالس القضاء، وحيف في الأحكام، والكيل بمكاييل عديدة بحسب الخصوم وتبعياتهم، لنرى في كل يوم يمر علينا دليلا واضحا وضوح الشمس في رابعة النهار أنه لن يستقيم أمر الناس إلا بهذا الدين العظيم،ويجعله أساس حياة الأفراد والشعوب:عبادة ومعاملات وأخلاقا وقضاء وسياسة واجتماعا، ولنرى تخبط القضاة فيما يحكمون به بين الناس وأخص بالذكر هنا ما وصل إليه اليهود في أنحاء العالم وكيف تتم محاكمتهم حتى لو ارتكبوا أبشع المجازر سواء في دول الغرب أو الشرق، ولا أدري إلى أي وقت يبقى الناس ساكتون عن ذلك يعيشون في ذل وهوان فوالله موت بعزّ خير من عيش بذل وهوان.

والقضاء بين الناس لإقامة الحق والعدل ولحفظ الحقوق من الدين وصيانة الدماء والأعراض والأموال لنشر الأمن بين المسلمين والطمأنينة.

والقضاء ركيزة من ركائز الدين وجزء من تعاليمه التي لا غني عنها، والأصل في مشروعيته الكتاب والسنة والإجماع.

وأكثر ما يقع بين الناس من المفاسد: المناقشات فإنها تكون باعثة على العداوة والبغضاء وفساد ذات البين، فوجب أن يبعث في كل ناحية من يفصل قضاياهم بالحق ويقهرهم على العمل به شاؤوا أم أبوا. ولذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم يعتني ببعث قضاةُ اعتناءا شديدا ثم لم يزل المسلمون على ذلك.

والقضاء يكون في جميع الحقوق، سواء كانت حقوقا لله أم حقوقا للآدميين.

وللقضاء مقامات:

1- أن يعرف جلية الحال التي تشاجر الخصمان فيه.

2- الحكم بالعدل.

أما الأول: فلا بد فيه من الشهادات والأيمان فإنه لا يمكن معرفة الحال إلا بإخبار من حضرها على أن يكون الشاهد مرضيا لقوله تعالى: (ممن ترضون من الشهداء) وذلك بالعقل والبلوغ والضبط والنطق والإسلام والعدالة والمروءة وعدم التهمة.

أما الثاني: فقد شرع النبي صلى الله عليه وسلم أصولا يرجع إليها.

قال الشافعي: أخبرني من لا أتهم عن ابن أبي ذئب قال: قضى سعد بن ابراهيم على رجل برأي ربيعة، فأخبرته عن رسول الله صلى الله عليه وسلم بخلاف ما قضيت به، فقال له ربيعة: قد اجتهدت ومضى حكمك! فقال سعد: واعجبا أنفذ قضاء سعد بن أم سعد وأردّ قضاء قضى رسول الله صلى الله عليه وسلم به..؟

ودعا بكتاب القضية فشقه وقضى للمقضي عليه.

وورد في ترجمة محمد بن علي المروزي الخياط -وسمي بالخياط لأنه كان يخيط على الأيتام والمساكين حسبة-، قال محمد بن عبدان خادم الجامع: كان محمد بن علي الحاكم يجيء في كل أسبوع ليلة إلى الجامع فيتعبد إلى الصباح من حيث لا يعرف غيري فصادمته ليلة يتلو (ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الكافرون) الآيات، وكلما تلا آية منها ضرب بيده على صدره ضربة أسمع صوتها من شدته رحمه الله تعالى.

ويستعين القضاة بطاعتهم لله تعالى على أمورهم وأحكامهم، قال بشر بن الوليد: وليَ حفص بن غياث القضاء من غير مشورة أبي يوسف فاشتد عليه فقال لي ولحسن اللؤلؤي: تتبعا قضاياه، فتتبعنا قضاياه، فلما نظر فيها قال: هذا من قضاء ابن أبي ليلى، ثم قال: تتبعوا الشروط والسجلات ففعلنا فلما نظر فيها قال: حفص ونظراؤه يعانون بقيام الليل.

ولا يكون قاضيا إلا من كان أهلا لذلك ومن لم يكن كذلك فإنه يورد نفسه المهالك.

قال أبو علي الكرابيسي: لا أعلم بين العلماء ممن سلف خلافا أن أحق الناس أن يقضي بين المسلمين من بان فضله وصدقه وعلمه وورعه وأن يكون عارفا بكتاب الله عارفا بأكثر أحكامه، عالما بسنن رسول الله صلى الله عليه وسلم حافظا لأكثرها، وكذا أقوال الصحابة عالما بالوفاق والخلاف وأقوال فقهاء التابعين يعرف الصحيح من السقيم يتتبع النوازل من الكتاب فإن لم يجد ففي السنة فإن لم يجد عمل بما اتفق عليه الصحابة فإن اختلفوا فما وجده أشبه بالقرآن ثم بالسنة ثم بفتوى أكابر الصحابة عمل به.

ويكون كثير المذاكرة مع أهل العلم والمشاورة لهم مع فضل وورع ويكون حافظا للسانه ونطقه وفرجه، فَهِماً لكلام الخصوم، ثم لا بد أن يكون عاقلا مائلا عن

الهوى..

ثم قال: وهذا وإن كنا نعلم أنه ليس على وجه الأرض أحد يجمع هذه الصفات ولكن يجب أن يطلب من أهل كل زمان أكملهم وأفضلهم.

وقال عمر عبد العزيز رحمه الله تعالى: ينبغي للقاضي أن تجتمع فيه سبع خصال إن فاتته واحدة كانت فيه وصمة: العقل والفقه والورع والنزاهة والصرامة والعلم بالسنن والحكم.

نماذج من قضاة المسلمين ممن سلف:

- ورد في ترجمة عافية بن يزيد الأودي أن سبب تركه القضاء أنه تثبت في حكم فأهدى له الخصم رطبا فرده وزجره، فلما حاكم خصمه من الغد، قال عافية: لم يستويا في قلبي ثم حكاها للخليفة وقال: هذا حالي وما قبلت فكيف لو قبلت..؟! قال: فأعفاه.

- وقال يوسف بن يزيد القراطيسي: قدم المأمون مصر وبها من يتظلّم من عامليْه إبراهيم بن تميم وأحمد بن أسباط، فجلس الفضل بن مروان والوزير في الجامع واجتمع الأعيان وأحضر الحارث بن مسكين ليولّى القضاء فبينا الفضل يكلمه إذا قال له متظلم: سله أصلحك الله عن ابن تميم وابن أسباط. فقال: ليس لِذا حضر، قال: أصلحك الله سله، قال: وما تقول فيهما؟ فقال: ظالمين غاشمين. قال: واضطرب المسجد، فقام الفضل فأعلم المأمون، وقال: خفت على نفسي من ثورة الناس مع الحارث، فطلب الحارث وقال: ما تقول في هذين؟ قال: ظالمين غاشمين، قال هل ظلماك بشيء؟ قال لا، قال: فعاملتهما؟ قال: لا، قال: فكيف تشهد عليهما؟ قال: كما شهدت أنك أمير المؤمنين ولم أرك إلاّ الساعة.

قال: اخرج من هذه البلاد وبع قليلك وكثيرك، وحبسه في خيمة ثم انحدر إلى البشرود -كورة من كور بطن الريف بمصر- وأخذه معه فلما فتح البشرود طلب

الحارث وسأله عن المسألة التي سأله عنها بمصر فرد الجواب بعينه، قال: فما تقول في خروجنا؟ قال: أخبرني ابن القاسم عن مالك أن الرشيد كتب إليه يسأله عن قتالهم فقال: إن كانوا خرجوا عن ظلم من السلطان فلا يحل قتالهم وإن كانوا إنما شقوا العصا فقتالهم حلال، فقال: أنت تيس ومالك أتيس منك ارحل عن مصر، قال: يا أمير المؤمنين إلى الثغور؟ قال: بل بمدينة السلام.

وروى داود بن أبي صالح الحراني عن أبيه قال: لما أحضر الحارث مجلس المأمون جعل المأمون يقول: يا ساعي يرددها يعني يا مرافع.

قال: والله ما أنا بساع ولكني أحضرت فسمعت وأطعت ثم سئلت عن أمر فاستعفيت ثلاثا فلم أعف فكان الحق آثر عندي من غيره.

- وقال محمد بن عبد الله بن الحكم: قال لي ابن أبي داود يا أبا عبد الله لقد قام حارثكم لله مقام الأنبياء.

- وقال محمد بن خلف: كتبت عنه سنة ثلاث وخمسين وهو على قضاء مدينة المنصور فبقي سنة وصُرف لأن الموفق أراد أن يقرضه أموال الأيتام فقال: لا والله ولا حبة، فعزله ورده إلى قضاء الكوفة.

- قال أبو عمر محمد بن يوسف القاضي: ركبت يوما مع إسماعيل القاضي إلى أحمد بن محمد البرتي وهو ملازم لبيته فرأيت شيخا مصفاراً أثر العبادة عليه ورأيت إسماعيل أعظمه إعظاما شديدا وسأله عن نفسه وأهله وعجائزه وجلسنا عنده ساعة وانصرفنا، فقال لي اسماعيل: يا بني تدري من هذا الشيخ؟ قلت: لا، قال: هذا القاضي البرتي لزم بيته واشتغل بالعبادة هكذا تكون القضاة لا كما نحن.

ويتساوى الخصمان أمام القاضي في أمور:

- في الدخول عليه.

- وفي الجلوس بين يديه.

- وفي الإقبال عليهما.

- وفي الإستماع لهما.

- وفي الحكم عليهما.

قال أبو علي التنوخي: حدثنا القاضي أبو بكر بن مروان، حدثني مكرم بن بكر قال: كنت في مجلس أبي خازم القاضي فتقدم شيخ معه غلام فادعى عليه بألف دينار فأقر الحدث فقال القاضي للشيخ: ما تشاء؟ قال: حبسه، فقال للحدث: قد سمعت فهل توفيه البعض؟ قال: لا، ففكر ساعة ثم قال: تلازما حتى انظر. فقلت: لم أخّر القاضي الحبس؟ قال: ويحك! إني أعرف في أكثر الأحوال وجه الحق من المبطل وقد وقع لي أن سماحته بالإقرار شيء بعيد من الحق أما رأيت قلة تغاضيهما في المحاورة مع عظم المال؟

فبينا نحن كذلك إذ استبان الأمر، فاستأذن تاجر موسر فأذن له القاضي فدخل وقال: قد بُليت بابن لي حدث يبلف مالي عند فلان المقيّن فإذا منعته مالي احتال بحيل يلجئني إلى إلتزام غرم وأقربه أنه نصب المقيّن اليوم لمطالبته بألف دينار، وأقع مع أمه إن حبس في نكد.

فتبسم القاضي وطلب الغلام والشيخ فأدخلا فوعظ الغلام فأقر الشيخ وأخذ التاجر بيد ابنه وانصرف.

روى أبو داود أن النبي صلى الله عليه وسلم قضى أن يحبس الخصمان بين يدي الحاكم.

وكتب عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبيّ: سوّ بين الناس في مجلسك وعدلك حتى لا ييأس الضعيف من عدلك ولا يطمع شريف في حيفك.

ويجوز أن يكون القضاء في المسجد، قال مالك: القضاء في المسجد من أمر الناس القديم.

وذلك لمكانة المسجد في الإسلام، قال الشعبي: رأيت عمر وهو مستند إلى القبلة يقضي بين الناس.

وإذا جلس القاضي في مجلسه فأول ما ينظر فيه أمر المحبوسين لأن الحبس عذاب وربما كان فيهم من لا يستحق البقاء فيه.

ولا يقبل القاضي هدية من لم يكن يهدي إليه قبل ولايته وذلك لأن الهدية يقصد بها في الغالب استمالة قلبه ليعتني به في الحكم فتشبه الرشوة.

قال مسروق: إذا قبل القاضي الهدية أكل السحت.

وفي ترجمة محمد بن الحبلي الإمام الشهيد قاضي مدينة برقة: أتاه أمير برقة فقال: غدا العيد، قال: حتى نرى الهلال ولا أفطّر الناس وأتقلّد إثمهم، فقال: بهذا جاء كتاب المنصور -وكان هذا من رأي العبيديه يفطرون بالحساب ولا يعتبرون رؤية- فلم يُر هلال فأصبح الأمير بالطبول والبنود وأهبة العيد فقال القاضي: لا أخرج ولا أصلي، فأمر الأمير رجلا فخطب، وكتب بما جرى إلى المنصور فطلب القاضي إليه فأحضر فقال له: تنصّل وأعفو عنك، فامتنع، فأمر فعلّقه في الشمس إلى أن مات وكان يستغيث العطش فلم يُسق ثم صلبوه على خشبة فلعنة الله على الظالمين.

- وقال الحسن بن محمد: قحط الناس في بعض السنين آخر مدة الناصر فأمر القاضي منذر بن سعيد البلوطي بالبروز إلى الإستقاء بالناس فصام أياما وتأهب واجتمع الخلق في مصلّى الربض وصعد الناصر في أعلى قصره ليشاهد الجمع فأبطأ منذر ثم خرج راجلا متخشعا وقام ليخطب، فلما رأى الحال بكى ونشج وافتتح خطبته بأن قال: سلام عليكم ثم سكت شبه الحيّر ولم يكن من عادته فنظر

الناس بعضهم إلى بعض لا يدرون ما عراه ثم اندفع فقال: (سلام عليكم كتب ربكم على نفسه الرحمة) الآية استغفروا ربكم وتوبوا إليه وتقربوا بالأعمال الصالحة لديه، فضجّ الناس بالبكاء وجأروا بالدعاء والتضرع وخطب فأبلغ فلم ينقضّ القوم حتى نزل غيث عظيم.

قال ابن عفيف: من أخباره المحفوظة -أي أخبار منذر بن سعيد البلوطي-: أن أمير المؤمنين عمل في بضع سطوح الزهراء قبة بالذهب والفضة وجلس فيها ودخل الأعيان، فجاء منذر بن سعيد فقال له الخليفة كما قال لمن قبله: هل رأيت أو سمعت أن أحدا من الخلفاء قبلي فعل مثل هذا؟ فأقبلت دموع القاضي تتحدر ثم قال: والله ما ظننت يا أمير المؤمنين أن الشيطان يبلغ منك هذا المبلغ أن أنزلك منازل الكفار، قال: لم؟ فقال: قال الله عز وجل: (ولولا أن يكون الناس أمة واحدة لجعلنا لمن يكفر بالرحمن لبيوتهم سقفا من فضة...) إلى قوله: (والآخرة عند ربك للمتقين) فنكس الناصر رأسه طويلا ثم قال: جزاك الله عنا خيراً وعن المسلمين الذي قلت هو الحق وأمر بنقض سقف القبة.

وهكذا من نظر في حالنا وحال أولئك السلف من القضاء عرف ما وصلنا إليه من الحضيض حتى صرنا نستحي من أحكام بعض قضاة هذا العصر ومن ولائهم للباطل لحكام الردة وصارت أحكام الله عز وجل مطية لهم واستبدلوا مكان الشارع الحكيم بحطام أخبث من الشيطان واستبدلوا أحكامهم فلا حول ولا قوة إلا بالله.

حوار و مناصحة

بقلم الأستاذ/ فاضل الرحموني

الحمد لله وحده والصلاة والسلام على من لا نبي بعده..

أما بعد فإنه ما من شكٍّ أن الدعوة السلفية قد عزّزت دور العلم الشرعيّ في النصف الأخير من هذا القرن، وأعادت الإعتبار إلى المصادر الأصليه للتّلقّي، وحاربت الشرك في النسك ومظاهره، وأقامت النكير على البدع والخرافات، ولكن هذه الدعوة بدأ يدخل فيها بعض المنتفعين فركبوا موجتها وبدؤوا باسمها الترويج للأنظمة الكافرة الفاسدة الظالمة باعتبارها أنظمة شرعية وأن الواجب طاعتها والدخول تحت رايتها، وهكذا بدأنا نجد في الخطاب السلفي الجديد حملة على من يكفّر الحكّام واتّهامهم بشتى التّهم، هذا بالإضافة إلى الحملة الشديدة على التّجمّع والتّنظيم وتسميته بالتّحزّب البدعي الباطل، فكثر الحديث في ذلك بصورة واضحة في الأشرطة والمحاضرات والمجلات والكتب، وبدأوا يتّهمون من لا يقول بأقوال بعض المشايخ المعاصرين أنّه ليس سلفياً حتى ولو كان ما يقوله مستمدا من الكتاب والسنة.

ومن الأمثلة التي سأتناولها ما ورد في بعض المقالات التي جاءت في العدد

15-16 من مجلة الهدي النبوي التي تصدرها الدار السلفية بمانشستر.. يقول عبد الحق التركماني في استعراضه لكتاب ‹قواعد في التعامل مع العلماء›: «ولا يخفى أن الدعوة السلفية دعوة علمية قيامها بالعلم والعلماء، وبجهودهم ثبت أمرها وعظم خيرها واستوت على سوقها، أغاظ ذلك المبتدعة والحزبيِّين، وأجمعوا أمرهم على مناوأتها بكل سبيل، واتفق رأيهم على أن سلب الثقة بالعلماء من قلوب أتباع هذه الدعوة أمضى سلاح لتخريبها، لهذا تجدهم يطعنون فيهم ويجرِّؤون الناس على الطعن فيهم ويصوِّرون فتاواهم الرشيدة القائمة على اعتبار المصالح الشرعية شذوذا عن المنهج الحق، بل يعتبرونها عمالة للحكّام وبيعا للدِّين، فالله حسبهم وإليه منقلبهم».. وهو يعيد ذلك إلى: «أن من الناس من يطالب العلماء بعمل من الأعمال هم عنه ممتنعون، وما امتناعهم عنه إلا النظر إلى مآلات الأمور وعواقبها، إذ بعض المصالح قد يمتنع منها لما تؤدِّي إليه في المآل من المفاسد العظيمة»، وفي ذلك إشارة إلى امتناع هؤلاء العلماء عن إظهار كفر الحكام وظلمهم وفسقهم، وهو في ذلك يتفق مع ما يقوله الشيخ ناصر الدين الألباني: «هبوا أن هؤلاء الحكام كفار ردّة وهبوا أيضا أن هناك حاكما أعلى على هؤلاء، فالواجب والحالة هذه أن يطبق هذا الحاكم الأعلى فيهم الحدّ! ولكن ماذا تستفيدون أنتم من الناحية العملية إذا سلّمنا -جدلا- أن هؤلاء الحكام كفار كفر ردّة، ماذا يمكن أن تصنعوا وتفعلوا»(1). ثم يقول: «إذا أردنا أن نقيم حكم الله في الأرض -حقًّا لا ادّعاء- فهل نبدأ بتكفير الحكام ونحن لا نستطيع مواجهتهم فضلا عن أن نقاتلهم؟ أم نبدأ -وجوبا- بما بدأ به الرسول عليه الصلاة والسلام؟ لا شكّ أن الجوب (لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة) (2)».

هذا الدفاع عن العلماء واضح سببه، وهو كما يبدو من كلام الكاتب التركماني وكلام الشيخ الألباني فحواه: يا أيها الناس.. يا من ترون كفرا بواحا في كل أرض

(1) التحذير من فتنة التكفير ص73.

(2) السابق.

المسلمين.. إنكم لا تستطيعون مواجهة الباطل، ذلك أن الباطل يملك من القوة ما لا تملكون، وقدرته على البطش غير محدودة، فليس لكم إلا التسبيح بحمد الحكام، وتأليف الكتب وإهدائها لهم، خاصة إذا كانت متعلقة بالسيرة (3)، ليس ذلك فحسب بل صدَّ كلّ من يحاول أن يقيم دولة الإسلام من جديد، ورميه بالتحزّب والبدعة ومخالفة هدي النبي صلى الله عليه وسلم، وبعد ذلك كلّه يطالبنا هؤلاء الإخوة بأن لا نحيد عن هؤلاء العلماء قيد أنملة..!

لنقرأ ما كتبه الأخ مصعب السامرّائي ونتفكّر، يقول: «تئنّ الدعوة فيما تئنّ منه في هذه الفترة من تحوّلها من دعوة خير وهداية وصلاح إلى دعوة قتل وسفك دماء وخراب في أمة الإسلام، ومن دعوة توحيد وسنّة وتقوى إلى دعوة سياسية للإطاحة بحاكم أو الفوز بانتخابات أو للسيطرة على مؤسّسة، ومن دعوة إخاء ومودّة وحبّ للمسلمين إلى دعوة تحزّب خبيث وسريّة باطنيّة وتآمرات ليل، كأنها عصابات تسرق وتنهب، وكي تتمّ لمن أراد هذا بغيته كان لابدّ من الإطاحة بالعلماء لأنهم مراجع علمية يرجع إليها أهل الدين والتقوى، فلابدّ من عزلهم عن القيادة الفكرية، واتبعوا في ذلك طرقا منها رميهم بالعمالة للحاكم وما أسهل القذف لمن لا يتّقي ربًا ولا يرقب إلاّ ولا ذمّة، ومنها حصر أتباعهم في العادات المجرّدة كالحيض والنفاس كما صرّحوا، ومنها رميهم بالجهل بالوقائع، وفي هذا الرمي تبجّح متهاوٍ بالعلم بها وبأسرارها» (4).

وكلام الأخ مصعب فيه الكثير من المغالطات والإتّهام بالباطل والخلط بين الأمور.. فهو يفصل بين أن تكون الدعوة دعوة توحيد وسنّة وبين أن تكون دعوة سياسيّة، في حين أنّه يعلم أن الإسلام توحيد وسنة وسياسة، بل السياسة جزء من التوحيد إذ هي الحكم بما أمر الله بما يتعلّق بشؤون الأمة، وهذا واضح بيّن، ولا

---

(3) كما فعل محمد شقره في إهدائه لمؤلّف السيرة النبوية لعدو الله حسين بن طلال ملك الأردن.

(4) الهدي النبوي العدد 15-16 ص3.

يخفى عليه كذلك أن دعوة الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله قامت على جهودها دولة تنتسب إليها الآن الدّولة (السعودية) التي يدافع عنها هؤلاء العلماء(!!) الآن، ويريدون من الناس أن لا يتحدّثوا أبدا عن الدمار الذي ألحقته هذه الدولة الخبيثة بالمسلمين، وأن يسكتوا عن جرمهم في مطاردة الدعاة والعلماء كالشيخين سفر وسلمان -فكّ الله أسرهما-، ثم يعرّج الأخ السامرّائي على التحزّب -وهذه التي يدندن حولها السلفيون دائما- رغم أنهم حزب له موارده وعلماؤه وكتبه ونشراته ومقرّاته، فحزب السلف موجود حيثما وجد السلفيون، لهم حلقاتهم وندواتهم ومحاضراتهم... فهم في الكويت حزب وفي دولة الإمارات حزب تحت اسم (الجمعية الخيرية) وكل من يعرف واقع الحركة الإسلامية يعرف أن هذه الجمعية جمعية سلف، وتلك الجمعية جمعية إخوان.. وهكذا، والمجلة نفسها التي تضمّنت هذه المقالات تصدر عن الدار السلفية التي هي في واقعها مقرٌّ للحركة السلفية في شمال بريطانيا، فلماذا هذه الحملة على التحزّب عند الغير ما دام أنّه هو واقع الجميع..؟! سمّه ما شئت حزبا أو جماعة أو حركة أو جهة...

وأمّا موضوع علماء الحيض والنّفاس فهو موضوع واضح لا غبار عليه إذ أنّك لو تتبّعت أغلب الفتاوى سواء المذاعة أو المنشورة لرأيتهاكثيرة في هذا الباب، ولكن الأعجب أن المراجع الثلاثة عند هؤلاء السلفيين (ابن باز - ابن عثيمين - الألباني) غير متفقين في هذا الباب من الفقه، ولكنهم على نمط واحد في فقه الحكم على حكام بلاد المسلمين وأن هؤلاء الحكام كفرهم كفرٌ عمليٌ لا دليل لدينا على جحودهم! رغم أن الشيخ ابن عثيمين قال: «كلام الشيخ الألباني هذا جيّد جداً -فيما يتعلّق بكفر الحاكم- لكنّا قد نخالفه في مسألة أنه لا يحكم بكفرهم إلا إذا اعتقدوا حلّ ذلك، هذه المسألة تحتاج إلى نظر لأنّنا نقول: من حكم بحكم الله وهو يعتقد أن حكم غير الله أولى فهو كافر وإن حكم بحكم الله، كفره كفر عقيدة لكنّ كلامنا على العمل، وفي ظنّي أنّه لا يمكن لأحد أن يطبّق قانونا مخالفا للشرع يحكم فيه عباد الله إلا وهو يستحلّه ويعتقد أنه خير من القانون الشرعي، فهو كافر، هذا

هو الظاهر وإلا فما الذي حمله على ذلك..؟!» (5).

فهذا كلام الشيخ ابن عثيمين وهو واضح جدًا في مخالفته لكلام الشيخ الألباني ولكنّ (الأثري!!) حاول جهده في ليّ المعاني والتلاعب بالألفاظ مثل (قد – وفي ظنّي) وفسّر تحوّط الشيخ الناتج عن أدبه في مخاطبة الألباني إلى شكّ في الراوي، رغم أن هذه القضيّة من الأهمية بمكان لا يصلح معها الظنّ، إذ هي من قضايا العقيدة واعتقادها يترتّب عليه الكثير من الأحكام..

ويتوافق مع الأخ مصعب الأخ أبو بكر البغدادي في مقال بنفس العدد (وكأنّ العدد خصّص بذلك) يقول: «من المعلوم الذي لا مرية فيه أن من يخالف العلماء الأعلام القدوة فيما اجتهدوا فيه في هذا الباب فإنّ يفرّق الكلمة، بغضّ النظر عن دقّة وصحّة ما ذهب إليه، وبالتالي فإنه لا يحقق مقصوده من تحصيل المصالح، بل يكون من الفساد في الفرقة ما هو أعظم ممّا قصد المخالفون منعه من الفساد بحسب ظنّهم –على فرض صحّة هذا الظنّ–» (6).

والعجيب أن هؤلاء الإخوة حين يذكرون العلماء (الأئمة القدوة) لا يذكرون إلا المشايخ الثلاثة.. وهذا من أعجب ما جاء به متأخّروا السلفية، ذلك أن السلفية تقوم أوّل ما تقوم على نبذ التقليد وضدّ تقديس الأشخاص، بل إنها دعوة للبحث واتباع الدليل، لكنها تحوّلت ولدوافع سياسية إلى حركة تقليد مذهبيّ جديد(!!)، فبدل أن نقلد الأئمة الأربعة رحمهم الله الذين ختم لهم بالخير صارت إلى تقليد من لا يؤمن عليه الفتنة من الأئمة الثلاثة الجدد أو الأربعة إذا أضفنا إليهم الشيخ الجبرين..

وزعموا –وهو من بدعهم المعاصرة– أن من خالف هؤلاء العلماء هو مبتدع، رغم أنهم كما أسلفنا مختلفون في الكثير من الأحكام حتى في مسائل الصلاة، فالذي يقرأ صفة صلاة النبي صلى الله عليه وسلّم للألباني يجده في كثير من الأبواب

---

(5) التحذير من فتنة التكفير ص73.

(6) الهدي النبوي ع15–16–عدد ص24.

يخالف صفة الصلاة لابن باز وابن عثيمين، وهو خلاف لا يتناقض مع المنهج السلفي،وفي حين أن الألباني يرى جواز كشف الوجه للمرأة يحرّم كشفه ابن باز وابن عثيمين، وبينما يصرّ الألباني على عدم جواز صلاة التراويح أكثر من إحدى عشرة ركعة يجوّز ابن باز وابن عثيمين صلاتها عشرين ركعة، واستقصاء الخلاف يطول، والشاهد أن من تطالب الأمة باتباعهم غير متفقين في المسائل التي لا تخصّ قضايا الأمّة، فكيف نفعل..؟ أنتبع من شئنا منهم على رأي المقلّدة ونحتجّ بالحديث الموضوع «أصحابي كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم» أم ماذا يفعل الناس حسب سلفيتكم الجديدة..؟! أمّا السلفية بأصلها فالجواب فيها معروف.

إنّ الذي لا مراء فيه أن العلماء ورثة الأنبياء، وأنه لابدّ من الرجوع إليهم فيما أشكل على الناس فهمه، وأنه من الواجب على هؤلاء العلماء أن يكون علمهم في خدمة هذا الدين ومن أجل إصلاح الأمّة، لا لخدمة حكّام الجور والردة الذين ابتلينا بهم، ومن المعلوم أن العالم إذا أخطأ لا يجب اتباعه على خطئه، ولكن يجب على العالم أن يبيّن حكم الله في هؤلاء الحكام، ذلك أن أوّل شرط من شروط التغيير في أيّة حالة إدراك الواقع ووجود همّ التغيير فيه، ثم يكون الإعداد للتغيير، وهي التي تفرض المواجهة والتحدّي.. أمّا تخدير الناس بأنّه ليس في الإمكان أحسن ممّا كان، وأنّ علينا الإلتفات إلى تحصيل العلم فقط وترك أمر الحكام جانبا فهذه الدعوة في الحقيقة لا تخدم الدين بل تخدم هؤلاء الحكام، وقد أدرك الحكام هذا فقاموا بدعم هذه الآراء وتوسيد الأمر إلى الداعين إليها، فنشروا الكتب وبثّوها في المشرق والمغرب..

إنّا دعوة لكل هؤلاء الإخوة أن يدركوا حجم الجريمة التي تمارس في حقّ الأمّة بدعوتها إلى إغضاء الطرف عن كفر هؤلاء الحكام، وعدم الدعوة إلى تغيير هذا المنكر الأكبر، وإعادة حكم الله في الأرض ليسود العدل والأمن.. (ويومئذ يفرح المؤمنون بنصر الله).■

دراسات تاريخية

جماعة التوابين

الأستـــاذ هاني السـبـاعي

تقدمة:

جماعة التوابين (61هـ - 65هـ) هي حركة قامت بعد منتصف القرن الأول الهجري بقليل وكان قادتها ومعظم أعضائها من العباد والزهاد وأهل الصلاح والتقوى الذين كانوا يشايعون آل البيت، ونود أن ننبه قبل أن نشرع في هذه الدراسة أن نشير إلى أنه لا يكاد يخلو كتاب من كتب التاريخ الإسلامي إلا ويذكر أنهم جماعة من الشيعة سموا أنفسهم التوابين لشعورهم بالندم والتقصير في نصرة آل البيت كما سنذكر إن شاء الله. لكن نحب أن نضيف أن المقصود بالشيعة في هذه الفترة هم الذين كانوا يناصرون ويشايعون علي بن أبي طالب وآل البيت رضي الله عنهم.. فلم يكن قد ظهر مصطلح التشيع والشيعة بالمعنى الإنحرافي الموجود حالياً فأمير هذه الجماعة صحابي اسمه سليمان بن صُرَد رضي الله عنه وكان من شيعة أمير المؤمنين علي بن أبي طالب وآل بيته. وإن التوابين ليس لهم صلة بشيعة هذا الزمان، وقد تطور لفظ «الشيعة» من معنى لغوي عام إلى معنى انحرافي عقدي خاص، وذلك على مدار فترات زمنية لاحقة على مقتل قادة ومعظم جيش التوابين وانتهاء حركتهم في عين الوردة 65هـ

وستكون دراستنا لهذه الجماعة من خلال إلقاء الضوء على النقاط التالية:

أولاً: متى وكيف ظهرت جماعة التوابين.

ثانياً: أبرز دعاتهم.

ثالثاً: منهج وأهداف هذه الحركة.

رابعاً: قتالهم لجند الشام.

خامسا: أسباب الفشل.

سادساً: أقوال أهل العلم فيهم.

سابعاً: صفوة القول.

أولاً: متى وكيف ظهرت جماعة التوابين:

مما علم في التاريخ أن الحسين رضي الله عنه تسلم من أهل الكوفة مائة وخمسين كتاباً من مختلف الجماعات قد بايعته وحضته على الخروج على يزيد بن معاوية بن أبي سفيان .. ولكن قدر الله نفذ وخذل الشيعة الحسين رضي الله. ويذكر لنا ابن جرير الطبري كيف ومتى قاموا، يقول: «لما قتل الحسين بن علي (رضي الله عنهما) ورجع ابن زياد من معسكر بالنُّخَيلَة، ودخل الكوفة، تلاقت الشيعة بالتلاوم والتندم، ورأت أنها قد أخطأت خطأ كبيراً بدعائهم الحسين إلى النصرة وتركهم اجابته، ومقتله إلى جنبهم ولم ينصروه، ورأوا أنه لايغسل عارهم والإثم عنهم في مقتله إلا بقتل من قتله، أو القتل فيه» (1).

هكذا نجد أن حركة التوابين ظهرت بعد منتصف القرن الأول الهجري بقليل، وبمعنى أدق (من 61هـ إلى 65هـ) وكانت بداية تكوين هذه الجماعة مدينة الكوفة، ثم انضم إليهم خلق كثير من البصرة وخراسان والمدائن. وسميت بهذا الإسم

(1) تاريخ الطبري 5 /552 ـ دار المعارف ـ القاهرة.

(التوابون) لشعورهم بالندم والتهاون في نصرة الحسين بن علي رضي الله عنه بعد أن أرسلوا إليه كتباً يطالبونه بالخروج ووعدوه النصرة، ولما خرج الحسين رضي الله عنه في كربلاء 61هـ خذلوه ولم يخرجوا للقتال، فقتل الحسين رضي الله عنه. لذلك قالوا لأنفسهم: لن يقبل الله توبتكم إلابقتل قتلة الحسين، وتنصيب خليفة من آل البيت، ومن ثم لن يتحقق هدفهم إلابتكوين جماعة وتعيين أمير لهم حتى تكون لهم شوكة وقدرة على قتال عدوهم.

الأطوار التي مرت بها جماعة التوابين:

الطور الأول - الدعوة السرية:
وبدأت هذه المرحلة عقب مقتل الحسين رضي الله عنه في كربلاء 61هـ. وكان قادة التوابين يتنقلون من بيت إلى بيت، وفي تكتم شديد يحرضون الناس على الإنضمام إليهم للثأر بدم الحسين رضي الله عنه. وكانت هذه المرحلة للإعداد وأخذ العهود والمواثيق.

الطور الثاني - الجهر بالدعوة والخروج للقتال:
وتبدأ هذه المرحلة من منتصف عام 64هـ إلى أن خرجوا لقتال جند الشام في غرة ربيع الآخر 65هـ.

ثانيا: ابرز دعاة جماعة التوابين:

يقول الطبري عن اجتماعهم الأول: «ففزعوا (يقصد التوابين) بالكوفة إلى خمسة نفر من رؤوس الشيعة إلى سليمان بن صُرَد الخزاعي، وكانت له صحبة مع النبي صلى الله عليه وسلم، وإلى المسيَّب بن نجبة الفزاري، وكان من أصحاب علي (بن أبي طالب) وخيارهم، وإلى عبدالله بن سعد بن نفيل الأزدي، وإلى عبدالله بن وال، وإلى رفاعة بن شداد البجلي. ثم إن هؤلاء الخمسة اجتمعوا في منزل سليمان بن

صرد، وكانوا من خيار أصحاب علي، ومعهم أناس من الشيعة وخيارهم ووجوههم»(2).

وكان القادة الخمسة سادة وأشراف أهل الكوفة، وكانت أعمارهم تتراوح مابين الستين والسبعين عاماً، وكان عمر أميرهم سليمان بن صُرَد رضي الله عنه يومئذ 93عاماً.

ثالثا: منهج التوابين:

يتضح منهج التوابين وهدفهم من خلال بعض خطبهم ورسائلهم، نختار منها رسالة أميرهم سليمان بن صُرد إلى سعد بن حذيفة بن اليمان: [«بسم الله الرحمن الرحيم. من سليمان بن صُرَد إلى سعد بن حذيفة ومن قِبلَه من المؤمنين. سلام عليكم، أما بعد؛ فإن الدنيا دارٌ قد أدبر منها ما كان معروفاً، وأقبل منها ما كان منكراً، وأصبحت قد تشنّأتْ إلى ذوي الألباب، وأزمع بالترحال منها عبادالله الأخيار، وباعوا قليلاً من الدنيا لايبقى بجزيل مثوبة عند الله. إنّ أولياءَ من إخوانكم، وشيعة آل نبيكم نظروا لأنفسهم فيما ابتلوا به من أمر ابن بنت نبيهم الذي دُعي فأجاب، ودعا فلم يُجب، وأراد الرجعة فحُبس، وسأل الأمان فمنع، وترك الناس فلم يتركوه وعادوا عليه فقتلوه، ثم سلبوه وجردوه ظلماً وعدواناً غراً بالله وجهلاً، وبعين الله ما يعملون، وإلى الله مايرجعون، (وسيعلم الذين ظلموا أي منقلب ينقلبون)، فلما نظرإخوانكم وتدبروا عواقب ما استقبلوا رأوا أنْ قد خطئوا بخذلان الزكي الطيب، وإسلامه وترك مواساته، والنصر له خطأً كبيراً ليس لهم منه مخرج ولاتوبة، دون قتل قاتليه، أو قتلهم، حتى تفنى على ذلك أرواحهم، فقد جدّ إخوانكم فجدوا، وأعدوا واستعدوا، وقد ضربنا لإخواننا أجلاً، يوافوننا إليه، وموطناً يلقوننا فيه، فأما الأجل فغرة شهر ربيع الآخر سنة خمس وستين، وأما الموطن الذي يلقوننا

(2) الطبري 5 /552.

فيه فالنُخَيلَة. أنتم الذين لم تزالوا لنا شيعة وإخوانا، وإلا وقد رأينا أن ندعوكم إلى هذا الأمر الذي أراد الله به إخوانكم فيما يزعمون، ويظهرون لنا أنهم يتوبون، وإنكم جُدراء بتطلاب الفضل، والتماس الأجر، والتوبة إلى ربكم من الذنب، ولو كان في ذلك حزّ الرقاب، وقتل الأولاد، واستيفاء الأموال، وهلاك العشائر، ما ضرُ أهلَ عذراء الذين قاتلوا ألايكونوا اليوم أحياء عند ربهم يرزقون، شهداء قد لقوا الله صابرين محتسبين، فأثابهم ثواب الصابرين (..) وما ضرّ إخوانكم المقتَّلين صبراً، والمُصلَّبين ظلماً، والممثَّل بهم، المعتدى عليهم، ألا يكونوا أحياء مبتلين بخطاياكم قد خُير لهم فلقوا ربهم، ووفاهم الله إن شاء الله أجرهم، فاصبروا رحمكم الله على البأساء والضراء وحين البأس، وتوبوا إلى الله عن قريب، فوالله إنكم لأحرياء ألايكون أحد من إخوانكم صبر على شئ من البلاء، إرداة ثوابه إلا صبرتم التماس الأجر فيه على مثله، ولايطلب رضاء الله، طالبٌ بشئ من الأشياء ولو أنه القتل إلا طلبتم رضا الله به. إن التقوى أفضل الزاد في الدنيا، وماسوى ذلك يبور ويفنى، فلتعزف عنها أنفسُكم ولتكن رغبتكم في دار عافيتكم، وجهاد عدوالله وعدوكم، وعدوأهل بيت نبيكم حتى تقدموا على الله تائبين راغبين، أحيانا الله وأحياكم حياة طيبة، وأجارنا وإياكم من النار، وجعل منايانا قتلاً في سبيله على يديْ أبغض خلقه إليه وأشدهم عداوةً له؛ إنه القدير على ما يشاء، والصانع لأوليائه في الأشياء، والسلام عيكم.»(3).

وفي خطبته إلى جموع التوابين يقول ابن صُرَد: «إنا كنا نمد أعناقنا إلى قدوم آل نبينا، ونمنّيهم النصرَ، ونحثّهم على القدوم، فلما قدموا ونَيْنا وعجزنا، وادّهنا، وتربصنا، وانتظرنا ما يكون حتى قُتل فينا ولَدُ نبيّنا وسلالتُه وعُصارتُه وبَضعةٌ من لحمه ودمه، إذ جعل يستصرخ فلا يُصرَخ، ويسأل النّصف فلا يُعطاه، اتخذه الفاسقون غرضاً للنبل، ودريّة للرماح حتى أقصدوه، وعدَوْا عليه فسلبوه، ألاَ

---

(3) الطبري 5/555.

انهضوا فقد سخط ربكُم، ولاترجعوا إلى الحلائل والأبناء حتى يرضى الله، والله ما أظنه راضياً دون أن تناجزوا مَن قتله، أو تُبيروا. ألا تهابوا الموت فوالله ما هابه امرؤ قطّ إلا ذلّ»(4).

نستخلص من كلام ابن صُرَد رضي الله عنه النقاط التالية:

1- نلاحظ أنه لم يكن لدى التوابين منهج أو حتى برنامج بالمعنى الدقيق لهذين التعبيرين بالمعنى الإصطلاحي الحديث. فهي جماعة شعرت بالتقصير والندم وترغب في التوبة الخالصة، ولن يكون ذلك إلا بقتل قتلة آل البيت أو القتل في ذلك.

2- نلاحظ أن كلام أمير التوابين يعتمد على جلد الذات التي فرطت في نصرة، نجدة الحسين رضي الله عنه، وأن الباعث على تكوين هذه الجماعة هو الثأر لدم الحسين رضي الله عنه بل هو سبب قيامهم وخروجهم على السلطة الحاكمة، كما أن هناك هدفاً آخر لخروجهم هو اعادة الإعتبار لآل البيت وأحقيتهم بالخلافة دون غيرهم.

3- لم يكن في خطة التوابين تكتيكات عسكرية أو مناورات أو مناوشات بالمفهوم العسكري، ولاحتى مفهوم الكر والفر، فخروجهم من أجل أن يقتلوا قتلة الحسين رضي الله عنه، أو يقتلوا حتى يتوب الله عليهم ويرضى عنهم . أما في حالة النصر فإنهم يريدون تنصيب خليفة من آل البيت والذي يؤكد ذلك اطلاعنا على رسائل أخرى ذكرها الإخباريون عنهم.

4- اعترافهم بمكاتبة الحسين رضي الله عنه وحضه على القدوم لهم ليبايعوه وينصروه، وإقرارهم بخذلان آل البيت.

---

(4) الطبري 554/5.

5- تحديد زمن الخروج بغرة ربيع الآخر 65هـ. وتعيين المكان بالنُخَيلَة. وقد تم تغيير هذا المكان فيما بعد إلى «عين الوردة» بعد نصيحة والي قرقيسيا لهم لأهمية هذا الموقع من الناحية العسكرية.

رابعا: خروج التوابين ومسيرهم لقتال جند الشام:

«لما أرد سليمان بن صُرد الخزاعي الشخوص سنة خمس وستين بعث إلى رؤوس أصحابه فأتوه، فلما أهلّ ربيع الآخر خرج في وجوه أصحابه وكانوا قد أتوا للخروج تلك الليلة، فلمّا أتى النُخيلة دار في الناس فلم يعجبه عددهم، فأرسل حكيم بن منقذ الكندي والوليد بن عصير الكنانيّ، فناديا في الكوفة: ياالثارات الحسين! فكانا أول خلق الله دَعَوا: ياالثارات الحسين»(5).

«فأصبح من الغد وقد أتاه نحو ممّا في عسكره، ثم نظر في ديوانه فوجدهم ستة عشر ألفاً، فقيل له: إن المختار يثبط الناس عنك، إنه قد تبعه ألفان. فقال: قد بقي عشرة آلاف، أما هؤلاء بمؤمنين؟ أما ينكرون الله والعهود والمواثيق؟ فأقام بالنخيلة ثلاثاً يبعث إلى من تخلف عنه، فخرج إليه نحو من ألف رجل. فقام إليه المسيب بن نَجَبة فقال: رحمك الله! إنه لاينفعك الكاره ولايقاتل معك إلاّ مَنْ أخرجتْه النية، فلاتنتظر أحداً وجدّ في أمرك. فقال: نعم»(6).

يتضح لنا مما سبق أن أول ضعف دبّ في صفوف التوابين هو تخلف معظم الجيش، فلم يأت إلا أربعة آلاف رجل من ستة عشر ألفاً. مما أثر في معنويات بعض المبايعين وكادوا أن ينصرفوا عن ابن صرد وأصحابه لولا تذكيره لهم بالعهود

---

(5) الكامل في التاريخ لابن الأثير 4/175-176.

(6) السابق.

والمواثيق، ورغم ذلك لم يأت إلا عدد قليل في مقابل جيش ابن زياد الكثيف المنظم.

قدوم المختار بن أبي عبيد الثقفي الكذاب الذي طفق يثبط الناس عن جيش التوابين، ويزعم أنه مكلف من قبل محمد ابن الحنفية رضي الله عنه، مما ساعد على صرف الناس عن ابن صُرد، باعتبار المختار مكلّف من قبل آل البيت. فكان صنيع المختار أول انشقاق في صفوف التوابين. مما أضعف قوتهم وثبط عزيمة عدد غفير منهم.

نلاحظ مدى تأثر الأمير سليمان بن صُرَد بتخلف معظم أصحابه وهو يقول: «أما هؤلاء بمؤمنين» «أما يذكرون الله والعهود والمواثيق؟». والذي يعضد وجهة نظرنا أنه ظل بالنُخيلة ثلاث ليال يبعث إلى من تخلف عنه. حتى أشفق لحاله المسيبُ بن نجبة: «إنه لاينفعك الكاره ولايقاتل معك إلا مَنْ أخرجته النية».

قد يكون سبب تخلف أغلب جيش التوابين رغم بيعتهم لابن صرد في الخروج مع شعورهم بضعف جيش التوابين من الناحية التنظيمية بالمقارنة بجيش الشام رغم تقوى وصلاح التوابين. وقد يكون لحماس زائد وحرارة الإيمان اللحظية عقب مقتل الحسين رضي الله عنه، ثم لما حان الموعد بعد أربع سنوات من مقتل الحسين رضي الله عنه هبط مؤشر الحماس ونزل منحنى الثأر لدم الحسين رضي الله عنه فآثر هؤلاء الذين تخلفوا السلامة والبقاء في بلادهم وديارهم. ومما لاشك فيه أن وجود المختار الثقفي كان له أثر كبير في تخلف هؤلاء المبايعين للتوابين.

نصائح بعض الولاة والمقربين للتوابين بالتريث وعدم الخروج:

1- نصيحة والي ابن الزبير(رضي الله عنه) على الكوفة عبد الله بن يزيد الأنصاري:

« وبلغ عبدالله بن يزيد ، وإبراهيم بن محمد بن طلحة خروج ابن صُرد، فأتياه في أشراف أهل الكوفة (..) فلما أتياه. قال عبدالله بن يزيد: إنّ المسلم أخو المسلم لايخونه ولايغشّه، وأنتم إخواننا وأهل بلدنا وأحبّ أهل مصر خلقه الله إلينا، فلا تفجعونا بأنفسكم، ولاتنقصوا عددنا بخروجكم من جماعتنا، أقيموا حتى نتهيأ، فإذا سار عدّونا إلينا خرجنا إليه بجماعتنا فقاتلناه. (..) وقال إبراهيم بن محمد مثله»(7).

بل إن عبدالله بن يزيد قال له: سنجعل لكم خراج «جوخى» إن أقاموا حتى يعدوا العدة لقتال عدوهم.. فأجابهم ابن صرد رضي الله عنه: «قد محضتما النصيحة واجتهدتما في المشورة، فنحن بالله وله، ونسأل الله العزيمة على الرشد ولا نرانا إلا سائرين»(8).

فألحّ عليهم والي الكوفة أيضاً لعلمه بضعفهم: «فقال عبدالله: فأقيموا حتى نعبّي معكم جريداً كثيفاً(جمع كثيف) فتلقوا عدوكم بجمع كثيف. وكان قد بلغهم إقبال عبيدالله بن زياد من الشام في جنود. فلم يقم سليمان، فسار عشيّة الجمعة لخمس مضين من ربيع الآخر سنة خمس وستين، فوصل دار الأهواز وقد تخلف عنه ناس كثير، فقال: ما أحبّ أن مَنْ تخلف عنكم معكم، لو خرجوا فيكم مازادوكم إلا خبالاً، إن الله كره انبعاثهم فثبطهم واختصكم بفضل ذلك.»(9).

نلاحظ أن تخلف الناس مستمر وفي اطراد. ورغم ذلك ساروا حتى مروا بقبر الحسين رضي الله عنه وبكوا وترحموا عليه. ثم ساروا إلى الأنبار. وفي الأنبار وصلتهم رسالة من والي الكوفة.

---

(7) الكامل في التاريخ 177/4.
(8) السابق.
(9) السابق .

نص رسالة عبدالله بن يزيد إلى جيش التوابين:

«بسم الله الرحمن الرحيم. من عبدالله بن يزيد إلى سليمان بن صرد ومن معه من جيش المسلمين، سلام عليكم، أما بعد؛ فإنّ كتابي إليكم ناصح ذي إرعاء، وكم من ناصحٍ مستغَشّ، وكم من غاشّ متنصح مُحبّ، إنه بلغني أنكم تريدون المسير بالعدد اليسير إلى الجمع الكثير، وإنه مَنْ يُرد أن ينقل الجبال عن مراتبها تكلّ معاوله، وينزع وهو مذموم العقل والفعل. ياقومنا لا تُطمعوا عدوكم في أهل بلادكم، فإنكم خيارٌ كلكم، ومتى مايصبكم عدوكم يعلموا أنكم أعلامُ مصركم، فيُطمعهم ذلك فيمن وراءكم. ياقومنا، (إنهم إنْ يظهروا عليكم يرجموكم أو يُعيدوكم في ملّتهم ولن تفلحوا إذاً أبداً)، ياقومنا إن أيدينا وأيديكم اليوم واحدة، وإن عدونا وعدوكم واحد، ومتى تجتمع كلمتنا نظهر على عدونا، ومتى تختلف تهُنْ شوكتُنا على من خالفنا؛ ياقومنا لاتستغشّوا نصحي، ولاتخالفوا أمري، وأقبلوا حين يُقرأ عليكم كتابي. أقبلَ الله بكم إلى طاعته، وأدبر بكم عن معصيته. والسلام»(10).

فماذا كان جواب التوابين؟ أبوا وقام ابن صرد فيهم خطيباً: «أرى والله أنكم لم تكونوا قط أقربَ من إحدى الحسنيين منكم يومكم هذا؛ الشهادة والفتح، ولا أرى أن تنصرفوا عما جمعكم الله عليه من الحقّ، وأردتم به الفضل.»(11).

ثم كتب ابن صُرَد رسالة إلى عبدالله بن يزيد يثني عليه ويبين له سبب رفضهم الرجوع عن مقصدهم: «بسم الله الرحمن الرحيم. للأمير عبدالله بن يزيد، من سليمان بن صُرد ومن معه من المؤمنين، سلامٌ عليك، أما بعد. فقد قرأنا كتابك، وفهمنا ما نويتَ، فنعم والله الوالي، ونعم أخو العشيرة، أنت والله من نأمنه بالغيب، ونستنصحه في المشورة، ونحمده على كل حال؛ إنا سمعنا الله عزّوجل يقول في كتابه: (إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة) ـ إلى قوله:

---

(10) الطبري 5/592.

(11) السابق.

(وبشر المؤمنين). إن القوم استبشروا ببيعتهم التي بايعوا، إنهم قد تابوا من عظيم جرمهم، وقد توجهوا إلى الله، وتوكلوا عليه ورضوا بما قضى الله(ربنا عليك توكلنا وإليك أنبنا وإليك المصير). والسلام عليك)(12).

نلاحظ هنا تقديم اسم والي الكوفة على كاتب الرسالة ابن صرد وفي ذلك اشارة إلى تواضع سليمان بن صرد رضي الله عنه.

هكذا قد بذل هذا الوالي قصارى جهده من نصح لجيش التوابين، إذ كان مشفقاً عليهم لعلمه بقلة عددهم، لذلك لما جاءه كتاب ابن صرد في عزمهم على المضي لقتال أهل الشام على حالتهم. قال: استمات القومُ، أول خبر يأتيكم عنهم قتلُهم؛ وايم الله ليُقتلنَّ كراماً مسلمين، ولا والذي هو ربّهم لايقتلهم عدوهم حتى تشتدَّ شوكتهم، وتكثر القتلى فيما بينهم»(13).

هكذا توقع والي الكوفة نتيجة المعركة، ومصير التوابين ، وليس ذلك رجماً بالغيب بل يرجع ذلك للمعطيات التي ذكرناها عن قوتهم العسكرية.

2- نصيحة عبدالله بن سعد بن نفيل:

«فلما عزم سليمان على المسير قال له عبدالله بن سعد بن نفيل: إني قد رأيت رأياً إن يكن صواباً فالله الموفق، وإن يكن ليس صواباً فمن قبلي؛ إنا خرجنا نطلب بدم الحسين، وقَتَلَته كلهم بالكوفة، منهم عمر بن سعد ورؤوس الأرباع والقبائل، فأين نذهب من ههنا وندع الأوتار؟ فقال له أصحابه كلهم: هذا هو الرأي.»(14).

لكن الأمير سليمان بن صرد كان له رأي آخر: «فقال سليمان: لكن أنا لا أرى

(12) الطبري 5/593.
(13) السابق 5/592.

ذلك، إن الذي قتله وعبّأ الجنود إليه وقال لا أمـان له (أي للحسين) عندي دون أن يستسلم فأمضي فيه حكمي، الفاسق ابن الفاسق عبيدالله بن زياد، فسيروا على بركة الله فإن يظهركم الله عليه رجونا أن يكون مَنْ بعده أهون علينا منه، ورجونا أن يدين لكم أهلُ مصركم في عافية فينظرون إلى كل مَنْ شرك في دم الحسين فيقتلونه ولا يغشموا وإن تُستشهدوا فإنما قاتلتم المُحلِّين، وما عندالله خير للأبرار»(15).

إذن هناك رأيان:

الأول: يرى قتل الذين شاركوا في قتل الحسين رضي الله عنه وهم بين أيديهم في الكوفة.

الثاني: رأى الأمير وهو قتل الرأس المدبر الذي لم يعط الحسين رضي الله عنه أماناً ولا عهداً ولم يعطه فرصة الرجوع إلى الحجاز. فهو أولى بالقتل على حد رأي ابن صرد رضي الله عنه. أما بقية الذين شاركوا في هذه الجريمة الشنعاء، فهم أقل وأهون.

نلاحظ أن كلا الرأيين له وجهة نظر معتبرة فالرأي الأول ينظر إلى حجم قوتهم العسكرية وعتادهم الحربي الضعيف، ومن ثم لم لايقتلون من في أيديهم طالما ليتحقق شئ من المراد، وليكون نكالاً للآخرين الذين بالشام أو في غيرها من الأمصار، فهذا الفريق يتفق مع الرأي الثاني في التسليم بقتل من أصدر الأوامر بقتل الحسين وآل البيت رضي الله عنهم. لكنهم يرون ارجاء ذلك حتى تقوى شوكتهم.

---

(14) الكامل 176/4.

(15) السابق 176/4.

أما الرأي الآخر فإنه ينظر إلى أن قطع رأس الأفعى أولى. وفيه ارواء الغليل وشفاء الصدور، وأن الإبتداء بقتل من بأيديهم في الكوفة قد يثير حفيظة أقاربهم وذوويهم، ومن ثم الإتفاق على قتل الرأس أولى في هذه الحالة.

وإزاء هذين الرأيين المعتبرين نرى أن القضية تختلف من حالة لأخرى: ففي حالة وجود جماعة قوية لها شوكة وعمق شعبي فمن الأولى ضرب الرؤوس وقتل أئمة الضلال، وليس معنى ذلك ترك من اشتركوا في جريمة قتل الحسين رضي الله عنه أحراراً يرتعون في الأرض وينعمون بالأمان، بل نحن ننظر إلى أولوية الخيار، وخاصة أن جماعة التوابين خرجت لمواجهة جيش نظامي؛ أي حرب ميدانية مكشوفة لكنها بهذا الوصف غير متكافئة. فلو أن التوابين اختاروا منهج ارهاب الخصم أو الكر والفر على طريقة حرب العصابات أو المدن لاختلف الحديث واختلف أيضاً التنظير ونظرتنا للأمور، فحرب العصابات لها أسلوب يختلف عن الحرب النظامية.. فقد يقتل الزعيم أوالحاكم أو أعلى منصب في السلطة ولايغير ذلك من حسم المعركة بل هي أشبه بحرب استنزاف لطاقات العدو وارهابه. أما مافعله التوابون فإنهم خرجوا لحرب مكشوفة؛ أي في مواجهة عسكرية مع نظام له جيش منظم وقوي.

لذلك نرى أن وجهة نظر الفريق الأول التي ترى الإكتفاء بقتل من شارك في قتل الحسين وآل البيت رضي الله عنهم؛ هؤلاء القتلة يعيشون معهم في الكوفة. فوجهة نظرهم قوية تتفق وطبيعة جيش التوابين وحجمهم القليل. فالقيام بعمليات في مثل حالتهم وإن كانت بسيطة إلا أنها تحقق مكاسب محدودة منها:

- ردع العدو وإرهابه.
- إحياء قضية الجهاد في نفوس الأمة كي تقوى عزيمتهم.
- إعادة الثقة إلى الأنفس المضطربة..

ففي مثل هذه العلميات واستمرارها وخاصة مع من اشتهر عنهم بارتكاب جرائم وموبقات في حق الأمة. هذا ما يتناسب وطبيعة حركة التوابين.

وننبه على عدم إغفال الإستراتيجية العامة لخطة الحركة أو الجماعة بمعنى السير في خطوط متوازية من الإستمرار في تنمية قدرات الأتباع وتعبئتهم بقدر الإمكان والإستمرار في تدريبهم والإعداد الملائم لطبيعة الصراع القائم، فالفريق الأول نظر إلى واقع الجماعة الضعيف، والفريق الثاني حركته حرارة الإيمان، ولم يراع الأسباب الكونية. فقد ينهزم جيشٌ به نبيٌ مرسلٌ لعدم أخذهم بالأسباب التي خلقها الله لمثل هذه المعارك العسكرية. كما في (غزوة أحد 3هـ). وقد يحرز النصر أكفر خلق الله لأخذه بالأسباب التي شرعها الله لمثل هذه المعارك، كما حدث أيضاً في أحد حيث انتصرت الوثنية ـ مؤقتاً ـ على المسلمين وهم صفوة البشرية وأتقاهم وأصلحهم ورغم ذلك هزموا، وللتدليل على صحة هذه الدعوى عشرات الأدلة من كتب التاريخ والسير، لكن نكتفي بهذا المقدار.

3- نصيحة والي قرقيسيا:

«ثم ساروا حتى انتهوا إلى والي قرقيسيا على تعبية، وبها زُفَر بن الحارث الكلابيُّ قد تحصن بها منهم ولم يخرج إليهم» (16).. إذن لقد أغلق والي قرقيسيا أبواب المدينة لما رأى التوابين ـ ليس خوفاً من منازلتهم ـ بل لكراهته قتالهم إذا أرادوا قتاله، لأنه قد علم أنهم أهل صلاح وتقوى، ومما يعضد ذلك قول ابن الأثير في الحوار الذي دار بين المسيب بن نجبة وزفر بن الحارث: «فقال زفر: إنا لم نغلق أبواب المدينة إلا لنعلم إيّانا تريدون أم غيرنا، وما بنا عجز عن الناس وما نحب قتالكم، وقد بلغنا عنكم صلاح وسيرة جميلة» (17).. ثم أخرج لهم طعاماً، وأعطاهم خيلاً وسلاحاً، ثم نصحهم لعلمهم بأخبار الخصوم وعرض عليهم الرأى التالي:

«إنه قد سار خمسة أمراء من الرَّقَّة هم الحصين بن نُمير وشُرَحْبيل بن ذي الكَلاع وأدهم بن مُحْرِز وجَبَلَة بن عبدالله الخثعمي وعبيد الله بن زياد في عدد كثير

---

(16) السابق 179/4.

(17) السابق.

مثل الشوك والشجر، فإن شئتم دخلتم مدينتنا وكانت أيدينا واحدة، فإذا جاءنا هذا العدو قاتلناهم جميعاً.» (..) فقال سليمان بن صرد : «قد طلب أهل مصرنا ذلك منّا فأبينا عليهم» (18).

وفي رواية الطبري أنه عرض عليهم أيضاً: «أتاكم عدد كثير، وحدٌ حديد، وايم الله لقلّ ما رأيتُ رجالاً هم أحسن هيئةً ولا عدةً، ولا أخلق لكلّ خير من رجال أراهم معك؛ ولكنه قد بلغني أنه قد أقبلت إليكم عدّة لا تُحصى؛ فقال ابن صُرَد: «على الله توكلنا وعليه فليتوكل المتوكلون، ثم قال زفر«فهل لكم في أمر أعرضه عليكم؛ لعلّ الله أن يجعل لنا ولكم فيه خيراً؟ إن شئتم فتحنا لكم مدينتنا فدخلتموها فكان أمرنا وأمركم واحداً وأيدينا واحدة، وإن شئتم نزلتم على باب مدينتنا، وخرجنا فعسكرنا إلى جانبكم؛ فإذا جاء هذا العدو قاتلناهم جميعاً.» (19).

فكان جواب أمير التوابين أنه رفض أيضاً هذا العرض وقال له: لسنا فاعلين، وشكره على نصيحته.

لكن هذا الوالي كان خبيراً بالحروب، وعلى دراية بمنازلة الخصوم، وله خبرة في اختيار المواقع الإستراتيجية، فعرض عليهم خطة عسكرية عاجلة: «قال زفر: فبادروهم إلى عين الوردة وهي رأس عين فاجعلوا المدينة في ظهوركم يكون الرستاق والماء والمادة في أيديكم ومابيننا وبينكم فأنتم آمنون منه، فاطووا المنازل، فوالله ما رأيت جماعةً قط أكرم منكم، فإني أرجو أن تسبقوهم، وإن قاتلتموهم فلا تقاتلوهم في فضاء ترامونهم وتطاعنونهم فإنّهم أكثر منكم، ولا آمن أن يحيطوا بكم، فلا تقفوا لهم فيصرعوكم، ولاتصفوا لهم ، فإني لاأرى معكم رَجّالة ومعهم

(18) السابق 180/4.

(19) الطبري 594/5.

الرّجّالة والفرسان بعضهم يحمي بعضاً، ولكن القوهم في الكتائب والمقانب ثم بثّوهم فيما بين ميمنتهم وميسرتهم واجعلوا مع كل كتيبة أخرى جانبها، فإن حُمل على إحدى الكتيبتين رحلت الأخرى فنفّست عنها، ومتى شاءت كتيبة ارتفعت، ومتى شاءت كتيبة انحطّت، ولوكنتم صفاً واحداً فزحفتْ إليكم الرّجالة فدفعتم عن الصفّ انتقض فكانت الهزيمة. ثم ودعهم ودعا لهم ودعوا له وأثنوا عليه» (20).

خلاصة خطة والي قرقيسيا:

1- أن يسرع التوابون إلى منطقة عين الوردة، وهي عين بها ماء قبل عدوهم وكأنه يذكرهم بمشورة الحباب بن المنذر رضي الله عنه لرسول الله صلى الله عليه وسلم قبيل معركة بدر2هـ.

2- ألا يقاتلوهم في أرض مكشوفة لأن جند الشام أكثر عدداً.

3- ألا يقاتلوا عدوهم في صف واحدلعدم وجود رجالة (المشاة) الذين يحمون الفرسان.

4- أن يقسموا أنفسهم إلى كتائب بغية تشتيت مجهود عدوهم، مع وجود كتيبة احتياطية تحارب بجانب الأخرى لحمايتها ولإعطائها الفرصة لالتقاط أنفاسها في حالة التعب.

5- نلاحظ أن زفر بن الحارث يرسم خطته مع اعطاء تبريرات وفوائد هذه الخطة تفصيلياً، ولولا خشية الإطالة لكان لنا مع هذه الخطة دراسة مستفيضة.

نلاحظ أن التوابين أخذوا بهذه النصيحة وقاتلوا عدوهم عند عين الوردة كما

---

(20) الكامل 4/180.

أراد زفر بن الحارث، مما ساعدهم في النيل من عدوهم في أول المعركة.

معركة عين الوردة 65هـ:

ثم ساروا مجدين فانتهوا إلى عين الوردة، فقام أميرهم سليمان صُرد رضي الله عنه مبيناً لهم كيفية قتال عدوهم:

«أما بعد فقد أتاكم عدوكم الذي دأبتم إليه في المسير آناء الليل والنهار، فإذا لقيتموهم فاصدقوهم القتال واصبروا إن الله مع الصابرين، ولا يولّينّهم امرؤٌ دُبُرَه إلاّ متحرفاً لقتال أو متحيزاً إلى فئة، ولا تقتلوا أسيراً من أهل دعوتكم إلا أن يقاتلكم بعد أن تأسروه، فإنّ هذه كانت سيرة عليّ (ابن أبي طالب رضي الله عنه) في أهل هذه الدعوة.»(21).

«ثم قال: إن أنا قُتلتُ فأمير النّاس مسيب بن نَجَبَة، فإن قُتل فالأمير عبدالله بن سعد بن نُفيل، فإن قتل فالأمير عبدالله بن وال، فإن قتل فالأمير رِفاعة بن شدّاد، رحم الله امرأً صدق ما عاهد عليه الله.»(22).

هكذا كانت سريةُ مؤتة 8هـ ماثلةً أمام ابن صُرد وهو يوصي جماعته في اختيار الأمير حالة قتله.

وأقبل جند الشام في جيش عرمرم (ثلاثين ألف رجل) في مقابل تعداد جيش التوابين أقل من أربعة آلاف رجل، والتقى الجمعان في عين الوردة وحمي وطيس المعركة غير المتكافئة، ودارت رحى المعركة فقاتل أميرهم ابن صرد حتى قُتل رضي الله عنه فأخذ الرايةَ ابنُ نَجَبَة فقاتل حتى قُتل فأخذ الراية عبدالله بن سعد، فقاتل

(21) السابق 181/4.

(22) السابق نفس الصفحة.

حتى قتل فأخذ الراية عبدالله بن وال فقاتل حتى قتل ، ثم أخذها رفاعة بن شداد فانحاز بالناس إلي حصن قرقيسيا ومنها إلى الكوفة حتى تشتت الناس في بقاع الأرض، وأسدل الزمن ستاره على جماعة التوابين وهم مابين قتيل وجريح وطريد وأسير.

هكذا أسدل التاريخ ستاره على جماعة التوابين، الجماعة التي صرنا نتذاكرها في سجل التاريخ العريض، لكن حركتهم وللأسف الشديد منسية لم تأخذ العناية الكافية من الدراسة والتحليل والقاء الضوء، هذه الجماعة التي كان يتزعمها أشياخ وأهل صلاح وتقوى وشجاعة. هكذا كانت نهاية جماعة التوابين التي لم يظهر لها أثر مادي بعد ذلك خلال الحقب التاريخية كبعض الجماعات الأخرى التي كانت لها أتباع يحيون أفكارها وكان لهم أثر لاينكر على مسرح التاريخ الإسلامي. أما جماعة التوابين فقد قتل قادتهم وقتل معظم جيشهم في عين الوردة ومن عاش أثخنته الجراح أو أنهكه الأسر أو خذله الأعوان. لكنهم رغم قلتهم ضربوا أروع الأمثال، وسطروا صحائف من ضياء في البطولة والجهاد في سبيل الله رحمة الله عليهم.

مواقف جهادية لبعض قادة واعضاء جماعة التوابين:

الأمير عبدالله بن وال التيمي:

ذكر الطبري بسنده: «قال: قال لنا ابن وال: مَنْ أراد الحياة التي ليس بعدها موتٌ ، والراحة التي ليس بعدها نَصَبٌ، والسرورَ الذي ليس بعده حزنٌ، فليتقرب إلى ربه بجهاد هؤلاء المحلّين، والرواح إلى الجنة رحمكم الله! وذلك عند العصر، فشدَّ عليهم وشددنا معه، فأصبنا منهم رجالاً، وكشفناهم طويلاً، ثم إنهم بعد ذلك تعطّفوا علينا من كلّ جانب، فحازونا حتى بلغوا بنا المكان الذي كنا فيه، وكنا بمكان لايقدرون أن يأتونا فيه إلاّ من وجه واحد، ووليَ قتالنا عند المساء أدهم بن مُحرز

الباهليّ (أحد قواد الشام)، فشدّ علينا في خيله ورجاله، فقتل عبدالله بن وال التيمي»(23).

موقف عبدالله بن عزيز الكندي:

«وخرج عبدالله بن عزيز الكندي ومعه ابنه محمد غلام صغير. فقال: ياأهل الشام، هل فيكم أحدٌ من كندة؟ فخرج إليه منهم رجال. فقالوا: نعم، نحن هؤلاء، فقال لهم: دونكم أخوكم فابعثوا به إلى قومكم بالكوفة، فأنا عبدالله بن عزيز الكندي، فقالوا له: أنت ابن عمّنا، فإنك آمن، فقال لهم: والله لاأرغب عن مصارع إخواني الذين كانوا للبلاد نوراً وللأرض أوتاداً، وبمثلهم كان الله يُذكَر؛ قال: فأخذ ابنه يبكي في أثر أبيه، فقال: يابنيّ، لو أنّ شيئاً كان آثرَ عندي من طاعة ربي إذاً لكنتَ أنت، وأنشدَه قومه الشاميون لما رأوا من جزع ابنه وبكائه في أثره، وأروا الشاميون له ولابنه رِقّة شديدة حتى جزعوا وبكوا، ثم اعتزل الجانب الذي خرج إليه منه قومه، فشدّ على صفهم عند المساء، فقاتل حتى قُتل.»(24).

موقف كريب بن زيد الحميري:

لما علم كريب بخطة انحياز رفاعة بن شداد استرجع وسار في مائة رجل لقتال أهل الشام، ولنترك الطبري ينقل لنا هذه الصورة بسنده: «أن كريب بن زيد الحميري مشى إليهم عند المساء ومعه راية بَلقاء في جماعة، قلما تنقص عن مائة رجل إن نقصت، وقد كانوا تحدثوا بما يريد رفاعة أن يصنع إذا أمسى، فقام لهم الحميري وجمع رجالاً من حمير وهَمْدَان، فقال: عباد الله! رُوحوا إلى ربكم، والله ما في شئ من الدنيا خَلَف من رضاء الله والتوبة إليه، إنه بلغني أن طائفة منكم يريدون أن يرجعوا إلى ماخرجوا منه إلى دنياهم، وإن هم ركنوا إلى دنياهم رجعوا إلى خطاياهم، فأما أنا فوالله لا أولّي هذا العدو ظهري حتى أردَ مَوارِدَ إخواني؛

---

(23) الطبري 603/5.

(24) السابق 604/5.

فأجابوه وقالوا: رأينا مثل رأيك. ومضى برايته حتى دنا من القوم، فقال ابن ذي الكَلاع: والله إني لأرى هذه الراية حِمْيَرية أوهَمْدَانية، فدنا منهم فسألهم، فأخبروه، فقال لهم: أنتم آمنون. فقال له صاحبهم: إنا كنا آمنين في الدنيا، وإنما خرجنا نطلب أمان الآخرة؛ فقاتلوا القوم حتى قتلوا»(25).

موقف صخير بن حذيفة بن هلال بن مالك المزني:

مشى في ثلاثين من قومه مُزَينة فقال: «لاتهابوا الموت في الله فإنه لاقيكم، ولاترجعوا إلى الدنيا التي خرجتم منها إلى الله فإنها لاتبقى لكم، ولاتزهدوا فيما رغبتم من ثواب الله فإنَّ ما عند الله خيرٌ لكم؛ ثم مضوا فقاتلوا حتى قتلوا»(26).

موقف عبدالله بن خازم:

«وإنّ رجلاً من بني كثير من الأزد يقال له عبدالله بن خازم مع امرأته سهيلة بنت عمرو من بني كثير، وكانت من أجمل الناس وأحبِّهم إليه، سمع الصوت: ياثارات الحُسين! وما هو ممن كان يأتيهم، ولا استجاب لهم. فوثب إلى ثيابه فلبسها، ودعا بسلاحه، وأمر بإسراج فَرَسه، فقالت له امرأته: ويحك! أجُننت! قال: لا والله، ولكني سمعتُ داعيَ الله، فأنا طالبٌ بدم هذا الرجل حتى أموت، أو يقضيَ الله من أمري ما هو أحبّ إليه، فقالت له: إلى مَنْ تدعُ بُنَيَّك هذا؟ قال: إلى الله وحده لاشريك له؛ اللهمَّ إني أستودعُك أهلي وولدي، اللهمَّ احفظني فيهم»(27).. فخرج مع التوابين وقاتل حتى قتل.

أبو عزة القابضي:

لما سمع الناس يصيحون ياثارات الحسين! «فخرج حتى أتى أهله، وأخذ سلاحه، ودعا بفرسه ليركبه، فجاءته ابنتُه (..) فقالت: ياأبتِ مالي أراك قد تقلدتَ

---

(25) السابق 5/604.

(26) السابق.

(27) السابق 5/584.

سيفكَ، ولبستَ سلاحك! فقال لها: يابُنية، إنّ أباك يفرّ من ذنبه إلى ربّه، فأخذتْ تنتحب وتبكي، وجاءه أصهارُه وبنو عمه، فودّعهم، ثم خرج، فلحق بالقوم»(28).

ملحمة التوابين بالشعر:

لقد صور لنا هذه الملحمة التاريخية أعشى هَمْدَان ، وكان الناس يتداولونها سراً، وهي إحدى المكتّمات، كُنّ يُكتَّمن في ذلك الزمان. نظراً لطولها؛ نختار منها بعض الأبيات وهي قصيدة رائعة باكية ذكرها الطبري بتمامها في تاريخه:

ألمْ خيالٌ منكِ يا أمَّ غالبِ فَحُيِّيتِ عنْ من حبيبٍ مُجانبِ
وما زلتِ شَجْوَاً لي وما زلتُ مُقصَداً لِهَمٍّ عَرانِي من فراقِكِ ناصبِ

ثم يصف لنا ماحدث للتوابين:

وما أنا فيما يُكبِرُ الناسُ فقده ويسعى له الساعونَ فيها براغبِ
فوجهَهُ نحوَ الثَّوِيَّةِ سائراً إلى ابن زيادٍ في الجموعِ الكباكبِ
بقومٍ همُ أهلُ التقيَّةِ والنُّهَى مَصَاليتُ أنجادٌ سُراةُ مَنَاجبِ

ثم يقول مادحاً ومثنياً ومترحماً عليهم:

فيا خيرَ جيش للعراق وأهله سُقيتم روايا كلِّ أسحمَ ساكبِ
فلا يَبْعَدنْ فُرسانُنا وحُماتُنا إذا البيضُ أبدَت عن خدام الكواعبِ
فإنْ يُقتلوا فالقتلُ أكرمُ ميتةٍ وكلُّ فتىً يوماً لإحدى الشَّواغبِ
وما قُتلوا حتى أثاروا عصابةً مُحلين ثُوراً كالليوثِ الضواربِ»(29)

---

(28) السابق 584/5.
(29) السابق5/608-609.

خامسا: أسباب فشل حركة التوابين:

1- نلاحظ بعد هذا العرض قلة عددهم إذا ماقورن بخصومهم (4000 في مقابل 30000)، ولكن قد يثور في الذهن أن قلة العدد ليست سبباً أساسياً في الفشل ووقوع الهزيمة! ودليل ذلك قول الله تعالى: (وكم من فئة قليلة غلبت فئة كثيرة بإذن الله).. وردنا على ذلك أن الآية القرآنية تتكلم عن فئة استحقت عناية الله ومعيته ونصرته.. هذه الفئة قد أخذت بالأسباب التي شرعها الله في مثل هذه المواطن من الصراع. فالفئة القليلة قد أعدت واستعدت واتخذت كافة التدابير الإحترازية بقدر المستطاع وأفرغت وسعها في إعداد العدة للمعركة. ومن ثم استحقت النصر الموعود والتي بشرها الله بهافي القرآن كما حدث للصحابة في غزوة بدر وغيرها رضي الله عنهم. وعلى مدار التاريخ الإسلامي نجد أن هذه القلة التي أخذت بهذه الأسباب الكونية التي خلقها الله للمسلم والكفار. فلما استمسكت الفئة القليلة المؤمنة بهذه الأسباب عوض الله قلتها بأن أيدها بجنده وقذف الرعب في قلوب أعدائها. أما جماعة التوابين رغم شهادة السلف لهم بالتقوى والصلاح والزهد في الدنيا والجهاد في سبيل الله إلا أنهم لم يأخذوا بالأسباب الموجبة للنصر كما هو واضح من نصائح الولاة والمخلصين لهم في عدم الخروج إلا بعد اعداد العدة.

2- قدوم المختار الثقفي وظهوره على الخريطة السياسية في الكوفة كان له أثر كبير في انصراف الناس بل وانشقاق التوابين عن أميرهم سليمان بن صرد. فقد كان يزعم أنه مفوض من قبل ابن الحنفية رحمه الله للثأر بدم الحسين وأنه وليه، مما ثبط الناس وأقعدهم عن الخروج مع جيش التوابين.

3- خذلان معظم أعضاء الجماعة لقادتهم وانصرافهم عنهم فلم يأت إلا 4 آلاف من 16 ألف رجل، وظلوا ينقصون حتى قبيل معركة عين الوردة.

4- عدم أخذهم بنصيحة والي الكوفة عبدالله بن يزيد الأنصاري، وكذا عدم سماع نصح والي الخراج على الكوفة إبراهيم بن محمد اللذين طلبا منهم أن يظلوا معهم في الكوفة حتى يتهيأوا ويعدوا العدة ليقاتلوا عدوهم جميعاً. أو حتى مناصرتهم في قتالهم لعدوهم ، لأنهم في هذه الحالة سيقاتلون وهم في حماية ذويهم وأهليهم وإخوانهم.

5- عدم أخذهم بنصيحة والي قرقيسيا زفر بن الحارث الذي عرض لهم أن يبقوا معه في حصنه ليقاتلوا عدوهم جميعاً، أو يظلوا مرابطين أمام الحصن هم وجنده ورغم ذلك أبى التوابون وأصرت قيادتهم على الخروج لقتال عدوهم كفاحاً

6- نلاحظ ضعفهم العسكري والتكتيكي: من خلال نصيحة زفر بن الحارث الذي أشار عليهم بتغيير موقع القتال ونصحهم بالإسراع إلى منطقة عين الوردة. كما أن خطته في طريقة القتال وتعبئة الجنود يدل على مهارته وحنكته، وفي الوقت نفسه يدل على بساطة التوابين رغم شجاعتهم الفردية إلا أن المعارك تكون جماعية وتعتمد على الخداع والكر والفر والمناورة.

ونود في هذا السياق أن نرد على مقولة الدكتور شحاتة الناطور الذي قال:

«لم يمد ابن الزبير التوابين وبالمال السلاح أو الجند(..) وعلى كل حال أبلى التوابون في عين الوردة وقتلوا من جيش الأمويين عدداً كبيراً، ولكن موقف ابن الزبير وواليه كان سلبياً وهنا قد أضر بمكانته في العراق»(30).

وردنا على د.الناطور يتلخص في الآتي:

ماذا عسى ابن الزبير أن يفعل أكثر مما ذكره الإخباريون والرواة؛ فواليه على

---

(30) عبد الله بن الزبيرو الإنتفاضة الثورية في عهد بني أمية للدكتور شحاتة الناطور ص148.

الكوفة قد بذل لهم النصيحة وأعانهم بالسلاح والعتاد، ولم يقصر في النصح لهم والإشفاق عليهم وأرسل لهم رسالة يطلبهم بالرجوع إلى الكوفة والتحصن بها لقتال عدوهم ولعلمه بضعفهم . ووالي ابن الزبير على الخراج ابراهيم بن محمد بذل لهم مثل والي الكوفة عبدالله بن يزيد. أما والي قرقيسيا من قبل ابن الزبير زفر بن الحارث فهو الذي زودهم بالطعام وبالخيل وبالسلاح وطلب منهم التحصن معه في حصنه والإنتظار حتى يقاتلوا عدوهم جميعاً ودعاهم إلى وحدة الصف، فأبوا وأصروا ورغم ذلك لم يقصر في حقهم حتى في رسم الخطة العسكرية وبعد المعركة أيضاً فهذا الوالي نفسه هو الذي كان يضمد الجرحى ويعينهم ويطعمهم وأوصلهم إلى الكوفة وإلي بقية أمصارهم. وماذا عسى ابن الزبير أن يفعل وهو كان يحارب على عدة جبهات في وقت واحد. أليس من الأجدى والأنفع أن يتحدوا معه ويقاتلوا عدوهم جميعاً .؟!

نلاحظ أن الضعف الإداري لديهم والقيادي أيضاً بالمقارنة بقادة جيش الشام : فالقائد العام عبيدالله بن زياد. وقائد الجيش الحصين بن نُمير وقادة مشاهير أخر مثل شُرَحْبيل بن ذي الكَلاع وأدهم بن مُحْرِز وجَبَلّة بن عبدالله الخثعمي. وقد كان هذا الضعف العسكري واضحاً حتى أثناء القتال: ففي معمعة المعركة يتجادل التوابون فعبدالله بن خازم يتجادل مع الأمير عبدالله بن وال في امساك الراية، وكأنه استقلها حتى صاح فيه إخوانه : أطع أميرك يرحمك الله . ليس هذا وقت الجدال. فأمسكها قليلاً ثم أخذها عبدالله بن وال. فقضية السمع والطاعة كانت مهزوزة إلى حد كبير وكأنهم خرجوا ليقاتلوا فرادى، وبالطبع هذا الجدل كان له أثر كبيرفي زعزعة معنويات جند التوابين. وللأسف الشديد نجد أن هذا الجدل وهذا الخلف تكرر في عدة مواطن من خلال دراستنا لهذه الحركة .. فمثلاً عندما أراد أميرهم رفاعة بن شداد أن ينحاز بالبقية الباقية من جيش التوابين، لم يعجب ذلك بعض الناس، فرفضوا وانغمسوا في عدوهم واعتبروا أن مايفعله أميرهم فراراً، رغم أن مافعله رفاعة بن شداد يماثل ما فعله خالد بن الوليد رضي الله عنه في

مؤتة عندما انحاز بجيش المسلمين لعدم التكافؤ بين الطرفين وليحافظ على البقية المقاتلة معه.وسنجد تصداق ذلك مافعله عبدالله بن غزية الذي أصر على الإنغماس في عدوهم، ونفس الصورة مع عبدالله بن جزء، وعبده بن سفيان . لدرجة أن إخوانهم أشفقوا عليهم وكانوا يلحون عليهم ويرجونهم أن يبقوا معهم باعتبارهم من خيار الناس ولكي لايطمعوا فيهم عدوهم أكثر مما حدث.. فكان الرجل يقاتل وحده ويترك إخوانه.

7- وجود كيان قائم في تلك الحقبة وكان هذا الكيان هو بيعة الناس لعبدالله بن الزبير رضي الله عنه، ورغم ذلك لم يتحدوا معه ولم يستفيدوا من قتاله لجند الشام.مما أدى إلى الفشل الذي حلّ بهم.

8- لم يأخذوا برأي قائد منهم وهو عبدالله بن سعد الذي صار أميراً فيما بعد الذي رأي أن يقتلوا من في أيديهم ممن اشترك في قتل الحسين رضي الله عنه، ورفض ابن صُرد وأصر على قتل الرأس المدبر رغم قلتهم وضعف حالهم كما بينا آنفاً.

سادسا: اقوال أهل العلم فيهم:

الحافظ شمس الدين الذهبي:

يقول عنه في سير أعلام النبلاء: « سليمان بن صُرَد الأمير أبو مطرِّف الخزاعي الكوفي الصحابي، له رواية يسيرة. عن أُبي وجبير بن مُطعم(..) قال ابن عبدالبر: كان ممن كاتب الحسين ليبايعه ، فلما عجزعن نصره ندم وحارب. قلتُ: كان ديناً عابداً، خرج في جيش تابوا إلى الله من خذلانهم الحُسين الشهيد، وساروا للطلب بدمه، وسمُّوا جيش التوابين. وكان هو الذي بارز يوم صفين حَوشباً ذا ظُليم، فقتله. حضَّ سليمان على الجهاد؛ وسار في ألوف لحرب عبيد الله بن زياد(..) والتقى

الجمعان ، وكان عبيدالله في جيش عظيم، فالتحم الفريقان ثلاثة أيام، وقتل خلق من الفريقين، واستحرّ القتل بالتوابين شيعة الحسين، وقتل أمراؤهم الأربعة: سليمان، والمسيِّب، وعبدالله بن سعد، وعبدالله بن وال، وذلك بعين الوردة التي تُدعى رأس العين سنة خمس وستين، وتحيّز بمن بقي منهم رفاعة بن شداد إلى الكوفة»(31).

العلامة ابن الأثير الجزري:

قال عنه في أسد الغابة: «سليمان بن صُرد(..) كان اسمه في الجاهلية يساراً فسماه الرسول صلى الله عليه وسلم سليمان، يكنى أبا المُطَرِّف. وكان خيراً فاضلاً، له دينٌ وعبادة، سكن الكوفة أوّل ما نزل المسلمون، وكان له قدر وشرف في قومه، وشهد مع علي بن أبي طالب رضي الله عنه مشاهده كلها، وهو الذي قتل حوْشَبًا ذا ظُلَيْم الألهاني بصفين مبارزةً، وكان فيمن كتب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهمابعد موت معاوية، يسأله القدوم إلى الكوفة، فلما قدمها ترك القتال معه، فلما قتل الحسين نَدم هو والمسَيَّب بن نَجَبَة الفزاري، وجميع مَنْ خذله ولم يقاتل معه، وقالوا: مالنا تَوبة إلا أن نطلب بدمه، فخرجوا من الكوفة في مستهل ربيع الآخر من سنة خمس وستين، وولوا أمرهم سليمان بن صُرد، وسموه أمير التوابين، وساروا إلى عبيدالله بن زياد، وكان قد سار من الشام في جيش كبير يريد العراق، فالتقوا بعين الوردة، من أرض الجزيرة، وهي رأس عين، فقتل سليمان بن صُرَد والمسيب بن نجبة وكثير ممن معهما، وحمل رأس سليمان والمسيب إلى مروان بن الحكم بالشام، وكان عمر سليمان حين قتل ثلاثاً وتسعين سنة»(32).

الحافظ ابن كثير:

يقول عنه في البداية والنهاية: «وكان جيش سليمان بن صُرَد وأصحابه يسمى

---

(31) سير أعلام النبلاء 3/394-395.

(32) أسد الغابة2/297-298.

بجيش التوابين رحمهم الله، وقد كان سليمان بن صرد الخزرجي صحابياً جليلاً نبيلاً عابداً زاهداً، روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أحاديث في الصحيحين وغيرهما، وشهد مع علي (رضي الله عنه) صفين، وكان أحد من يجتمع الشيعة في داره لبيعة الحسين(رضي الله عنه)» (33).

الحافظ ابن حجر العسقلاني:

يقول عنه في الإصابة: «سليمان بن صرد(..) وكان خيراً فاضلاً شهد صفين مع علي (رضي الله عنه) وقتل حوشياً مبارزة ثم كان ممن كاتب الحسين (رضي الله عنه) ثم تخلف عنه ثم قدم هو والمسيب بن نجبة في آخرين فخرجوا في الطلب بدمه وهم في أربعة آلاف فالتقاهم عبيدالله بن زياد بعين الوردة بعسكر مروان فقتل سليمان ومن معه في سنة خمس وستين في شهر ربيع الآخر وكان لسليمان يوم قتل ثلاث وتسعون سنة» (34).

الحافظ أبو عمر بن عبد البر:

قال عنه في الإستيعاب: «كان رضي الله عنه فاضلاً له دين وعبادة كان اسمه في الجاهلية يساراً فسماه رسول الله صلى الله عليه وسلم سليمان (..) وله سن عالية وشرف وقدر وكلمة في قومه شهد مع علي رضي الله عنه صفين (..) وكان فيمن كتب إلى الحسين بن علي رضي الله عنهما يسأله القدوم إلى الكوفة فلما قدمها ترك القتال معه، فلما قتل الحسين رضي الله عنه ندم هو والمسيب بن نجبة الفزاري وجميع من خذله إذ لم يقاتل معه ثم قالوا ما لنا من توبة مما فعلنا إلا أن نقتل أنفسنا في الطلب بدمه فخرجوا فعسكروا بالنخيلة (..) وولوا أمرهم سليمان بن صرد وسموه أمير التوابين ثم ساروا إلى عبيد الله بن زياد(..) فاقتتلوا فقتل

---

(33) البداية والنهاية 255/4.

(34) الإصابة في معرفة الصحابة لابن حجر 76/2.

سليمان بن صرد والمسيب بموضع يقال له عين الوردة» (35).

سابعا: صفوة القول

هكذا نكون قد ألقينا الضوء على جماعة التوابين؛ تلك الجماعة التي ظهرت في القرن الهجري الأول والخلافة الإسلامية قائمة، جماعة تخلفت عن نصرة ابن بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وخذلت آل البيت ثم كانت كربلاء التي جرت على الأمة بلاءً وويلات تعاني منها أمتنا إلى وقتنا الحاضر. طلب التوابون المغفرة من الله وحده وشعروا أنه لن يتحقق لهم ذلك إلا بتوبة صادقة بقتل قتلة الحسين أو قتل أنفسهم في طلب دم آل البيت رضي الله عنهم. لذلك لاعجب أن نرى اصرارهم على ملاقاة جيش ابن زياد رغم قلتهم. لاعجب أن نرى عزمهم على المضي لقتال جند الشام وعدم استجابتهم لنداءات ونصائح الولاة المخلصين لهم بالتريث لعلمهم بقوة جيش الشام واعداده وتنظيمه. غير أن القوم كان يحركهم شوق إلى لقاء ربهم لنوال المغفرة والغفران من الله سبحانه وتعالى.

من خلال هذا العرض رأينا كيف تعامل سلفنا الصالح معهم وكيف نظروا إليهم، فلم يلعنوهم، ولم يتهموتهم بالتهور والجنون والإنتحار وتعريض المسلمين وأنفسهم للتهلكة والخطر، لم يعلقوا من عاش منهم على أعواد المشانق. لم يتهموا أميرهم بصلابة الرأي وعدم النظر في عواقب الأمور.. لم يفعلوا كما نفعل نحن اليوم بأنفسنا رغم البون الشاسع بيننا وبينهم ورغم عدم وجود هياكل أو حتى كيانات إسلامية نحتمي بها أو نلجأ إليها. لم يفعل السلف بالتوابين كما نفعل نحن مع أي جماعة مجاهدة أياً كان اسمها.. لقد رمتنا الدنيا بقوس واحدة فلا عبدالله بن الزبير رضي الله عنه في الحجاز ولاولاته في الكوفة أو قرقيسيا ولا الناس هم الناس .. بل نحن في حال لايعلمه إلا الله.. ترفقوا بأنفسكم أيها المسلمون فنحن

(35) الإستيعاب في معرفة الأصحاب 2/63-64.

اليوم أقل من القلة التي ذكرها الحسن البصري رحمه الله يوم أن رأى الناس في زمانه مختلفين.. ترحم السلف على التوابين وذكروهم في أنصع صحائفهم، بل أشفق عليهم حتى الخصوم. لذلك لم يبق لنا إلا أن نترحم عليهم جميعاً، وفي الختام ندعو الغيورين على تاريخ أمتنا أن يعيدوا قراءة وكتابة تاريخ جماعة التوابين وقراءتها بنظرة جديدة وعدم الإكتفاء بالسرد التاريخي، بل نوجه دعوتنا إلى الحركات الإسلامية وخاصة المجاهدة أن تستفيد من دراسة مثل هذه الحركات مع استخلاص العبر والعظات.

والله الموفق

... نزل القرآن الكريم بهذه اللغة على نمط يعجز قليله وكثيره معا: فكان أشبه شيء بالنور في جملة نسقه، إذ النّور جملة واحدة وإنما يتجزأ باعتبار لا يخرجه من طبيعته، وهو في كل جزء من أجزائه وفي أجزائه جملة لا يعارض بشيء إلا إذا خلقت سماء غير السماء، وبدّلت الأرض غير الأرض، وإنما كان ذلك لأنه صفّى اللغة من أكدارها، وأجراها في ظاهرها على بواطن أسرارها. فجاء بها في ماء الجمال أملأ من السحاب، وفي طراءة الخلق أجمل من الشباب، ثم هو بما تناول بها من المعاني الدقيقة التي أبرزها في جلال الإعجاز، وصوّرها بالحقيقة وأنطقها بالمجاز، وما ركبها به من المطاوعة في تقلب الأساليب، وتحوّل التراكيب إلى التراكيب، قد أظهرها مظهرا لا يقضى العجب منه، لأنه جلاها على التاريخ كلّه لا على جيل العرب بخاصته، ولهذا بهتوا لها حتى لم يتبينوا أكانوا يسمعون بها صوت الحاضر أم صوت المستقبل أم صوت الخلود، لأنها هي لغتهم التي يعرفونها، ولكن في جزالة لم يمضغ لها شيح ولا قيصوم، ورقّة ما انتهى إليهم من أمر الحاضرة، وهذا معنى ليس أظهر منه في إعجاز القرآن، فإن اللغة لا تشب عن أطوار أهلها متى كانت من غرائزهم، وإنّما تكون على مقدارهم ضعفا وقوّة لأنها صورتهم المتكلّمة وهم صورتها المفكّرة، فهي ألفاظ معانيهم وهم في الحقيقة معاني ألفاظها؛ ولذلك لا تزيد عليهم ولا ينقصون عنها ما دام رسمهم لم يتغيّر وما دامت عاداتهم لم تنتقل...

‹ إعجاز القرآن › للرافعي رحمه الله

الفهرس

المجلة

تعبر عن رأي كاتبها،

وهي ملزمة بكل ما يكتب فيها،

وهي بهذا تعبر عن موقف المسلم في

فهمه لقضايا الدين والعصر، ولذا تدعو الإخوة

الأحبة أن يمدوها بما لديهم من مشاركات علمية

ودعوية وفكرية ومنهجية وأدبية تخدم ما

تحمله من منهج وهدف، وسيجد

الإخوة في هذه المجلة طريقهم

المفتوح إذا أغلقت

أمامهم السبل

والله الموفق

المنهاج

السّعر 3 جنيهات إسترليني أو ما يعادلها